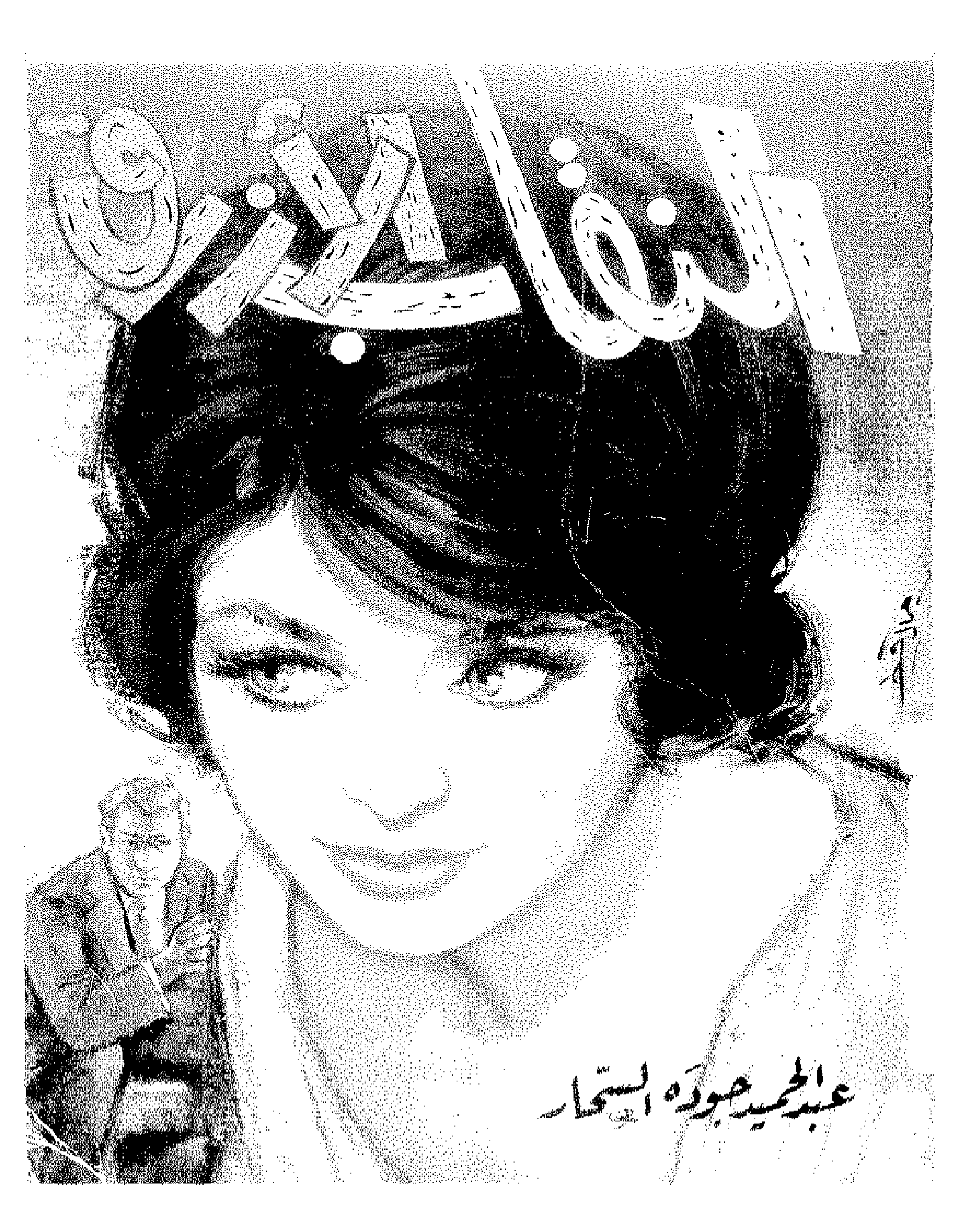

عبد الحميد جودة السحار

مطبوعات مكتبة مصر

النقاب الأزرق

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

السماء ملبدة بغيوم قاتمة تحجب الشمس عن الأرض المقرورة ، والرياح تهب مزمجرة باردة فتمايل فى شدة أغصان الأشجار العارية الممتدة على جانبى الطريق الموصل بين كلية البوليس وشارع العباسية ، وخلا المكان من الناس فقد لاذوا بدورهم من البرد القارس الذى كان يجمد الدماء فى أطرافهم ويسرى القشعريرة فى أبدانهم .

وفى ذلك الجو العابس المكفهر انساب إلى الطريق الهادئ الساكن طلبة الكلية بقاماتهم الممشوقة وهم فى ثيابهم الرسمية فلطمت الرياح وجوههم وصك صفيرها آذانهم فلم يقطبوا جباههم أو يبدوا تأففا ، بل انطلقوا خفافا منبسطة أساريرهم منشرحة صدورهم ، فاليوم يوم الخميس يوم تحقيق الأمانى ولقاء الأحبة .

ساروا وقد شغلوا عن ذلك الزمهرير بما يعتمل فى صدورهم من إحساسات وبما يدور فى رءوسهم من أفكار ، تباينت أحلامهم واختلفت أهواؤهم ولكنهم اتفقوا فى السبح فى بحور الخيال ، فما كان أحدهم ينطلق خالى البال لا يفكر فيما يفعله فى الليلة المحبوبة التى يقضيها طليقا بعد أسبوع من العمل المضنى الشاق .

ووصلوا إلى محطة الترام فغصت بهم حتى إن فتيات المدارس اضطروا إلى الانسحاب إلى الطوار ، ثم أخذوا يتلفتون ناحية اليسار إرصادا لمقدم الترام . وينظرون خلفهم إلى الفتيات اللاتى كن يرتجفن من البرد القاسى الذى لم يرحم إجسامهن الدقيقة الغضة .

وكانوا كلما أقبل ترام قفز إليه فريق منهم وعيونهم ترنو إلى الفتيات وقد

توجت الابتسامات ثغورهم وترقرقت الحياة فى محياهم فقد كسر شبابهم حدة الشتاء وراحت قلوبهم تنبض بالدم الفوار .

وجاء الترام رقم ٣ ، فصعد حسين واتجه إلى مقصورة الدرجة الأولى وقعد وراح يعبث بقبضة عصاه المكورة ، ثم ينظر من خلف زجاج النافذة ويشرد ببصره فلا يرى إلا ما يجرى فى ذهنه من رؤى وتصورات .

كان طويل القامة أبيض البشرة واسع العينين متناسق القسمات . وكانت سحنته أقرب إلى سحن الأطفال على الرغم من الشارب الأصفر الذى نما غزيرا ، وكان يتلفت كثيرا ينظر إلى الطريق برهة ثم ينظر إلى الجالسين معه فى المقصورة ، وسرعان ما يعود ليمد بصره إلى الطريق ويشرد وما كان يغيب فى شروده طويلا فما كان فى حياته ما يجعله يغرق فى التأمل والتفكير .

أحس جوعا يعضه فأخذ يفكر فيما أعدته له أمه من طعام ، فقد اعتادت أن تهيئ له طعاما دسما لذيذا فتحلب ريقه ، وراح يفكر فى السينما التى سيذهب إليها فى الليل ليشاهد رواية من روايات المغامرة والشجاعة والإقدام .

وقف الترام عند أول محطة فى شارع فاروق ، فهبط وقطع الطريق فى خطا واسعة ، ثم دلف إلى منزله وراح يصعد فى الدرج قفزا حتى إذا بلغ الطبقة الثانية راح يطرق الباب فى رفق ، وفتح الباب وما إن وقعت عينا أمه عليه حتى بسطت ذراعيها وقالت :

ـــ أهلا .. أهلا ..

وضمته إلى صدرها ثم أخذت تنظر إليه فى حنان وتقول فى ابتهال :

ـــ الله يحفظك أنت وأمثالك من الشباب .

وجلس على مقعد فى الردهة وأدار عينيه فى المكان وقال :

ـــ وأين بابا ؟

ـــ دعاكا عمك إلى الغداء وقد سبقك إلى هناك .

فنهض وقال :

ـــ ولكنى أتلوى من الجوع .

ـــ انتظر .

وغادرته واتجهت إلى حجرة المائده ، ثم عادت وفى يدها قطعة من الفطير .

فلما رآها ابتسم وقال :

ـــ ما هذا ؟

ـــ تصبيرة .

وفتح فاه فدست له فيه قطعة الفطير ، فأخذ يلوكها وقد مد عنقه حتى لا يسقط الفتات على ثيابه ، ومسح شفتيه بلسانه وقال :

ـــ لذيذة .

فتحركت أمه فقال لها :

ـــ إلى أين ؟ .

ـــ لأحضر لك قطعة أخرى .

فقال وهو سائر إلى الباب :

ـــ لا .. لست مدعوا عندك .

وفتح الباب وخرج ، فأسرعت ووقف عند رأس السلم ترقبه وهو هابط .

وغاب عن عينيها ، فانطلقت إلى النافذة المطلة على الطريق وراحت ترمقه حتى إذا أقبل الترام وصعد فيه قالت وقد سرى فى صدرها رضا :

ـــ فى حفظ الله .

وبلغ حسين بيت عمه فى الزمالك . كان بيتا فخما يتكون من طبقتين تحيط به حديقة منسقة بديعة ، فى ناحية منها خميلة جميلة صفت تحتها أرائك من الخشب ، وبالقرب منها نافورة ينساب منها الماء فيسمع له خرير ترتاح إليه النفوس .

راح يصعد فى الدرج الرخامى الفسيح والريح تعصف فى شدة ،

والسحب تتكاثف ، وتتكاثف ، ثم دلف إلى قاعة فسيحة فألفى غرفة الاستقبال مفتوحة ، ورقعت عيناه على أبيه فانبسطت أساريره وتقدم بقامته الممشوقة حتى أشرف على الموجودين فقال : .

ـــ السلام عليكم .

فقال عمه فى ترحيب :

ـــ أهلا بالضابط الهمام .

واتجه إلى عمه وصافحه وصافح امرأة عمه وأباه ، ثم اتجه إلى حيث كانت علية ابنة عمه فحياها فى رقة وجلس بالقرب منها ، وراح يشاركهم الحديث .

كان عمه كمال بك فى الخمسين . أنيق الملبس متورد الوجه موفور الصحة يبدو أصغر من سنة بكثير . وكانت زوجه سنية هانم فى الخامسة والأربعين مكتنزة الجسم أميل إلى القصر ناصعة البياض فى عينيها جمال ، وكانت تبدو أكبر من سنها حتى إن الكثيرين كانوا يحسبون كمال بك ابنها ، وكان ذلك يبلغ كمال بك فيبتسم ولا يفاتحها فى شيء من ذلك حتى لا يجرح كبرياءها .

وكان أبوه ـــ محمود أفندى ـــ طويل القامة عريض الكتفين لا يهتم بهندامه . قد نما شعره الذى امتزج فيه البياض بالسواد من تحت طربوشه الداكن ، ومال رباط عنقه ناحية اليسار فى إهمال ، وكانت ملامحه جامدة لا توحى بشيء .

أما علية فهى فتاة جذابة فى السابعة عشرة ترتدى ثيابا أنيقة ، تجملت فى بساطة تنم عن ذوق سليم . كانت زرقاء العينين دقيقة الأنف قرمزية الشفتين وردية الوجنتين يتموج شعرها كنهر يعكس صفرة الشمس ، ناهدة الصدر دقيقة الخصر لطيفة رقيقة تهفو إليها القلوب .

وأقبلت الخادم وقالت :

ـــ تفضلوا .. أعد الغداء .

فنهضوا وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، ثم ذهبوا إلى غرفة المائدة وقعدوا

يتناولون الطعام ، ولاحظت علية أن عمها يأكل فى تراخ فقالت له :

ـــ ما بال عمى لا يأكل اليوم ؟ لعل الطعام لا يعجبه !.

فنظر كمال بك إلى أخيه وقال :

ـــ كبر عمك يا بنية .

فقال محمود أفندى فى فزع :

ـــ ما مسنى الكبر ، لا زلت قويا أقوى من شاب .

فقال كمال بك :

ـــ ولكنك تأكل أكل طفل .

ـــ إننى آكل مثلك بل مثلكم جميعا .

وقالت علية وهى تبتسم :

ـــ لا . إنك لا تأكل يا عمى .

فتململ محمود أفندى ورنا إليها بطرف عينه وقال :

ـــ هذه مؤامرة ، تريدان أن تشغلانى عن الطعام بحديثكما ولكنى سأحبط مؤامرتكما ، سآكل دون أن ألتفت إلى كلامكما .

وتناول قطعة من اللحم ودسها فى فمه وأخذ يلوكها ، وأشار بأصبعه إلى حسين وإلى علية وقال فى زراية :

ـــ انظروا إلى شباب اليوم كيف يأكل ، إننى أذكر لما كنت فى سنكما كنت ..

فقاطعه كمال بك قائلا :

ـــ أى من نصف قرن مضى .

ـــ إننى لا أكبرك بكثير . بخمس سنوات فقط .

فالتفت كمال بك إلى زوجه وقال :

ـــ لا تصدقيه . إننى منذ كنت طفلا وأنا أراه على هذه الهيئة .

فتلفت محمود أفندى متبرما ثم قال :

— أين زوجتى الآن ؟

فقال كمال بك :

— لماذا ؟

— لتشهد لى .

وضحك الجميع ، وقالت علية :

— وماذا كنت تفعل لما كنت فى يوم ما فى مثل سننا ؟

— كنت ألتهم كل ما تصل إليه يدى . أذكر أننى عدت إلى البيت يوما وكنت أحس جوعا ، فذهبت إلى المطبخ فوجدت أوانى كثيرة ملىئت باللحم ، كانت أمى قد أعدت وليمة لضيوف من أقاربنا فأخذت آكل ما أمامى حتى أتيت على ما فى الأوانى جميعها .

فقالت سنية هانم :

— وماذا فعلت أمك ؟

— لا شىء ، دقت صدرها بيدها وبعثت فى شراء طعام من السوق .

وبرق البرق وزمجرت السماء وانهمر المطر غزيرا ، فنظروا صوب النوافذ لحظة . ثم غادروا حجرة المائدة وذهبوا إلى غرفة وثيرة فى ناحية منها معزف هائل ، وقعدوا مسترخين وصوت المطر المتساقط على زجاج النوافذ يصك آذانهم ، ومد محمود أفندى بصره إلى الشباك القريب منه وقال فى أسف :

— حبسنا هنا والأمر لله .

فقال كمال بك :

— وماذا وراءك ؟

— أعمال جليلة .

فابتسم كمال بك وقال وهو يهز يده ثم يبسطها كأنما يلقى بالترد :

— آه .

فغض محمود أفندى بصره ولم ينبس بكلمة ، وقالت علية :

— امكثا معنا حتى المساء ثم نذهب جميعا إلى الأوبرا .

فقال محمود أفندى :

— وماذا نشاهد هناك ؟ .

— كارمن .

فقال محمود أفندى وقد لوى شفته السفلى :

— لا أحب التمثيل .

— تسمع موسيقى رائعة وأغانى مطربة .

— لن يطربنى صوت بعد سى عبده .

وضحكت علية وسَنية هانم وابتسم كمال بك ، أما حسين فظل صامتا ، وقالت علية وهى تتجه إلى المعزف :

— سأسمعك قطعة من كارمن .

وقامت إلى المعزف وراحت تلعب عليه فى براعة فانبعثت أنغام قوية ثم انساب صوتها عذبا حنونا ، واتسعت عينا محمود أفندى ورفت على شفتيه ابتسامة هازئة . أما حسين فقد أطرق فما كان يدرى أتغنى بالإنجليزية أم بالفرنسية ، وانتهت من قطعتها فصفق كمال بك وزوجته طربا وصفق محمود أفندى وابنه مجاملة ثم قال محمود أفندى :

— وأين هذا مما سمعته وأنا غلام ؟ إن ما سمعته يومذاك لا زال يهزنى كلما فكرت فيه . أذكر أن سى عبده كان يغنى فى حفل قريب من دارنا فذهبت دون أن أستأذن والدى لأسمع قطعة من قطعه الخالدة ثم أعود إلى البيت ، قعدت وبدأ سى عبده فى الغناء فاستولى على أفئدتنا ، ونسيت نفسى وبقيت فى نشوة حتى انتهى الحفل . وخرجنا ونحن سكارى من الطرب وما بلغنا الطريق حتى كان الفجر قد طلع ، فانتبهت إلى نفسى وأحسست رهبة ، وسرت إلى البيت وأنا قلق وأخذت أصعد فى الدرج على أطراف أصابعى ، وانبعث صوت من حذائى طار له فؤادى فخلعت الحذاء وحملته تحت إبطى ،

وجعلت أسترق الخطا حتى بلغت فراشي فاستلقيت فيه وسرح خيالى يفكر فى النغم السماوى الذى هز فؤادى واستحوذ على لبى .

ـــ أهذا ما حدث ؟

فقال محمود أفندى وهو يرمق أخاه بنظرة شزر :

ـــ أجل ، وهل حدث غير ذلك ؟

ـــ بدلت فى النهاية تبديلا طفيفا ، جعلتها نهاية سعيدة .

فقالت علية وهى تبتسم :

ـــ إن ذوق عمي يتفق مع الذوق الأمريكى ، يميل إلى النهايات السعيدة .

فقال محمود أفندى فى حدة :

ـــ ولكن هذا ما حدث .

فقال كمال بك .

ـــ رويدك ! إن ما حدث عقب عودتك من الحفل كان يختلف عما رويت اختلافا بسيطا لا يقدم أو يؤخر فى الموضوع : تلقاك أبى وأنت تسير على أطراف أصابعك فصفعك وطرحك أرضا ، ثم رفع رجليك فى الهواء وأخذ يضربك بعصاه على قدميك وعلى .. وعلى موضع آخر لن أذكره .

وضحك الجميع ، وقال محمود أفندى متهلل الوجه :

ـــ ومن أدراك بهذه الواقعة وأنت تدعى أنك ابن البارحة ؟

وصمت كمال بك قليلا كأنما أفحم ، ونظر إلى زوجه فألفاها تتطلع إليه فقال :

ـــ سمعت ذلك من أمى .

فقال محمود أفندى وهو يضحك فى مرح :

ـــ لا . بان المستور وكشف الغطاء .

وانقطع المطر فنهض محمود أفندى لينصرف ، وقام حسين فقالت له علية :



وقامت إلى المعزف .. وراحت تلعب عليه في براعة

ــ تعال معنا إلى الأوبرا .

ــ متشكر ، إنى ذاهب إلى السينما .

فقالت له مازحة :

ــ لتشاهد رواية بوليسية ؟

قالتها فى صفاء ، ولكنه أحس وخزة تخز كبرياءه . خالها تسخر منه فصعد الدم إلى وجهه ونظر إليها وفى عينيه استياء ولم ينبس بكلمة ، ونادى كامل بك الخادم وقال له :

ــ السيارة حالا ، ومر السائق أن يوصل البكوات .

وخرج محمود أفندى وحسين وركبا السيارة وانطلقت بهما ، وما كان حسين يحس انشراحا بل كان يشعر بذلك الضيق الذى يحسه كلما استعمل سيارة عمه ، أو شيئا آخر مما يملكه .

ودخلت علية غرفتها وفتحت صوانها وأخذت تنتقى ثوبا فاخرا من أثواب السهرة ، وفيما هى تقلب ثيابها الرائعة الكثيرة دخلت ابنة خالتها إجلال فى معطف ثمين من الفرو وحيتها .

كانت إجلال فى العشرين من عمرها سمراء الوجه سوداء الشعر حلوة خفيفة ، وراحت تعبث فى الصوان فألفت صندوق الجواهر ففتحته وأخذت تقلب الحلى النادرة وتبدى إعجابها ، ووجدت صندوقا صغيرا من المخمل الأحمر ، فتناولته وما إن فتحته حتى ضحكت فى مرح وقالت :

ــ ما هذه « الخميسة » ؟

فقالت علية وقد أشرق وجهها بالبشر :

ــ شبكتى ، قدمها إلىّ حسين فى اليوم السابع من مولدى .

٢

لف الليل الكون بغلالته السوداء ، وخفت الرجل فى الطريق ، ولولا صوت الترام والمركبات لساد الهدوء العميق وإن كانت الساعة لم تتجاوز التاسعة إلا قليلا ، فقد كانت الرياح الباردة تهدر هدير الموج الثائر وتزأر زئير الليوث إذا ما كشرت عن أنيابها .

اندس حسين فى فراشه بعد أن عاد من السينما وتدثر بغطاء من الصوف وأغمض عينيه ، ولكنه لم يطوقه النوم بذراعيه فجعل يتقلب فى الفراش ، ودب الدفء فى جسمه فأحس شعورا لذيذا ، ونبتت فى ذهنه بذور خواطر أخذت تنمو فى الظلام وتترعرع حتى استولت على تفكيره .

راح يفكر فى وليمة اليوم فلم يستشعر ما كان يسودها من جو مرح لطيف ولم ينفعل له ، بل احتلت ذهنه صورة علية وهى ترنو إليه وتقول مبتسمة : « تعال معنا إلى الأوبرا » ، فيقول لها : « متشكر إنى ذاهب إلى السينما » . فتقول وقد لاحت أسنانها : « لتشاهد رواية بوليسية ! » فشعر بضيق وأخذ وهمه يصور له أنها تنظر إليه فى استعلاء وأنها كانت تبتسم ساخرة ، فزاد ضيقه وأحس دما حارا يتدفق إلى رأسه .

ولج فى تصوراته فعادت به ذكرياته إلى أيام طفولته ، رأى نفسه فى بيت عمه وهو صغير وعلية تجذبه من يده وتقوده إلى غرفتها ليشاهد ما اشتراه لها أبوها من دمى ، فلما دخلا الغرفة راحت تنظر إلى اللعب فى سرور وقالت له :

ـــ أعندك مثل هذه ؟

فقال وقد أطرق برأسه :

— لا ..

فمدت يدها وتناولت دمية وقدمتها إليه وهى تقول :

— خذ هذه .

أحس يومذاك رغبة فى أن يأخذ الدمية فقد كان قلبه يشتهيها ، ولكن كبرياءه زجرته فقال بلسانه فى كبرياء مفتعلة :

— إنى لا ألعب بالدمى .

وانطبعت تلك الحادثة فى نفسه وراحت تنمو على مر السنين وتتشكل وتتحول حتى استقرت على حال تقلقه وتضنيه ، أصبح كلما فكر فيها رأى خياله الدمى مبعثرة فى الحجرة وقد استعارت ملامحها من ملامحه !

ومرر يده على وجهه فى تبرم كأنما يحاول أن يمسح ما فى رأسه من رؤى ، فاختفى المشهد كما تختفى المشاهد فى السينما وحل مكانه مشهد آخر ، رأى نفسه وعلية يلعبان فى حديقة دارها ، أخذا يجريان حول النافورة وضحكاتها الرقيقة ترن متتابعة فى مرح وصفاء ، ومدت يدها وملأتها بالماء ثم رشته به وهى جذلى وراحت تعدو فجرى وراءها فى عزم أن يثأر لنفسه . سيضع رأسها تحت النافورة حتى لا تعود إلى العبث به .

ولحق بها وقبض عليها وفى نفسه ثورة ، ورنت إليه بعينيها الزرقاوين وافتر ثغرها عن أسنانها النضيدة فألفى ثورته تتبخر وعزمه يفل ويديه تسترخيان ، فما كان بقادر يوما على أن ينال منها ،

ومدت يدها إليه فوضع يده فى يدها ، فقادته وهو يتبعها حتى بلغا الخميلة فقعدت وقعد وأخذت تنظر إليه وهو ينظر إليها و لم ينبس أحدهما بكلمة ، ودنت منه ثم طوقته بذراعيها وقبلته قبلة خاطفة ذهل لها .

كان ذلك من سنين يوم كانا طفلين ، ولكن ذكرى ذلك اليوم تثير كوامنه فمشاعر الضيق والغيظ تتحرك فى صدره ، إنه يتمنى فى هذه اللحظة وهو

متدثر فى فراشه لو أنه وضع رأسها تحت النافورة أو أنه صفعها ، أو لو أنه كان هو الذى ضمها إليه وقبلها تلك القبلة الخاطفة .

إنه يحس وهو يذكر تلك الذكريات تضاؤلا ، وإن ذلك الشعور يستولى عليه كلما فكر فيها أو كان فى حضرتها ، فبات يخشى أن يشترك معها فى حديث طويل حتى لا يظهر عجزه أمامها .

وتقلب فى فراشه ، ولف ذراعه حول رأسه ليخفى عينيه حتى لا يرى تلك الصور التى أخذت تطفو فوق ذهنه ، ولكن الصور لم تمح بل زادت وضوحا وتألقا ، رأى صوان ملابسها قد فتح على مصراعيه وقد تكدست فيه ثيابها الغالية النادرة ، ورأى فى ناحية منه بذلته العسكرية بأزرارها الصفر اللامعة فانقبض صدره وأحس أسى ، فما كان بقادر على أن يتصور نفسه عندها إلا بذلة نادرة فى صوان ثيابها !

وترادفت تصوراته فرآها فى قصر هائل من تلك القصور الخيالية التى شاهدها فى الروايات الاستعراضية ، وقد جلست على عرش عظيم محلولة الشعر آسرة الطرف فى غلالة شفافة وردية أبرزت فتنتها ، وعند أقدامها جوارى رائعات الحسن ، ورأى نفسه فى ثياب العبيد واقفا ببابها ينتظر أوامرها .

وفى مثل لمح البصر ذهب ذلك المشهد من رأسه ولاح له مشهد آخر ، رآها وفى يدها سوط طويل وقد رفعت السوط فى الهواء وهوت به على وجهه وجسده ، وهو يئن من الألم ويتلوى من العذاب .

ومس النوم جفنيه فراح فى سبات ، وانقضى الليل بآلامه وأحلامه وطلع النهار ، فنهض من رقاده صافى النفس منشرح الصدر منبسط الأسارير كأنما لم تقلقه قبل نومه رؤى قاسية :

وخرج يزور بعض أصدقائه ومعارفه ، وجعل يضرب فى الطرقات متلفتا ليختزن من المشاهد ما يخفف عنه وطأة الأسبوع الطويل الذى يمضيه بين

جدران كليته .

وانصرم النهار ووافى ميعاد أوبته فارتدى ثيابه ومرر أصابعه على شاربه الأصفر ، ووضع عصاه الرفيعة تحت إبطه وذهب يودع أمه وأباه .

نظرت إليه أمه فى حنان وقالت وقد رقص قلبها فرحا :

ـــ ما شاء الله ، فى رعاية الرحمن يا بنى .

وقال محمود أفندى وهو يصافحه :

ـــ فى حفظ الله ، مع السلامة .

وهبط حسين بقامته الطويلة وسار إلى محطة الترام فى تؤدة وخيلاء ، وهرع محمود أفندى وزوجه إلى النافذة وطفقا يرمقانه وفى قلوبهما حب وفى عيونهما بريق ، وأقبل الترام فغاب حسين فيه فمدت أمه برأسها وغمغمت فى رضا :

ـــ ما أحلى ابنى !

ونظرت إلى السماء وقالت فى ابتهال :

ـــ اللهم احفظه من العيون .

وقال محمود أفندى وهو يبتسم فى رقة :

ـــ إنه يردنى إلى الشباب .

وراح يتبع الترام ببصره حتى إذا ما اختفى عن عيونهما غادرا النافذة ومحمود أفندى يقول :

ـــ هيج ذكرياتى الحبيبة ، أتذكرين ليلة زفافنا ، الليلة التى رأيتك فيها أول مرة ، كنت فى مثل سن حسين ولكنى كنت أنضر منه ، أليس كذلك ؟

فابتسمت وقالت :

ـــ كنت أنضر من الورد .. كانت أياما .

ـــ ولا زالت الأيام ، هل أنا ذبلت ؟! .

ـــ لم أقل ذلك ولكنها كانت أيام الذكريات .

ورنا إليها وقال :

— إنهم ما كادوا يغلقون علينا الباب حتى حملتك بين ذراعى وجعلت أطوف بك الحجرات حجرة حجرة ، وألثمك هنا وهناك .

وزم شفتيه ودنا منها يقبلها فدفعته برفق فى صدره وقالت فى دلال :

— اعقل يا راجل .

فغادرها وذهب إلى النافذة يغلقها فى إحكام .

٣

كان الظلام جاثما على الأرض لم تقو بعد طلائع النهار على زحزحته ، والندى يبلل ألواح الزجاج وأوراق الشجر وكل ما يعرض له وجهه ، وكان طلبة كلية البوليس فى فراشهم الدافئ ينعمون بلذيذ النوم ، فالهدوء شامل عميق يلف الكون لا يعكره إلا أنفاس تتردد .

وانبعث من البورى صوت قوى هتك غلالة الصمت وداعب آذان النوم كحلم من الأحلام ، وظل الصوت يتجاوب فى أرجاء الكلية فانتبهوا إلى أنفسهم وهبوا من فراشهم يتأهبون فى عماية الصبح وفى الجو القارس لاستقبال النهار الجديد .

واصطفوا صفوفا وتفرقوا فرقا ، وخرج فريق يعدو فى ملابسه القصيرة البيضاء فى الطرقات القريبة من الكلية ، وذهب فريق إلى قاعات الألعاب الرياضية ، وانطلق فريق إلى الفناء الخلفى الفسيح ليقوم بالتدريب على الفروسية .

كان حسين ممن ذهبوا لاعتلاء صهوة الجياد للتدريب على استعمال الرمح واجتياز الحواجز والقيام باستعراضات الفرسان ، فقد كان ذلك فى برنامج السنة النهائية ، وظلت ملاعب الكلية تموج بالطلبة موجا والحركة الدائبة العنيفة تدب فى أوصالها حتى وافى ميعاد الغداء ، فسرت فى قاعة الطعام الحياة وعاد الهدوء يسيطر على الأماكن الأخرى .

وانصرم النهار بتدريباته ومحاضراته ، ووفد الليل وحنت الأجسام للراحة فدخل الطلبة للنوم ، واندس حسين فى فراشه وتدثر من البرد ، ولكنه سمع

زميلا يقص على آخر مغامرة من مغامراته ليلة الجمعة فأرهف السمع، وراح يقول:

— واعدتنى على اللقاء فى (جروبى) فى الساعة السابعة مساء . فذهبت إلى هناك قبل الموعد بقليل واخترت نضدا قريبا من الباب ، وقعدت أجيل عينى فى المكان الذى غص بالرجال والنساء وانعقد فى سمائه دخان اللفائف وسرى فيه دفء من الأنفاس ، وجعلت أتلفت وأرصد كل قادمة حتى لمحتها مقبلة فى ثوب أزرق جميل وفوق كتفيها فرو ثعلب ثمين فنهضت لاستقبالها ، وما أن لمحتنى حتى ابتسمت وتقدمت إلىّ وصافحتنى . ثم جلست .

إنها شابة لم تبلغ الثلاثين جميلة جذابة ، أروع ما فيها عيناها اللتان تشعان بريقا يبهر القلوب وشفتاها الممتلئتان أبدا ، فجعلت أنظر إليها وأنا نشوان ، وأقبل النادل فقالت دون أن تسألنى :

— قدحين من الشاى .

ورحنا نتجاذب أطراف الحديث والسعادة تغمرنى ، فما كنت أطمع فى أن أنال منها أكثر من ذلك الحديث الشهى ، ولكنها أشارت إلى النادل فلما أقبل أخرجت من حافظتها ورقة مالية ودفعت الحساب ، ثم نهضت فنهضت خلفها وخرجنا حتى بلغنا سيارة فاخرة ، ففتحتها وركبت ونظرت إلىّ تدعونى إلى الركوب ، فركبت وأنا مذهول . وسرى فى صدرى خوف ولكن سرعان ما أقلع خوفى وغمرتنى نشوة .

وانطلقت السيارة بنا إلى مصر الجديدة ، وأمام بيت منعزل صغير يطل على الصحراء وقفت وهبطنا منها ورحنا نتقدم فى الظلام ، فعاد إلىّ قلقى . وضغطت على زر كهربى فتألق مصباح أضاء لنا الطريق ولكنه لم يبدد الظلام الذى ران على كهف صدرى .

ودخلنا غرفة فاخرة أسدلت على شبابيكها ستائر من الحرير المخمل وفرشت أرضها بطنفسة تسيوخ القدم فيها ، ورصت فيها مقاعد وثيرة كسيت بسندس أخضر ، وفى ناحية منها قبع معزف رائع صفت فوقه تحف

غالية .

وتركتني وحدى ، فرحت أقلب وجهى فى المكان وقد نزلت الرهبة بصدرى وارتفع نبضى ، فما سبق لى أن شاهدت مثل هذه الروعة وعلى قيد أنملة منى امرأة فاتنة .

وعادت فى غلالة رقيقة تفضح جمالها فزادت رهبتى ، وكأنما فطنت إلى ما اعترانى فدنت منى وداعبتنى فى رقة وهدأت من ثائرتى فأفرخ بعض روعى ، وغادرتنى ثانية وعادت وفى يدها « بيجاما » دفعتها إلى ، ثم قادتنى إلى غرفة أخرى لأبدل ملابسى .

عدت إلى غرفة الاستقبال وأنا فى البيجاما ولكننى لم أجدها ، فقعدت مسترخيا فى مقعد واسع وقد أرهفت حواسى ، ومرت لحظات وأقبلت تحمل صينية وضعتها أمامى ، وقعدت فى نفس مقعدى فالتصق كتفها بكتفى .

كان فوق الصينية صحفة بها شرائح من اللحم البارد وأصابع من البطاطس وكأسان وزجاجة ، ومدت يدها وملأت الكأسين ، وأخذنا فى الأكل والشراب وراحت تميل علىّ تقبلنى . وما انتهينا من الشراب حتى قامت إلى المعزف وراحت تغنى قطعة بالإنجليزية خيل إلى أنى سمعتها فى السينما .

ودب الدفء فى أوصالى ولعبت الخمر برأسى ، فنهضت إليها وضممتها إلى صدرى وغمرتها بقبلاتى ، وانقضت الليلة وأنا غارق فى النشوة ، ثم رحت فى سبات .

فتحت عينى فإذا الشمس تغمر المكان ، وتلفت حولى فألفيت نفسى ممددا فى سرير فاخر أسدلت عليه ستائر من الحرير الوردى وقد غطيت بلحاف من الأطلس الوردى ، ووضعت على مقربة من السرير مرآة هائلة صفت عندها قوارير من الروائح النادرة ، فنهضت وغادرت الفراش وتركت غرفة النوم فألفيتها فى الردهة بقوامها الممشوق ، وما إن وقعت عيناها علىّ حتى أشرق وجهها بابتسامة لطيفة ، ثم أقبلت إلىّ وراح ثغرها يبحث عن

ثغرى .

وذهبنا إلى غرفة السفرة وأخذنا نتناول فطورا لذيذا لا أدرى كيف جهزته ، ثم ارتديت ثيابى وودعتها وخرجت . وما أن انطلقت فى الطريق خطوات حتى مددت يدى فى جيبى أخرج علبة السجائر فوجدت ورقة مالية .

فقال له زميله فى لهفة :

ــ كم منحتك ؟

فقال له وهو يبتسم :

ــ هذا سر المهنة .

ونام الجميع إلا حسينا فلم تغمض له عين ، هيج ذلك الحديث شجونه ونشط خياله فجعل يجلب له من المشاهد ما يؤرقه ، وكان يحس تعبا يسرى فى بدنه ، ولكن الرؤى التى احتلت رأسه كانت تعذبه فيطير النوم من عينيه .

رأى نفسه وعلية وحيدين فى بيت واحد وإذا بعلية تضمه إلى صدرها وتقبله ، ثم تذهب إلى المعزف وتعزف لحنا ثم تعود إليه وتقبله ، وهو ساكن كطفل يتلقى اللثمات دون أن يجد فى نفسه صدى لتلك القبلات .

ورآها تقوده من يده إلى غرفة النوم وهو يتبعها مسلوب الإرادة ، ثم تضجعه فى الفراش وتميل عليه فأحس كأن شيئا يكتم أنفاسه ، فتقلب فى ضيق وأغمض عينيه وهز رأسه ليطرد تلك الصور التى أرهقته ، ولكن فكره لم يرحمه وطفق يمده بمشاهد تزيد فى خوفه .

إنه ليرى نفسه فى الصباح وقد تأهب للخروج وهى تقبل عليه تقبله ، ويرى نفسه وهو يهبط فى الدرج ، ويمد يده فى جيبه فيجد نقودا وضعتها له لينفق منها على البيت فما كان مرتبه يكفى حاجاته ، فأحس كأن جمرة من النار لسعت روحه ، وكأن لطمات حادة هوت على خديه فأطارت صوابه .

واختلطت ذكرياته بمشاهد القصة التى كان يرويها زميله وامتزجت

فجرت فى مسرح خياله رؤى تنكأ جرح نفسه وتجعله يحس تضاؤلا ، وأرهفت مشاعره واتسعت عينا خياله فرأى نفسه طفلا لا حول له ولا سلطان أمام مارد جبار .

ومر الوقت وئيدا وهو يتململ فى سريره ، فأوهامه كانت تجد من نفسه مرتعا خصيبا تنمو فيه وتترعرع ، وتمد جذورها وتتمكن حتى يصبح اقتلاعها أشق من انتزاع روحه من بين جنبيه .

٤

وفى عصر يوم الخميس غادر منزله وانطلق لزيارة خالته قبل الذهاب إلى السينما ، فقد اعتاد ذلك منذ التحاقه بالكلية . كانت خالته أرملة مات زوجها من سنتين و لم ترزق ولدا فعاشت وحيدة ، كان يسرها زيارته فتقبل عليه وتغمره بعواطفها المذخورة .

عاشت بعد زوجها منزوية فى بيت الأحزان لا تزور ولا تزار ، فذاقت مرارة الوحدة وأحست وطأة الحياة وأذلها الحرمان . كانت تمضى سحابة يومها وهى جالسة على أريكة وقد حملت رأسها بكفها تذرف الدمع على بختها الذى مال .

وضاقت بيأسها فعزمت على أن تفر إلى الدنيا الرحيبة من حياتها الضيقة البغيضة التى بنيت من الدمع والأشجان . فما أن وجدت أحد محارمها ذاهبا إلى الحج حتى شدت الرحال معه إلى الحجاز .

وأفادتها الرحلة فعادت وقد انقشع حزنها واندمل جرح قلبها وصفت نفسها ، فراحت تزور جيرانها وتدعوهن لزيارتها حتى أصبح بيتها ندوة لنساء الحى وفتياته ، فما يمر يوم دون أن تقبل ضيف جديدة فى رفقة صديقة من الصديقات .

ووقف أمام بابها وطرقه فى رفق ففتحت له خادم صغيرة قادته إلى غرفة متواضعة بها أريكتان وبعض كراسى ونضد مستدير وصينية قلل ، وزينت حيطانها ببعض آيات قرآنية .

قعد فى مقعد قريب من النافذة الوحيدة فى الحجرة وأصوات النسوة تبلغ

مسامعه وهن آخذات بأطراف الحديث ، وأقبلت خالته فى ثيابها البيضاء فلما رأته افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ، وقالت منبسطة الأسارير :

ـــ أهلا .. أهلا . تفضل .

ـــ كيف حالك ؟

ـــ الحمد لله ، كيف حالك أنت وكيف حال ماما ؟

ـــ بخير ، كانت تريد أن تأتى معي ولكنها خشيت من صعود السلم؟

ـــ قل لماما إننى غضبى .

ـــ لماذا ؟

ـــ سألتها أن تأتوا يو م الخميس الفائت لتتغدى معا فاعتذرت بأنها مريضة ، ثم علمت أنكم تغديتم عند عمك .

ـــ لم تذهب معنا .

ـــ إذا كانت لا تستطيع أن تأتى ، فلماذا لا تحضر أنت ؟!

ـــ سأحضر .

ـــ سأنتظر يوم الخميس القادم .

فصمت قليلا وقال :

ـــ إنى مدعو على الغداء فى ذلك اليوم .

ـــ سأنتظرك فى العشاء .

وأراد أن يحتذر فهذه الدعوة ستضيع عليه سهرة السينما ، ولكنه أحجم خشية أن يغضبها وقال فى صوت خافت :

ـــ سأحضر .

ودخلت الخادم تحمل صينية عليها برتقال ووضعتها أمامه ، فتناول برتقالة وراح يأكلها ، ثم مد يده إلى المنشفة يجفف أصابعه .

ورأى أن ينصرف حتى تعود خالته إلى النسوة اللاتى ينتظرنها فقام واستأذن ، فقالت له وهى تودعه :

ــ سأنتظرك يوم الخميس .

ــ إن شاء الله .

وذهب إلى السينما وأمضى سهرته ، ثم عاد إلى الدار فألفى أباه جالسا فى البهو فحياه ، ودخل يخلع ثيابه فبلغه صوت أبيه وهو يقول له :

ــ كلمنى عمك اليوم ودعانا لنذهب معهم غدا صباحا إلى جزيرة الشاى .

لم ينبس بكلمة ولكن زحفت إلى رأسه أفكار ، وراح يفكر فى علية فرآها تتدفق فى الحديث فى ثقة وطلاقة وهو يصغى إليها صامتا لا ينطق بشىء ، إنها غزيرة المعارف واسعة الاطلاع قرأت كثيرا من كتب الأدب الإنجليزى والفرنسى وهو لم يقرأ إلا الروايات الإنجليزية التى كانت مقررة عليه فى دراسته الثانوية . وضايقه أن يبدو أمامها هزيلا فأخذ يفكر فى موضوع تجهله ليحدثها عنه ، فرأى أن يحدثها عن بعض ما تعلمه فى الكلية فما يحسبها تعرف شيئا عن هذه الحياة الخشنة القاسية .

وتنفس الصبح وجاءت سيارة كمال بك ، فهبط محمود وحسين وانطلقت بهما إلى الزمالك ، وأمام البيت وقفت تنتظر هبوط الداعين . وجاءت علية مشرقة الوجه .. كانت فى رداء من الصوف من قطعتين . وكان صدرها الناهد يترجرج فى رعونة وشعرها الذهبى ينوس خلفها فاتنا ، وأطلت من نافذة السيارة وحيّت عمها وابن عمها وقد انعكست على وجهها حقيقة شعورها . كان قلبها يرقص كلما وقعت عيناها على حسين .

وأقبل كمال بك متورد الوجه منتصب القامة يسير فى رشاقة ودخل فى السيارة فانطلقت بهم إلى حديقة الحيوان .

كان الجو صحوا والسماء زرقاء صافية والشمس ترسل أشعتها فيسرى الدفء فى الأجسام التى أضناها البرد . ووصلوا إلى حديقة الحيوان فهبطوا من السيارة وتقدموا نحو الباب . وتمنى حسين من كل قلبه أن يدفع أبوه رسم

الدخول ولكن كمال بك مد يده ودفعه ، فأحس حسين شيئا من الضيق على الرغم من أن المبلغ تافه لا يذكر .

واتسابوا فى الحديقة فسار حسين وعلية جنبا إلى جنب ، وعلية تتلفت فى مرح وترنو إلى حسين بعينيها الصافيتين الزرقاوين وقد شع منهما حب ، فكان حسين ينظر إليهما فيحسب أنه ينظر فى بحر عميق ليس له قرار .

وبلغوا جزيرة الشاى فجلسوا فى الشمس ينعمون بالدفء ، ويمتعون الطرف بمراقبة البط والأوز وهى تسبح فرحة فى الماء جماعات فى شكول متباينة كأنما تقوم بعرض .. والتفتت علية إلى عمها وقالت :

ـــ أتذكر يا عمى أول مرة جئت فيها إلى هنا ؟

فشرد محمود أفندى ببصره قليلا ثم قال فى صوت خافت :

ـــ أذكرها كحلم من الأحلام ، كنت غلاما وسألت أبى أن أذهب فى يوم العيد إلى حديقة الحيوان فيمشى فى عربة مع خادم من الأتباع ، أوه كان ذلك من أربعين سنة ، وإنى لأذكر أن أمى استقبلتنى عند عودتى بالضم واللثم كأنما كنت فى سفر طويل .

فقال كمال بك وهو ينظر إلى أخيه فى عتاب :

ـــ قل الحقيقة مرة ولو كانت مرة .

ـــ وما الحقيقة ؟

ـــ الحقيقة هى أنك كنت حاضرا لما افتتح إسماعيل باشا هذه الحديقة .

فقال محمود أفندى وهو يبتسم :

ـــ آه .. يوم كنت معى نشاهد الاحتفال .

وجعلوا يتسامرون ، ثم قالت علية لحسين وهى تنهض :

ـــ تعال نتمش قليلا فى الشمس .

فقام حسين وقد عزم على أن يخرج من قوقعة نفسه وأن يتحدث حديث الكلية الذى نمقه فى الليل ، وسارا رشيقين كأنما خلق كل منهما ليكمل

الآخر ، وكمال ومحمود يتطلعان إليهما وفى قلبيهما حب وزهو وإعجاب .

راحا يخطران فى مسالك الحديقة ، ورأى حسين جوادا فانبسطت أساريره فقد وجد فيه مفتاح الحديث الذى كان يحاول أن يفتح بابه ، فنظر إليه وقال :

ـــ ما أوفى الجياد !

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ اعتدت فى هذه السنة عند القيام بتدريبات الفروسية أن أركب جوادا بعينه ، وكنت فى أوقات الفراغ أذهب إليه وأربت عليه فتوطدت بيننا صداقة ، وفى يوم من الأيام جاء طالب آخر ليمتطيه فهاج وجعل يرفس كل من يدنو منه ، وظل فى هياجه حتى جئت ومسحت على عنقه ورأسه فهدأت ثائرته وجعل يحك رأسه فى وجهى .

فقالت علية وقد وضعت يدها فى يده :

ـــ قرأت أن جوادا مات صاحبه فأضرب عن الطعام والشراب حتى نفق .

وحاول أن يتكلم ولكنه لم يجد ما يقوله ، عاد إليه عيه لما وجد أن ما عرفه بالتجربة عرفته فى الكتب ، يا ليتها لم تعلق على ما قال . فمن يدرى فلربما انطلق فى الحديث حتى شفى من ذلك الوهم الذى سيطر عليه واستولى على مشاعره وحواسه .

وسارا صامتين ، كانت علية مفعمة بالنشوة وكان يقاسى من تلك الإحساسات التى انتشرت فى جوفه فجعلته ينكمش ويشعر بانكسار ، ولمحت علية بائع شيكولاته فهرعت إليه واشترت منه قطعتين ، ثم عادت إليه خفيفة مرحة ودفعت إليه بقطعة فأخذها منها وراح يأكلها وهو ساهم ، واربد وجهه وبان فيه الضيق فقد قفزت إلى رأسه مشاهد القصة التى كان يرويها زميله ، ورأى نفسه بعين خياله يمد يده فى جيبه ليجد أن علية قد دست له فيه بعض النقود .

٥

وقفا فى النافذة يتسامران ويقطعان الوقت بمراقبة الغادين والرائحين.ولمح محمود أفندى شابا وشابة يسيران وقد التصق كتفاهما واقترب رأساهما فراح يتبعهما ببصره ، ثم التفت إلى زوجه وقال :

ـــ ما أحلى الشباب !

فقالت زوجه وهى تبتسم ابتسامة متكلفة :

ـــ الشباب الدائم كشبابنا .

وأحس فى قولها شيئا من الاستخفاف فقال :

ـــ أتسخرين ! أجل لا زلنا شبابا ، الشباب هنا .

وأشار بإصبعه إلى قلبه فقالت :

ـــ إذا كان هنا فلن تشيخ أبدا .

ـــ لا زال الدم يتدفق من قلبى حارا كما كان يتدفق وأنا ابن العشرين .

ـــ هدت حيلى وحطمتنى حتى صيرتنى عجوزا ، ذبلت وضعفت حتى باتت قدمى على حافة القبر ، إذا مت يا محمود .

فقال فى ضيق :

ـــ أوه .. سنعود إلى ذلك الحديث البغيض ، والله لتموتن بعدى ، اطمئنى ما دمت صحيحا معافى أغدو وأروح .

ـــ أشعر بضعفى يا محمود.. إننى أعلم أنى سأموت .

ـــ وما من شك أنك ستموتين بعدى ، مات جدى قبل جدتى ومات أبى قبل أمى ومات عمى قبل امرأة عمى ومات خالى قبل امرأة خالى ، هذه تقاليد

الأسرة وما كنت أحيد عن تقاليدها .

ودنا إليها فألفاها لم تبتسم ، بل شردت ببصرها وغام وجهها بسحائب خفيفة من الأسى ، فرأى أن يغير مجرى ذلك الحديث الذى يعكر صفوهما فقال لها :

— لم يبق على تخرج حسين إلا أربعة أشهر ولا بد أن يتزوج ليلة تخرجه .

— إى والله لا بد أن نعجل بزواجه ، فإنى أريد أن أفرح به قبل أن أموت .

— أوه — ما أبغض أن يذكر الموت فى ساعات الصفاء ، إننا نتكلم عن زواج حسين ، ولا بد أن يتزوج عقب تخرجه فقد يعين فى بلدة بعيدة من البلاد فيجد الزوجة التى تخدمه .

— وماذا ينقصنا لإتمام زواجه ، هو موجود والعروس موجودة .

— نفاتح كمال بك فى الموضوع ليستعد فى الأشهر الباقية .

— كلمة إذا قابلته .

— أرى أن يحمل حسين إلى علية هدية ويكلم عمه فى هذا الموضوع .

— سأشير عليه بذلك عندما يأتى غدا .

وسمع صوت وقوف سيارة فجأة ، وارتطام جسم بالأرض ، فالتفتا إلى مبعث الصوت فوجدا الناس يهرعون إلى مكان الحادث ، فجفلت الزوجة وغادرت النافذة شاحبة اللون ، وتبعها محمود وقال لها :

— لماذا هربت ؟

— لا أطيق رؤية إنسان جريح ، وما أبشع الدم المسفوك .

فقال فى استخفاف :

— ما أخف قلبك ، ترتجفين من شبح حادثة ! أذكر لما كنت شابا ، كنت فى القرية يوما وإذا بدمدمة رصاص تصك أذنى ، فخرجت مهرولا لأرى ما هناك فوجدت رجلا مجدلا يخبط فى دمه ، فحملته والدم ينزف منه يلوث ثيابى حتى بلغت داره ، فإذا به بين يدى جثة ..

فأشاحت بوجهها عنه وقالت فى اشمئزاز :

ـ كفى بالله كفى .

ـ يا للقلوب الرقيقة !

ومر الوقت وجاء المساء فقامت تذبح أوزة لتقدمها فى الغداء لابنها ، ونادت الخادم الصغيرة وأمرتها أن تمسك رقبتها ، ولكن الفتاة ارتجفت فقالت لها :

ـ اذهبى ونادى سيدك .

فجاء محمود أفندى وقال :

ـ ماذا ؟

ـ أمسك رقبة الوزة .

فتناول رقبتها وضغط بإصبعه على منقارها ، ولما رأى السكين ارتجفت يده فقالت زوجه :

ـ ثبت يدك واجذب رقبتها .

فقال فى استكبار وقد زادت يده ارتعاشا :

ـ يدى ثابتة .

ـ أمسك منقارها جيدا .

ـ أوه ! اذبحى وإلا تركتها لك .

وراحت الزوجة تذبح الوزة ، وما ترشرش دمها حتى أشاح الرجل الذى حمل قتيلا بين ذراعيه ودمه يسيل على ثيابه بوجهه فى استياء حتى لا يرى دم الوزة المسفوك !

* * *

فرغوا من الغداء ولم يبق على الخوان إلا عظام الوزة ، فنهضوا إلى غرفة أخرى وقعدوا يتحدثون ويشربون القهوة . ثم قام محمود ودخل غرفته لينام تاركا حسينا وأمه ليتناجيا فى أمر الزواج .

التفتت الأم إلى ابنها وقالت فى حنان :

— نريد يا حسين أن نفرح بك قريبا .

فقال دون اهتمام :

— إن شاء الله .

— ويريد أبوك أن يتم الزواج ليلة تخرجك ، فهو يخشى أن تعين فى بلدة بعيدة فلا تجد من يخدمك .

— لا زالت أمامى شهور .

— إنها مدة قليلة لا بد للعروس أن تتجهز فيها ، اذهب اليوم مع أبيك واشتر هدية لعلية وقدمها إليها . وحدد مع عمك ليلة الزفاف .

فأطرق حسين وبان فى وجهه الهم ولم ينبس بكلمة ، وأحست الأم بغريزتها أن هناك شيئا فقالت باهتمام :

— ماذا بك يا بنى ؟ .

— أمر هذه الخطبة يقلقنى .

— لماذا يا حسين ؟ .

— كلما فكرت فيها وجدت أننا نعمل جميعا على تعس علية .

فاتسعت عينا الأم وقالت فى استنكار :

— لا أفهم ما تقول ؟ .

— إننا نشدها إلينا ، نجذبها إلى القاع ، ننقلها من القصر إلى الكوخ .

فقالت فى حيرة :

— أى قصر وأى كوخ ؟

— قد أعين فى مركز من المراكز وأسكن بيتا مبنيا باللبن والطين ، أحيا حياة الفلاحين ، فكيف أنقل علية من دارها بالزمالك إلى مثل ذلك البيت الحقير ! .

— الزوجة تعيش مع زوجها حيث يعيش .

— إننى لا أستطيع أن أتصور علية فى بيت ينقل إليه الماء فى بلاليص ويحفظ فى أزيار وتغسل الملابس فى صحن الدار فى طسوت ، فى بيت تمرح فيه الفئران والصراصير وينزل فيه الذباب والناموس والبق أضيافا دائمين ، إنها حياة لا تطاق .. حرام أن نكبدها ذلك العذاب .

— الزوجة تقاسم زوجها سراءه وضراءه .

— أى مسرة ستجدها فى قرية من عاشت كفراشة طليقة تتنقل من الأوبرا إلى الأوبرج إلى الأريزونا إلى دور اللهو المختلفات .. لن تجد إلا السأم والملل والوحدة والحرمان .

— كأنما قد عينت فى قرية وانتهى الأمر ، وكتب عليك أن تعيش فيها إلى الأبد .

— لنفرض أننى عينت فى القاهرة ، فما تفعل علية بجنيهاتى القليلة التى لا تشترى ثوبا من ثيابها ؟!

— عمك كمال بك لم يفكر فى ذلك لما تزوج من سنية هانم .

— إننى لا أحب أن أكون عبئا على غيرى .. خير لى أن أتزوج امرأة أرفعها من أن أتزوج امرأة أخفضها .

— لن تخفضها ، ليس من العيب أن يتعاون الزوج والزوجة على الحياة .

— وكيف تكون هذه المعاونة وعلية لا تحترف حرفة ؟

— يساعدكما عمك .

فقال فى سخرية :

— أو امرأة عمى على الأصح ، تدفع لى أجر زواجى من ابنتها .. ما الذى يضطرها إلى ذلك وابنتها جميلة يتمنى أن يتزوجها كثيرون ممن يستطيعون أن يحافظوا على مستواها دون أن ينالوا بدل زواج .

— لن يجدوا لها شابا طيبا مثلك ، وابنة العم لا تغلى على ابن عمها .

— كان ذلك فى سالف العصر والأوان أيام كانت الحياة رخاء والفوارق

طفيفة .

— ولا زال ذلك حتى الآن .

— فى الريف أما هنا فلا .

ولماذا يريدون أن يزوجوكها ؟

— لثيابى ، للبذلة التى أرتديها . إنهم ينفقون الأموال فى اقتناء التحف للدار ، فماذا عليهم لو أنفقوا بعض ذلك المال فى شراء دمية فى ثياب زاهية لابنتهما الحبيبة ؟!

— حسين ، ما هذا الذى تقوله ؟ إنها ليست أفضل منك .

— إنها أغنى منى .

— كفى يا حسين ، لو سمع أبوك هذا الحديث لغضب .

— ما كنت أقوله لأبى .

— وماذا أقول له لو سألنى عما نوبت عمله ؟

— قولى له إننى أنتظر حتى أتخرج وأعرف مستقرى ، ثم أفكر بعد ذلك فى الزواج .

— ستنتهى الشهور الأربعة ثم تجد نفسك حيث أنت ، ما أسرع مرور الأيام !

— من يدرى ماذا يجيء به الغد ؟

— لن يأتى بشيء ، ستجد نفسك بعد تخرجك أمام أبيك وعملك وجها لوجه ، من الخير لك أن تفكر من الآن من أن تؤجل تفكيرك إلى أن تتخرج . مع أن الأمر لا يستحق تفكيرا .. علية عاقلة ومثقفة وجميلة و ..

وماتت الكلمة على شفتيها . وقال حسين :

— وغنية .. وهذا ما يقلقنى ويثير مخاوف .

— أقلع عن مخاوفك وفكر فى الأمر ببساطة .

فقال فى استخفاف :

ــ أفعل .

ونهض ودخل غرفته يستريح ، وبقيت أمه تفكر فيما جرى بينه وبينها من حديث فلم تغضب و لم يقلقها اكتشافها أن ابنها لا يحب أن يتزوج ابنة عمه التي خطبت له وهي ابنة سبعة أيام ، كانت في قرارة نفسها تكره سنية هانم وإن كانت لا تبدى تلك الكراهية ، وما كان يهمها كثيرا أن يتزوج ابنها من ابنتها . لو أن أختها كانت قد أنجبت فتاة ورفض ابنها أن يتزوجها لثارت وغضبت وراحت تحاول جاهدة أن تثنيه عن عزمه ، أما أن يتهرب من زواج ابنة سنية فما كان يهزها أو يثير حفيظتها .

وتمدد في فراشه وشرد ببصره فراحت تتوافد إلى ذهنه الصور التي تضنيه : رأى علية في حديقة الحيوان وهي تشترى شيكولاته وتقدمها إليه فأحس ضيقا ، وفكر فيما عاقه عن أن يتقدم هو ليشترى الشيكولاته ويقدمها إليها فوجد أنها تسبقه دواما إلى تنفيذ ما يداعبه من أفكار .

واحتلت ذهنه صورة علية وهي في بيت من بيوت الفلاحين في ثوب فاخر من ثيابها الغالية وقد قعدت إلى المعزف تغنى في رطانة أغنية من أغانيها الأجنبية . والصراصير تجرى في الغرفة والذباب يحط على الحيطان والأثاث ويحوم في الفضاء ، فأغمض عينيه وانقبضت أساريره وراح يتقلب في ألم كأنما كان يرقد على فراش من الإبر .



.. لن تخفضها ، ليس من العيب أن يتعاون الزوج والزوجة على الحياة .

٦

أدبر النهار ووفد الليل بسكونه وهدوئه . فخرج حسين إلى دار خالته تلبية لدعوتها له يوم الخميس الفائت . انطلق فى الشوارع الهاجعة التى توصل بين دارهم و دار خالته وهو يسير فى تراخ يحس سأما ، كان يفضل أن يذهب إلى السينما يقضى سهرته ولكنه اضطر أن يقبل دعوة خالته لكيلا لا يجرح شعورها .

وبلغ دارها فراح يصعد فى الدرج متمهلا حتى إذا بلغ بابها ألفاه مفتوحا فدخل ، ورأى النور ينبعث من غرفة جلوسها فقطن إلى أنها تجلس وحدها بعد أن ذهبت زائراتها ، فتقدم نحو الغرفة ولمح خالته جالسة على أريكة صفت فوقها وسائد صغيرة فقال فى صوت قوى :

ـــ السلام عليكم .

ونظر فى الغرفة فوقع بصره على فتاة جالسة قبالتها ما إن رأته حتى أطرقت فى حياء وأسدلت على وجهها نقابا شفافا من الحرير الأزرق ، فارتبك وهم بأن يلور على عقبيه ولكن خالته قالت فى هدوء :

ـــ تعال ، ليس هنا أحد غريب .

فدخل وصافحها ، والتفت إلى الفتاة وأومأ برأسه محييا ثم قعد ، وقالت خالته :

ـــ حضرتها الآنسة هدى ابنة جيراننا فى الحى وحضرته حسين بك ابن أختى .

وتمتمت الفتاة ببعض ألفاظ فى ارتباك ، ورنا حسين إليها فأحس شعورا

لذيذا ، مس قلبه ذلك الحياء وتلك الأنوثة المستكينة ، ورفعت بصرها ونظرت إليه ثم غضته فخيل له أن ضياء انبعث من عينيها فأنار فؤاده ، والتزموا الصمت وأرادت خالته أن تقطع ذلك السكون الذى ران على المكان فقالت :

— كيف حال ماما ؟ .

— بخير .. والحمد لله .

وتململت هدى فى جلستها ثم نهضت فى ارتباك والنقاب الأزرق مسدول على وجهها لا يخفى منه شيئا وإن كان يمنحه ظلالا تزيد فى جماله ، فأحس حسين أسفا فهو يرتاح لوجودها ويتمنى صادقا أن تطول جلستها . وقالت لها خالته :

— إلى أين ؟.

فقالت فى صوت خافت فى نبرات عذبة :

— ذاهبة إلى البيت فقد تأخرت الليلة .

ورماها حسين بنظرة فاحصة فوجدها ممشوقة القامة أميل إلى الطول ، فاحمة الشعر واسعة العينين ينبعث من سوادهما بريق ينفذ إلى القلب . ممتلئة الصدر دقيقة الخصر لها ساقان متناسقتان بديعتا التكوين ، زان وجهها هدوء وانبعثت منها أنوثة صارخة .

ومدت يدها وصافحت الحاجة ، والتفتت إلى حسين وحيته بهزة من رأسها فقال لها وقد افتر ثغره عن ابتسامة رقيقة :

— مع السلامة .

وأحس شعورا جديدا يتفجر فى صدره ، دثرته راحة وشعر بالغبطة تدغدغ حواسه ، وظل يرنو إليها وخالته تسير معها حتى نزلت فى الدرج ، وعادت إليه خالته وراحت تحادثه فأقبل عليها منشرحا وقد انعكس على وجهه ما يفعم به صدره من إحساسات هنية راضية .

وقامت تجهز السفرة فبقى وحده لا يشاركه جلسته إلا فكره ، فرأى

هدى وقد أسدلت نقابها على وجهها وأطرقت فى حياء العذارى فهز قلبه ذلك الضعف النسوى الذى استشفه من تحت نقابها ، واحتلت صورتها وهى ترنو إليه بعينيها الجذابتين المتكسرتين أقطار رأسه فاسترخى فى جلسته وأسبل عينيه وراح ينعم بحلم يقظته .

وقام إلى العشاء وراح يتناوله متفتح النفس ، وما أن انتهى منه حتى راودته فكرة الخروج إلى الحى يجوس خلاله لعله يلمح هدى فى نافذة من النوافذ أو شرفة من الشرفات فيهتدى إلى دارها . كان خاطرا من الخواطر الطائشة التى تلمع فى الذهن فجأة ثم تخبو فجأة . وكان على ذلك الخاطر أن يحتضر ويمحى كآلاف الخواطر التى تخطر فى الذهن ثم لا تجد من النفس استجابة أو قبولا ، فالظلام دامس يدثر الكون برداء أسود سميك والريح تهب باردة فأوصدت فى وجهها النوافذ والشرفات فلن يستطيع أن يعثر على ضالته المنشودة ، ولكن قلبه شد من أزره وأمده بأنفاس حارة فاستوى خاطرا قويا يقوده حيث يقوده .

ونهض وهو تحت تأثير الفكرة المجنونة التى استبدت به وخرج إلى الظلام يترقب ، وراح يضرب فى طرقات الحى يتلفت ينقل عينيه بين الشرفات والنوافذ فلم يلمح طيف إنسان ، ولم يدب اليأس فى قلبه بل ظل فى تجواله يداعبه أمل خداع .

وتقضى الوقت وهو يضرب على غير هدى ، وأخيرا رأى أن يعود إلى داره ينتظر الصباح ليستأنف تجواله فى النور وقد تفتحت الشرفات والنوافذ لتدخل الشمس بالحرارة والدفء .

دخل فراشه لينام ولكنه راح يفكر فى هدى وقد أسدلت على وجهها نقابها الشفاف ، وظلت تخطر فى ذهنه بقامتها الطويلة وشعرها الأسود الفاحم ورأسها المطرق وعينيها المسبلتين فى خفر وحياء ، فيفعم صدره بالنشوة وتسرى فيه إحساسات لذيذة .

وأشرقت الشمس وتسللت إلى غرفته فقام من نومه يحس رغبته فى الانطلاق إلى الطريق ينقب عن هدى . فذهب إلى بذلته وأخذ يرتديها . وما اتضح النهار حتى كان ينساب فى مسالك الحى يحدوه أمل لقياها وصوت خالته يرن فى أذنيه : « الآنسة هدى ، ابنة جيراننا فى الحى » فيوحى إليه قلبه فى حماسة أنه سيجدها فى نافذة من النوافذ أو شرفة من الشرفات .

وسار فى خطا وئيدة يتلفت ، رأى فتيات فى النوافذ وفتيات فى غدو ورواح ، فجعل ينقل عينيه بينهن وما خفق قلبه فما وقعتا على من يهفو إليها الفؤاد ، وبقى فى سيره ساعات وما تسرب الملل إلى نفسه بل كان يحس نشوة لم يحسها من قبل ، نشوة من صار له هدف يسعى إليه .

واستوت الشمس فى كبد السماء وبدأت تقطع رحلتها نحو الغرب ولم تكتحل عيناه برؤيتها ، فعاد إلى داره ليتناول غداءه ويستريح ثم يخرج لمعاودة التنقيب قبل رجوعه إلى الكلية .

أطرق ساهما وأخذ يفكر فى نفسه فعجب من أمره ، فما باله قضى الساعات وهو يضرب فى الطرقات يبحث عن فتاة لم يرها إلا مرة واحدة ولم يبادلها كلمة ولم يدم النظر إليها طويلا ليكشف محاسنها . إن هى إلا نظرة صوبتها إليه من بين أهدابها المتكسرة ، فلماذا يهتم بها كل ذلك الاهتمام . وماذا عليه لو انتظر إلى الخميس القادم ليراها عند خالته ما دامت من جاراتها المترددات عليها ؟ وعزم على أن يمكث فى بيته حتى يوافى ميعاد ذهابه إلى الكلية ، ولكن ما مر بعض الوقت حتى أحس رغبة ملحة فى الخروج قبل ميعاد أوبته فودع أمه وذهب .

وراح يدور فى الحى وهو يرجو أن يتزود منها بنظرة ، وجعل يتلفت وقد أرهفت حواسه وتحولت إلى عيون ، وانحدرت الشمس وبدأت تغوص فى الأفق البعيد فسار إلى محطة الأتوبيس ضيق الصدر لينطلق إلى الكلية .

وجلس فى الأتوبيس مطرقا فقد كان مشغول البال ، وهبط منه شارد اللب وتقدم إلى الكلية وهو ساهم يفكر فى ذات النقاب .

٧

تقضى الأسبوع وطيفها يرافقه فى يقظته ومنامه ، فى قاعة المحاضرات وفى الملعب الكبير وفوق صهوة جواده وفى النادى وفى غرفة نومه ، وصار يرى النقاب الأزرق الشفاف فى صفحات الكتب التى يقرؤها ورقعة السماء التى يمد إليها طرفه والفضاء الرحب الذى يلوح له إذا شرد ببصره إلى الفضاء .

وأشرقت شمس يوم الخميس فأشرق الأمل فى صدره . سيذهب فى المساء إلى دار خالته يمتع النفس برؤية هدى التى يهفو إليها قلبه ، إنه ليرجو أن يراها فى نقابها الذى أحبه وفى خفرها الذى جذب إليها فؤاده ، ويشتهى أن يرنو إليها ساعات وهى مطرقة فى حياء العذارى .

ومر الوقت وئيدا وئيدا ولو طاوعه لانقضى فى طرفة عين . وأخيرا انتصف النهار وجاء ميعاد الانطلاق لزيارة الأهل والأحبة فسار فى الشارع الموصل إلى الترام يغذ السير وفى رأسه صورة وفى نفسه رغبة وفى صدره أمل ، إنها أول مرة يسعى فيها إلى الترام وفى جوفه إحساسات غريبة لذيذة . إنه يشعر بقلق ولكنه قلق مشتهى ، ويحس رهبة مزيجة بمشاعر القلب الحبيبة . ويسرى فى جسمه خدر يدغدغ حواسه ، إنه يكاد ينكر نفسه فما كان له عهد بمثل هذه الإحساسات التى خلقتها نظرة لمحت لحظة من وراء نقاب .

وبلغ داره وتناول ما أعدت له أمه من لذيذ الطعام ، ثم دخل غرفته واسترخى فى مقعد وثير وأرخى لخياله العنان فرأى نفسه يدخل غرفة جلوس خالته وهدى جالسة فى نفس المقعد الذى رآها فيه ، فيتقدم من خالته يصافحها ، ثم يتقدم إلى هدى وقد رفت على شفتيه ابتسامة نمت عما يكنه لها

من حب ، ومد يده إليها وراح يصافحها فى اشتياق ، ورأى نفسه يقبل عليها يحادثها فى طلاقة فهو يحس أنه يناجى أنثى وديعة ، أنثى ترنو إليه فى إعجاب .. إنه يشعر فى قرارة نفسه بسيادته فيناجيها غير هياب ، واسترسل فى نجواه فراح يسبح فى بحور الخيال وهو نشوان .

وقام إلى ساعته ونظر فيها فخيل إليه أنها تتسكع ، فما أبطأ مرور الدقائق واللحظات .. وذهب إلى سترته وراح يقطع الوقت بتلميع أزرارها النحاسية الصفر .. وجعل يذرع الحجرة جيئة وذهابا ولكن المساء لم يأت بعد ، فلم يطق أن يمكث فى البيت فارتدى ثيابه ومشط شاربه الأصفر الغزير وخرج إلى الطريق وقد تدفقت فى جوفه مشاعر الحب المذخورة .

لم يذهب إلى دار خالته فما وافى الميعاد الذى قابل فيه هدى . بل ركب الترام وذهب إلى شارع عماد الدين .. وجعل يقطع الوقت بالمرور على دور السينما . حتى إذا خيم الظلام عاد إلى الحى الذى أصبح يحبه وراح يتقدم إلى بيت خالته خافق الفؤاد .

وصعد فى الدرج وقد أرهفت حواسه ، وبلغ باب خالته فألفاه موصدا فطرقه فى رفق ووقف ينتظر وقلبه يدق فى صدره ، وانفتح الباب ووقعت عيناه على الخادم الصغيرة فقال لها :

ـــ الحاجة هنا ؟

ـــ نعم .

ـــ وحدها ؟.

ـــ وحدها ! .

أحس شيئا من الكدر . كان يأمل أن يجد هدى عندها ليصافحها فى الواقع كما صافحها فى الخيال ، وتقدم فى تثاقل ودخل على الحاجة وسلم عليها وقعد يحادثها ، وسرعان ما انقشع كدره وبات ينتظر وفود هدى فى رجاء .

ومر بعض الوقت .. وسمع طرق على الباب فقفز قلبه فى جوفه واتسعت

حدقتاه ، ولو أن خالته نظرت إليه لفطنت إلى ما اعتراه . وانفتح الباب ولمحها بقامتها الطويلة المشوقة فرقص قلبه فرحا ، وجعل يرقبها وهو نشوان .

تقدمت فى خطا ثابتة ، وبلغت الغرفة فلما رأته أسبلت عينيها وصافحت الحاجة وأومأت له برأسها وغمغمت فى صوت لا يكاد يبين :

— مساء الخير .

فقال فى صوت متهدج وقد أشرق وجهه :

— مساء النور .

وقعدت مطأطئة البصر فنظر إليها يتملى من حسنها .. كانت خمرية اللون طويلة الأهداب فى خديها غمازتان ، وهزه نقاء صفحة وجهها التى لم تنتشر فيها المساحيق والأصباغ .. كان جمالها طبيعيا ينفذ فى بساطة إلى سويداء القلوب .

وقامت الحاجة تعد شيئا تقدمه لضيفتها ، وبقى حسين وهدى وحدهما فأحس قلبه يخفق فى صدره فى شدة ، ورفعت عينيها ورنت إليه رنوة ثم عادت وأسبلت جفنيها ، فاضطرب وثارت مشاعره وشعر برغبة فى أن يحادثها ، وهم بأن يتكلم ولكنه لم يدر ماذا يقول لها وخالته على قيد خطوات منهما .. وخطر له خاطر فقال لها فى صوت هامس :

— إنى نازل الآن أنتظرك فى الطريق .

ونظر إليها فخيل إليه أن وجهها تضرج بحمرة ، ولكنها لم تنبس فشعر براحة على الرغم من ثورة مشاعره الناشبة فى جوفه وجاءت خالته فنهض مستأذنا فقالت له :

— هكذا سريعا !

فقال وهو ينظر إلى هدى من طرف عينيه :

— عندى ميعاد مع صديق عزيز .

وصافح خالته ، وتقدم إلى هدى وصافحها وهو يضغط على يدها فى

رفق ، والتقت عيناهما لحظة فأحس أن سلكا كهربيا مس روحه ، وانطلق وقد انتشرت فى صدره مشاعر متفتحة من الأمل والحب .

ووقف فى الطريق يرصد باب البيت ، وكان الظلام دامسا والهدوء شاملا فكان يسمع دقات قلبه الملهوف ، وظل يغدو ويروح مرهف الحس ، وما انقضى كثير وقت حتى لمح شبحها على وصيد الباب فهرع إليها وقد لفه اضطراب ، ودنا منها يهتف فى صوت خافت :

— هدى .. هدى ...

والتفتت إليه مذعورة وبرقت عيناها فى الظلام ثم أسدلت نقابها على وجهها ، وسارت فى خطا واسعة فوسع من خطوه وقال لها فى توسل :

— هدى . كلمة واحدة .

فقالت وهى تفر منه كما يفر الأرنب من كلب الصيد الذى يقفو أثره :

— حسين بك أرجوك .

— كلمة واحدة ثم يسير بعدها كل منا فى طريقه .

— لا أستطيع أن أحادث أحدا فى الطريق .

— كلمة واحدة أقولها سواء حملها إليك الهواء أم ملأ بها الكون العريض ، هدى أحبك .

ووقف ينظر إليها وهى تنساب مسرعة بقامتها الطويلة الممشوقة وقد لفه سرور فياض وابتلعها الظلام فغابت عن عينيه ولكن صورتها ظلت واضحة فى خياله حاضرة لا تريم .

وسار وهو مفعم بالنشوة ، وسره جفولها منه كغزال شارد مفزوع .

* * *

شغلته هدى فراح يفكر فيما حدث فى ليلته فألفى نفسه يجد فى أثرها فى الظلام وهى تغذ السير تتعثر فى حيائها وخجلها ، آه لو تدرى ما يضمر لها من خير لو قفت تصغى إليه متفتحة النفس خافقة القلب مرهفة الحواس ، وأصاخ

سمعه فداعبه صوتها العذب المضطرب وهى تقول فى فزع :

— حسين بك أرجوك ! لا أستطيع أن أحادث أحدا فى الطريق ، فأثلج صدره ، صادف ذلك الإعراض هوى فى نفسه ، فلو وقفت وبادلته الحديث وواعدته على اللقاء لما تركت فيه ذلك الأثر الطيب الذى خلفه نفورها ، زاد تقديره لها وزاد تعلقه بها وراح قلبه يدق فى قوة دقات الحب العميق .

ورأى نفسه وهو فى حجرة خالته وهى مسبلة جفنيها لتتحاشى نظراته الولهى فابتسم ، وسمع صوته وهو يقول لها :

— إنى نازل الآن أنتظرك فى الطريق .

فانشرح صدره وشعر برضا عن نفسه ، فقد قالها دون أن يعقد الخجل لسانه أو يتعثر فى قولها ، كان يحس أنه رجل قوى يبدى رغبته دون أن يلف أو يدور ، وأنه ليرى أنها استجابت لدعوته فما تباطأت عند خالته بل هبطت خلفه تلبية لندائه . ولكن حياءها غلبها فنفرت منه وإن كان قلبها يهفو إلى اللقاء ويشتهيه ، كانت نظرتها الخاطفة التى صوبتها إليه مشحونة بالعواطف الفياضة ، ومضت عيناها فى الظلام ببريق أخاذ أنار كهف صدره ومس شغاف قلبه .

وأرهفت هذه الأفكار غروره فانبسطت أساريره ، وأسبل عينيه فغلبه النوم فراح فى سبات ، ولكن لم تنم أفكاره بل راحت تتناثر فى دنيا الأحلام دون أن يحكمها وعى أو شعور . رأى نفسه وهدى يذرعان شاطئ بحر هائل لا يبلغ البصر منتهاه ، كان سطحه هادئا كصقال المرآة ، وقام بالقرب منهما جبل شاهق جلله الجليد الناصع البياض ، والقمر فى ليلة تمامه يبعث ضياءه فيفرش الكون ببساط فضى لطيف ، والنسيم يهب رخاء ينعش النفوس .

كان فى قميص أبيض وهدى فى ثوب شفاف سترها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها نقابها الأزرق المفهاف ، فراح يرنو إليها وفى عينيه رغبة وفى جوفه ثورة وفى قلبه هيام ، وفاضت مشاعر الحب فضمها إليه فى وله وراح

يقبلها هنا وهناك من فوق النقاب .

وتلاشى ذلك الحلم واندمج فى حلم آخر ، إنه فى بذلته الرسمية فى حديقة دار عمه بالزمالك وعلية تجذبه من يده وهو يسير خلفها دون أن يكون له على نفسه سلطان ، وراحت تقوده إلى الخميلة وهو مسلوب الإرادة ، وقعدت على مقعد من جذوع الأشجار وقد تهدل شعرها الذهبى على كتفيها ورنت إليه بعينيها الزرقاوين وأومات له برأسها فقعد إلى جوارها .

أدنت وجهها منه فأحس أنفاسها الحارة تتردد على وجهه ، ولفت ذراعيها حوله فأحس كأنما كبل بطوق من حديد ، وقربت شفتيها من شفتيه فاضطرب فى ثورة وهب من نومه مبهور الأنفاس .

٨

أشرقت الشمس يوم الجمعة فقام حسين تراوده فكرة الخروج إلى الحى يضرب فى مسالكه لعله يعثر على هدى ، وقف بالأمس يرقبها وهى تنساب فى الظلام ، خافق القلب ، حتى غابت عن عينيه ، ولو أنصف لتبعها على البعد حتى عرف دارها فأراح نفسه من ذلك التجوال الذى يدفعه إلى القيام به قلبه المتعلق بوهم من الأوهام أو بخيال كاذب من الأمل .

وخرج إلى غرفة الجلوس فألفى أمه وأباه جالسين فحياهما وقعد ، وقال له أبوه .

ـــ قم وارتد ثيابك .

ـــ لماذا ؟

ـــ دعاك عمك لتمضى معهم اليوم فى القناطر وسيبعث إليك بالسيارة فى الساعة الثامنة .

ـــ سأعتذر .

فحدجه أبوه بنظرة ثم قال :

ـــ اعتذرت لارتباطى بموعد سابق وقلت لهم إنك ستذهب معهم . فيجب أن تذهب حتى لا تكدر عمك .

ـــ ولكنى واعدت أصدقائى على التلاقى فى الصباح . .

ـــ لا بأس من أن تخلف ذلك الموعد وتذهب .

ـــ لا أحب أن أذهب ولا أحب . .

ووقعت عيناه على أمه فوجدها ترنو إليه فى رجاء أن يكف عن ذلك

العناد ، كاد يهم بأن يفصح لأبيه عن خبيئة نفسه وأن يقول إن الخطبة التى يهيئون لها الجو جميعا لن تتم لأنها خطبة غير متكافئة فلن يرضى أبدا أن يكون فى الكفة الخفيفة ، ولكن نظرة أمه جعلته يكبح جماح نفسه فى استياء فما كان يحب أن يطوى صدره على إحساسات تقلقه ، شعر بميل إلى هدى فكانت أول كلمة وجّهها إليها وهى تفر منه مذعورة فى الظلام : أحبك ، وقد يقضى غيره سنين طوالا قبل أن يعترف لمن يهواها بذلك الغرام .. وكان يحب أن يكاشف أباه بحقيقة شعوره نحو علية ليواجه العاصفة مرة واحدة وينتهى الأمر . ولكن رشوة أمه المستعطفة قوضت عزمه وجعلته يتريث إلى فرصة أخرى ، فغض من بصره وقد لاح فى وجهه أثر انفعالاته الداخلية ، وبلغ أذنيه صوت أبيه وهو يقول فى رقة :

— ينبغى أن تذهب .

فنهض مقطب الجبين ، وخطر له أنه سيحرم من التجوال فى الحى للبحث عن هدى فأحس كدرا ينتشر فى صدره ، وراح يرتدى ثيابه دون أن يتطلع إلى المرآة .. وجاءت السيارة فهبط فى تراخ واندس فيها وقبع فى ركن منها يفكر فى مشاهد الليلة الماضية .

ووقفت السيارة أمام دار عمه فى الزمالك فلم يتحرك بل ظل فى جلسته المتراخية ، ولمح علية وابنة خالتها إجلال مقبلتين وقد أشرق وجهاهما فاعتدل ، ورأى عمه قادما فى أناقته فهبط من السيارة فلم يعد له مكان فى المقعد الخلفى .

كانت إجلال فى ثوب بسيط من الصوف وقد حملت معطفها على يدها ، وكانت علية ترتدى ثوبا أحمر من قطعتين حليت القطعة العليا بأزرار صفر أشبه بأزرار حلته .. ورأته فافتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ووسعت من خطوها وقد تبدى المرح فى وجهها وجسمها .. ومدت يدها وصافحته وعيناها تنطقان بالحب والهيام .

ركب كمال بك وعلية وإجلال فى المقعد الخلفى وركب هو بجوار السائق ، وانطلقت السيارة إلى القناطر .. وراحت علية وإجلال تتحادثان واشترك كمال بك معهما فى الحديث ، وكان يحادث حسينا ليدمجه فيهم ولكنه كان يرد ردودا مقتضبة ثم ينطوى على نفسه يفكر فى أمره .

فكر فى قعوده بجوار السائق فرفت على شفتيه ابتسامة ساخرة ... فهذا مكانه فى الأسرة ليس له إلا ما يتخلف عن علية وأهلها ... وعاوده شعور التضاؤل فتضايق وود لو فتح باب السيارة وولى منهم فرارا .

وبلغوا القناطر فأخذوا يحملون حوائجهم ، حملت علية حقيبتها الصغيرة وحملت إجلال معطفها وحمل السائق الحقيبة الكبيرة ، ورأى حسين « الفونوغراف » فحمله وهو يحس ضيقا وامتعاضا ، وسار كمال بك فى كبريائه وأناقته .

وهبت ريح قوية فتطلعت إجلال إلى السماء وقالت :

— مجيئنا اليوم مخاطرة .

فقالت علية :

— لماذا ؟ .

— قد تكفهر السماء فجأة وتهطل الأمطار مدرارا .

فقالت علية فى ثقة :

— اطمئنى سيكون الجو صحوا ، هكذا قالت النشرة الجوية .

فقالت إجلال فى سخرية :

— لو كنت أعلم ذلك ما جئت أو كنت على الأقل أحضرت معى مظلة ، ستمطر السماء بلا ريب ، هكذا عودتنا النشرة الجوية .

فقال كمال بك وهو يبتسم :

— اتقى الله يا إجلال .

وأشرفوا على مكان مرتفع يكسوه العشب الأخضر يطل على النيل ،

فوضعوا حوائجهم وقعدوا ينعمون بالشمس التي أرسلت أشعتها فمنحت الدنيا دفئا مشتهى ، وخلعت علية حذاءها ومدت ساقيها البضتين ثم مدت يدها وتناولت (الفونوغراف) وأدارت أسطوانة انبعثت منها أنغام غربية ، واستلقت على العشب فشمخ صدرها الناهد واسترسل شعرها الذهبي وانتثر على العشب ولمعت عيناها الزرقاوان فكانت فتنة ، ورنا حسين إليها مرة فهزه جمالها ، ولكن تلك الموسيقى الغربية المجلجلة لم تجعله يحلق فى سموات الخيال بل حركت نفوره وجعلته يحس أنه يعيش فى جو غريب .

ومر الوقت وعلية وإجلال تتحادثان فى مرح وكال بك يتمتع بحرارة الشمس وحسين حبيس نفسه التي تهاب علية وتخشاها . واستوت الشمس فى كبد السماء فمدالسماط وتحلقوا حوله وراحو يتناولون الطعام ، حتى إذا فرغوا منه نهضت علية وقالت لحسين :

— تعال .

فقال وهو ينهض :

— إلى أين ؟

— نركب مركبا .

وحاول أن يعتذر ولكنه لم يجد فى نفسه القدرة ، والتفتت علية إلى إجلال وقالت لها :

— تعالى معنا .

فقالت إجلال وهى تبتسم :

— لا أحب أن أقوم بدور العذول .

فتوهجت وجنتا علية وتوجت شفتيها ابتسامة عذبة ، وجذبت إجلال من يدها وهى تقول :

— هيا واعقلى .

ونهضت إجلال وهى تضحك ، والتفتت إلى كال بك وقالت له :

ـــ تعالى معنا يا عمي .

ـــ سأبقى هنا أحرس لكم الحاجات .

وأراد حسين أن يقول : « هذا مكاني » ولكن الكلمات ماتت على شفتيه ، وركبوا زورقا صغيرا وقعدت علية بجوار حسين والنشوة تغمرها ، وقدمت له تفاحة فأخذها وقضمها ، وأرادت أن تداعبه فمدت فمها لتقضم من التفاحة قضمة فأبعد يده بحركة غير إرادية ، فضحكت إجلال وابتسمت علية وصعد دم الخجل إلى وجهه ، وزاد خجله لما سمع إجلال تقول :

ـــ لم أكن أدرى أنك بخيل إلى هذا الحد .

ولم ينبس بكلمة ، وقالت علية وهي تبتسم من أعماق قلبها :

ـــ إنه مؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، أذكر لما كنا صغيرين أنه أخذ مني قطعة من الحلوى فهجمت عليه وعضضته في إصبعه حتى أدميتها ، ودفع ثمن قطعة الحلوى عدة زيارات للطبيب ، وقد خشى أن أعاود الكرة .

وتكلف ابتسامة وانتشر في صدره قلق لا يدرى كنهه ، وراح الزورق يشق عباب الماء والشمس تسطع في السماء تبعث أشعتها البيضاء فتدفع الدماء الجارية في العروق . وأحست علية بالدم الحار يتدفق قويا من قلبها فراحت ترنو إليه وفي عينيها وله وهيام .

وعادوا إلى حيث كان كمال بك ، علية مفعمة بالنشوة ، وحسين هادئ هدوءا أقرب إلى الشرود ، وإجلال في حيرة من أمر حسين .

ونظرت علية في ساعة معصمها ثم قالت :

ـــ أزف الوقت ، هيا حتى لا يتأخر حسين .

وراحوا يرتدون ما خلعوه ، ثم نهضوا وساروا يحملون متاعهم وعلية على رأسهم كأنما كانت قائدا يقودهم ، حتى إذا بلغوا السيارة ركبوها ، وجلس حسين إلى جوار السائق وأطرق يفكر فيما جرى من علية فرأى نفسه وهو يتبعها إلى حيث تريد دون أن يبدى رأيا أو اعتراضا ، فضايقته تلك الاستكانة

التى تستولى عليه إذا كان فى حضرتها وتقاصرت إليه نفسه فغاص فى مقعده .

وأخذت السيارة تنهب الأرض والجميع مطرقون ، كانوا نهبا لأفكارهم حتى إذا بلغت السيارة ميدان باب الحديد قالت علية فى لهجة آمرة :

— إلى كلية البوليس .

فاتجهت السيارة صوب الكلية ، حتى إذا بلغتها هبط حسين منها وهو يصافح من فيها وعيون زملائه تنتقل فى سرعة بين السيارة الفاخرة ، والفتاتين الرائعتين الجالستين فى المقعد الخلفى وقد لاح فيها الحسد .

٩

راح يمضى الليل والنهار بين جدران الكلية ، وتصرم الوقت بطيئا و لم يتسرب الملل إلى نفسه ، كان مشغولا عما حوله بحياته الخاصة التى يحياها فقد راح خياله يخلق له عالما رحيبا عوضه عن عالمه المحدود بالأسوار ..

رأى هدى وقد قام بينه وبينها نقاب شفاف أضفى عليها مسحة من الشاعرية ، وهز قلبه ذلك الغموض الذى يدثرها فأخذ يخفق فى حنان ، وراحت تجرى فى رأسه مشاهد ممتعة ينشرح لها صدره وتطمئن إليها نفسه فيسترسل فى العدو وراء الخيال .

واحتلت هدى أقطار رأسه .. هدى التى خلقها مزاجه وأدار بينه وبينها ما يشتهى من حوار وعاش معها الحياة التى تهفو إليها نفسه ، فتعلقت بها روحه بعد أن أسبغ عليها وهمه كل ما يحب من خصال .

رآها بعين خياله وهى تنساب فى الظلام فى خفة الطيف ، ورأى نفسه وهو يدنو منها خافق القلب ويقول لها فى رجاء :

ـــ هدى .. كلمة واحدة لا أريد بها إلا الخير .

فتقف فى الظلام مضطربة تتلفت من الخوف ، وتقول فى نبرات مرتجفة :

ـــ أخشى أن يرانى أحد .

ـــ لست يا هدى ممن يتسترون بالظلام ... تعالى إلى الميدان ليرانا الناس أجمعون .. أريد أن أعلن حبى .. أن أكشف عما يكنه صدرى . لا أدرى لماذا يتستر المحبون ... لماذا يلوذون بالظلام كالخفافيش ؟ تعالى .

ومد يده وجذبها فأطرقت حياء وهى تهتز وتقول فى نبرات متكسرة :



أحبك يا هدى .. أحبك بكل جارحة من جوارحى .

— حسين أرجو منك ..

— سأهتف بأعلى صوت : أحبك . أهواك ... ما الذى يمنعنى من أن أترجم بلسانى ما أحس به فى نفسى ؟! إن كتم العواطف رياء ، وإنى أبغض أن أكون من المرائين .

— حسين !

— أحبك يا هدى .. أحبك بكل جارحة من جوارحى ولن أدع شيئا يحول بينى وبينك . سأذهب إلى أهلك أطلبك منهم وما هى إلا شهور قليلة حتى نتزوج ، أتقبليننى زوجا لك يا هدى ؟ .

فأسبلت جفنيها واحمرت وجنتاها وبان فى وجهها الرضا ، فقال فى حماسة :

— لا أطمع أن أسمع منك جوابا ولكن يكفينى أن أرى هذه السعادة التى كست وجهك .. إنى سعيد .. أسعد مخلوق فى الوجود .

وشعر بالنشوة تغمره فهدأ خياله قليلا ليتمتع بالمشاعر اللذيذة التى حركها وهمه ، ولكن سرعان ما استأنف تفكيره وانغمس فى الحوادث التى تجرى فى مسرح ذهنه .. وراح يقول لها فى حرارة :

— لا أحب أن أخدعك يا هدى وأقول لك إن المستقبل أمامنا مفروش بالورود ، بل لا بد أن أصارحك بالحقيقة ، إننا مقبلان على حياة خشنة ، قد نعيش فى بلدة نائية فى أقاصى الصعيد ، وقد نسكن فى قرية من قرى الريف ، لن تكون حياتنا ميسورة ولن تكون سهلة هينة ، ولكننا نستطيع بحبنا أن نخلق لنا دنيا سعيدة ، فما رأيك يا هدى ؟ .

— إننى يا حسين أقدر ما قد يعترضنا من صعاب ، ولكنى سأكون إلى جوارك دواما أمسح بيدى الرفيقة المتاعب عن صدرك .

وتدفقت دماؤه حارة فى عروقه فلج فيما هو فيه ، وأصاخ سمعه إلى صوته المنبعث من جوفه :

ـــ قد تضطرني الظروف أن أغادرك في جوف الليل وأدعك وحيدة .

ـــ سأكون لك خير معوان على تأدية عملك ، سأودعك في سكون الليل مشرقة الوجه وسأنتظر أوبتك في تشوف ورجاء ، سأقاسمك الحياة كما ينبغي أن تقاسم الزوجة زوجها راضية بما تأتي به الأقدار .

ـــ سنبدأ حياتنا بمرتب ضئيل ندفع منه سكنتنا ونشترى طعامنا ولباسنا ، سنعيش عيشة كفاف ، ففكرى يا هدى قبل أن تقبلي في غمرة النشوة ما أعرضه عليك .

ـــ إنه لمما يسعدني أن نبدأ معا صغيرين ثم نبني بسواعدنا أنفسنا ، فما ألذ الكفاح .

ـــ قد نرزق أولادا فنحرم من كثير مما تشتهي النفس ، ونعيش حياتنا في صراع .

ـــ إذن فمرحبا بالحرمان .

ـــ هدى فكرى .

ـــ فكرت وإني أتبعك راضية النفس .

فمد بصره من خلل نافذة غرفة النوم بالكلية وراح يتطلع إلى السماء ويقول في حماسة :

ـــ اللهم اشهد ، إني لم أخدعها .

ثم عاد إلى فكره واستأنف الخوض في دنيا الخيال فرأى نفسه يضمها إلى صدره ويقبلها في حرارة ، ولكنه لم يرتح إلى ذلك الخاطر فجعل يطرد تلك الصورة من رأسه ، فهدى لن تسمح له أن يقبلها قبل إتمام الزواج .

ورأى نفسه بعين خياله وهو يمد إليها يديه ويتناول يديها ويرنو إليها في حب ويقول في انفعال :

ـــ أبتهل إلى الله من أعماق قلبي أن يبارك هذا الزواج .

وظل حسين يناجي طيفها في كل آونة وآن ، يدير على لسانها ما يرضيه من

حوار فينشرح صدره وترضى نفسه ويخفق قلبه ، وتهفو إليها روحه كأن ما جرى قد وقع فى الحقيقة وليس من خلق الخيال .

وكان إذا غلبه النوم يسبح فى عوالم الأحلام ، وكانت أحلامه تتداخل وتمتزج حتى إذا قام من نومه لم يستطع أن يتذكر مما رأى شيئا ، ولكن فى ذات ليلة رأى رؤيا ظلت عالقة فى ذهنه فى وضوح حتى خيل إليه بعد أن هب من نومه أنها وقعت فى الحياة .

رأى أعلاما تخفق وزينات تتألق ومصابيح كهربية تتلألأ على وجه داره ، وموسيقى تعزف ومدعوين يغدون فى ثياب السهرة . إنها ليلة زفافه .

كان فى ثيابه الرسمية يخطر بين الصفوف وقد وضع ذراعه فى ذراع هدى ، وهى فى ثياب الزفاف البيض أسدلت على وجهها نقاب العرس الأبيض الشفاف وأطرقت فى حياء ، وأخذا يتقدمان إلى صدر المكان وقد أطلقت الزغاريد مجلجلة مدوية وعبق الجو بدخان .

وبلغا مقعدين وضعا على منصة فقعدا متجاورين ، والتفت إليها خافق القلب ومد يده ورفع النقاب ليطبع على جبينها قبلة الزواج ، ولكنه اضطرب ونظر إليها فى دهش ، كانت عيناها زرقاوين وشعرها أصفر فى صفرة الذهب ، ذهبت هدى وجاءت علية ، وتلفت حوله فألفى نفسه فى دار عمه بالزمالك ، وتفرس فى المدعوين فإذا بأمه وأبيه وسنية هانم وعمه وإجلال ينظرون إليه مشرق الوجوه .

وهب من نومه وقلبه يدوى فى جوفه دويا ، وقعد فى فراشه وراح يمرر يده على عينيه ليمسح ذلك الحلم من ذهنه ، ولكن هيهات ، كان يحيا فى رأسه نابضا أنبض من الحياة .

وظل مدة وهو فى قلقه ، وراح يفكر فى ذلك الحلم فلم يجد له تأويلا فغمغم ليهدئ من روعه : « أضغاث أحلام » .

وجاء يوم الخميس فانطلق إلى داره وفى رأسه أفكار ، عزم على أن يذهب

إلى خالته ليقابل هدى ويكاشفها بأمره ، إنه تعلق بها فلماذا لا يفصح فى بساطة عن حقيقة مشاعرة فلن يجنى من الكبت إلا القلق والعذاب .

ووافى ميعاد ذهابه فخرج وقد انتشرت فى صدره إحساسات حارة ، كان يهفو إلى لقاء هدى ليبثها لواعج نفسه دون أن يدع للخجل سلطانا على لسانه ، وطن النفس على أن يفتح قلبه ولن يلجأ إلى اللف والدوران .

سار فى نشاط فقد استمد حيوية من حرارة فؤاده ، وما فكر فى أنه لم يعرف بعد هدى حتى يقدم لها قلبه وأن التى عرفها من وحى الخيال .

ووقف أمام باب خالته فأحس جفافا فى حلقه ورعدة تسرى فى بدنه ودويا يدوى فى جوفه ، فلم يطرق الباب بل تريث حتى يفرخ روعه ، ما كان يخشى ملاقاة هدى ولكنه لا يدرى ماذا اعتراه .

وظل فى قلقه فلم يجد مفرا من أن يقدم ، فطرق الباب وقد تدفق الدم حارا فى عروقه فهو مقبل على لحظة حاسمة فى حياته ... وانفتح الباب فولجه مرهف الحواس ، وألقى النور ساطعا فى غرفة جلوس خالته فمد بصره لعله يلمح هدى فيطمئن فؤاده الولهان .

دنا من الغرفة وأدار عينيه فى أنحائها فى لمحة فلم يجدها ، فشعر بخيبة وخبت تلك المشاعر الثائرة فى صدره واستولى عليه ضيق .. كان يتمنى أن يجدها فيذهب إليها يصافحها فى اشتياق ويجلس إلى جوارها ينتظر فرصة ذهاب خالته لتجهيز شيء تقدمه له .. فيحدثها بما يعتمل فى صدره وما يكنه لها من غرام .

وراحت خالته تحدثه وهو مشغول عنها بأفكاره ، أخذ قلبه يمده بالأمل ويؤكد له أنها آتية فاطمأن إلى وحى قلبه وراح ينتظر فى رجاء ، ومر الوقت وئيدا وهو يتلفت ويتساءل عما دعاها إلى الغياب . آه لو تدرى ما يحمله لها من حب وما يقاسى فى سبيلها من وجد ، لجاءت إليه تطير متفتحة النفس منبسطة الأسارير .

وابتدأ الملل يتسرب إلى نفسه واليأس يدب فى قلبه ، إنها لن تأتى الليلة

أو لعلها جاءت وانصرفت قبل أن يجيء ، فخطر له أن يسأل خالته عنها ولكنه عجز عن أن يخرج ذلك الخاطر إلى الوجود . تخلت عنه شجاعته وماتت الكلمات على شفتيه وهو يشعر بحنق شديد .

وهم بالانصراف أكثر من مرة ولكن قلبه لم يطاوعه وراح الوقت يمر بطيئا بغيضا وأخيرا نهض وانصرف وهو حزين ، وما أن انطلق فى الطريق الهادئ الذى دثره الظلام حتى أخذ قلبه ينزف أسى ويشعر بطعم الصاب فى فيه .

مشى مطرقا يفكر ، لو كان يعرف دارها لذهب إليها وعرض عليها حبه واستراح من تلك المشاعر التى تضنيه ، جاء يحدوه الأمل وعاد محطم النفس يحتويه اليأس المرير .. وانبعث من جوفه صوت أشبه بالفحيح .. راح يتساءل :

« لماذا لم تأت ؟ ما الذى حال بينها وبين الحضور ؟ » .. فخطر له أنها غضبت لأنه طاردها وغازلها فى الطريق ، فأحس كأن جمرة نار وقفت فى حلقه ويدا قوية تهصر قلبه ، فبان فى وجهه الأسى العميق .

١٠

عاد إلى الكلية وهو حزين ، حلق فى الأسبوع الفائت فى سماوات الخيال وبنى قصورا من الأمانى وراحت تداعبه الآمال فكان يبدو له كل شيء بهيجا ، فلما ذهب ليحقق أحلامه صدمته الحقيقة فتقوضت آماله وألفى نفسه يجد فى أثر وهم خادع كذاب .

كان وهما يوحى إليه أن هدى تناجيه فى خلوتها كما يناجيها فى خلوته وأنها تعد اللحظات ترقب يوم الخميس لتذهب خافقة القلب للقياه ، فلما ذهب لمقابلتها وهو عامر القلب بالحب النابض العميق و لم يجدها وسوست له نفسه أنه مخلوع ، صور له خياله أنها لا تهتم به كما يهتم بها وهى لا تفكر فيه .

وساءه ذلك الخاطر فانقبض قلبه و لم يرتح قلبه إليه ، فهب يذب عمن يهواها وينتحل لها المعاذير ، إنها تحبه وقد بان حبها فى تلك الومضات التى انبعثت من عينيها وهى تسترق إليه النظر ، فإذا كانت لم تأت يوم الخميس فإن عائقا حال بينها وبين الحضور .

وانتابه قلق ، وأخذ يأسه يوحى إليه أنه انطلق فى أثر سراب ، وجعل قلبه يؤكد له أنها تهواه وأن تخلفها يوما لا يستحق كل ذلك القنوط ، ستأتى يوم الخميس القادم وهى أكثر شوقا إليه فالبعد يؤجج نار الصبابة فى الضلوع .

وراح يترجح بين يأسه وأمله الذى يغذيه الفؤاد المفتون فاستولى عليه ضيق ، إنه يريد أن يقطع الشك باليقين ، فبات يرقب ضجرا يوم الخميس ، ليت هذه الأيام المملة تسقط من حياته أو ليته يرقد ويروح فى سبات إلى اليوم الموعود .

ومرت الأيام متسكعة بغيضة ، فلما انتصف يوم الخميس غادر باب الكلية وهو قلق تتمشى فى صدره إحساسات متضاربة ، كان يشعر بلهفة تشوبها رهبة ، برجاء يكدره يأس وبصراع بين الفرح والحزن ، لا يدرى أيتعلق بأهداب الأمل أم يستسلم للقنوط .

وانطلق بعد الغروب إلى دار خالته وقد ارتفع نبضه واضطربت أنفاسه وأرهفت مشاعره وانداحت فى صدره رهبة المجهول ، ليته يستطيع أن يهتك حجب الغيب ليرى ما ينتظره ويستريح ، ووقف أمام الباب يطرقه فقفز قلبه فى جوفه فى جنون حتى أحس به يكاد يفر من فيه . وفتح الباب فتقدم وقد لفه الخوف وبلغ غرفة الاستقبال وهو يتلفت بعيون زائغة ، ووقع بصره عليها فرقص فرحا وغمرته نشوة كأنما التقى بالحبيب بعد الفراق الطويل .

وأشرق وجهه وبرقت عيناه وراح يمرر أصبعه على شاربه الأصفر فى سرور ، وصافح خالته ، ثم اتجه إليها وصافحها فى شوق وقد رفت على شفتيه ابتسامة حالمة ووشت ملامحه بما يزخر به قلبه من إحساسات فوارة ، ورنت إليه رنوة اهتز لها كيانه ، خيل إليه أنها مشحونة بمشاعرها الحارة المذخورة .

قالت له خالته :

ـــ كيف حالك وكيف حال ماما ؟

رأى الفرصة سانحة ليشكو لهدى ما قاساه طوال الأسبوع فقال :

ـــ أمضيت أياما قاسية ، استبدت بى أوهام أقلقتنى فكنت أرى أشباحا بغيضة تتراقص أمام عينى آناء الليل وأطراف النهار ، خيل إلى أن الكلية سجن بغيض حتى فكرت فى أن أفر منها كما يفر السجين إذا ما لاح له خيط واه من الأمل .

ـــ إنك مكدود ، ولكن لا بأس لم يبق أمامك إلا ثلاثة شهور .

واسترسل فى حديثه وهو يسترق النظر إلى هدى :

ـــ شعرت برغبة عجيبة ، رغبة لم يسبق لى أن أحسست بها ، هتف بى

هاتف أن أطرق أبواب جميع معارفى لأطمئن عليهم ، وما استولى علىّ ذلك الخاطر حتى زحف إلى صدرى قلق رهيب .

فقالت خالته وقد شردت ببصرها :

— ما أكثر ورود هذه الهواجس إلى رأس الإنسان وهو وحيد !

— تمثلت لى جميع الأماكن التى أعرفها وراحت تتتابع أمام عينى كشريط سينمى ، رأيت أبى وأمى فى بيتنا وقلبى يضطرب فى قلق ، ورأيت هذه الغرفة بمن فيها وقد استولت علىّ رهبة لا أدرى لها سببا ، ورأيت أماكن كثيرة والخوف يدثرنى ، كنت أخشى شيئا مجهولا .

فقالت خالته .

— أنت فى حاجة إلى الراحة ، اذهب إلى الحدائق وارتض فى أماكن هادئة .

فقال وهو يبتسم :

— أفعل .

فقالت خالته .

— هذا ما وصفه لى الأطباء بعد فجيعتى فى المرحوم .

وصمت وساد المكان هدوء ، ونهضت خالته لتقدم له الشاى فراح يجمع شتات نفسه ويتأهب لنجوى هدى . وما ابتعدت خالته وخلا له الجو حتى قال وهو يميل نحو هدى والدم يتدفق حارا فى عروقه :

— أقلقنى غيابك يوم الخميس ، ما الذى عاقك عن الحضور ؟

فقالت فى صوت خافت وهى مسبلة عينيها :

— جاءنا ضيوف .

— يا للوهم البشع الكريه ، وسوس لى أنك حاقدة علىّ وتركتنى أقاسى العذاب المرير ، لو كنت أعرف بيتك لجئت إليك لأستريح مما كنت فيه .

فقالت فى صوت مكتوم :

ــ وى .

ــ ماذا يا هدى ؟ اتخشين مجيئى ؟!

فقالت فى تلعثم :

ــ ماذا يقولون ؟

ــ من هم الذين يقولون ؟

ــ أهلى .

ــ يقولون ما يقولون ، حبيب جاء يسأل عن حبيب .

ــ أوه .. أرجو ..

ــ أيغضبهم أن يطرق بابهم خطيب !

فأطرقت وأشاحت بوجهها فى حياء ، فزاد وجيب قلبه وقال فى حرارة :

ــ سأطرق بابكم يوما يا هدى وقلبى على كفى أقدمه لكم .

ورفرف قلبه فى سرور ، استشف الرضا فى وجهها فغمرته النشوة وصمت يتحلب المشاعر اللذيذة التى شاعت فى نفسه .

وعادت خالته وراحت تتحدث وهو مشغول عنها بذلك الفرح القائم فى جوفه ، وجاءت الخادم تحمل فناجيل الشاى فأشار لها إلى هدى وهو يقول :

ــ الهانم أولا .

فغمغمت :

ــ متشكرة ، تفضل .

فحمل فنجالا وقدمه بنفسه إليها فتناولته وهى ترنو إليه بعينيها النجلاوين وتمتمت :

ــ متشكرة .

وأخذ يرشف الشاى فى صمت يتملى من حسنها الآسر الذى خلب لبه وسلبه فؤاده .

وقام مستأذنا واتجه إليها وصافحها وهو يضغط فى خفة على يدها ، ثم

صافح خالته وانصرف تلفه غبطة عارمة .

وبلغ الطريق الهادئ الذى خيم عليه الظلام فوقف بالقرب من الدار يرصد هبوطها ، وما انقضى كثير وقت حتى هبطت بقامتها الممشوقة فخفق قلبه ودنا منها ، فلما لمحته لم تجفل بل تمهلت فى خطوها فسار إلى جوارها وهو يكاد يطير من الفرح .

وانطلقا صامتين .. فلما ملك نفسه قال فى هدوء :

— نصحتنى خالتى أن أذهب إلى الحدائق وأرتاض فى أماكن هادئة ، وقد عزمت أن أعمل بنصيحتها ، سأذهب غدا إلى حديقة الحيوان وسأنتظرك فى جزيزة الشاى .

— لن يسمحوا لى بالخروج وحدى .

— سأنتظرك .

— لا أستطيع .

— حاولى .

— اذهب أنت .

— ما أبغض أن أذهب وحدى وما أوحش الجنة لو خلت منك !

وأطرقت مسرورة ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— سأحاول .

ووقفت ومدت يدها وهى تقول :

— مساء الخير .

— إلى أين ؟ .

— ذاهبة إلى البيت .

— سأسير معك .

— خرجنا إلى النور .

— وما الذى نخشاه من النور ؟

ـــ لا أحب أن يراني أحد معك .

ـــ وماذا لو رآك أحد معى ؟ .

ـــ ماذا يقولون ؟

ـــ لا يهمنى ما يقولون .

ـــ أرجو منك .. إكراما لى .

ـــ لا يسعنى إلا القبول .. اذهبى فى حفظ الله .

ووقف يرمقها وهى تنساب فى النور ، فلما ابتعدت عنه راح يتبعها فقد صمم على أن يعرف دارها حتى إذا هفت نفسه إليها واشتاق إلى البحث عنها ، اتجه إلى بيتها يتطلع إلى الشرفات والشبابيك .

وسارت وهو فى أثرها ، فلما بلغت دارها ودلفت إليها قفل عائدا إلى داره فرحان راضيا بما هو فيه .

١١

راحت هدى تخطر فى ذهنه بقامتها الممشوقة وخصرها الدقيق وصدرها المغرور وشعرها السبط المتموج ، ترنو إليه بعينيها السوداوين اللتين ينبعث منهما بريق يهز القلوب ، تناجيه فى حرارة المحبين وهو ممدد فى فراشه يشعر بخدر لذيذ .

نام الكون وهدأ كل شيء إلا نفسه ، فقد كانت الإحساسات الحلوة تمور فى صدره والصور الحبيبة تتوافد على رأسه والمناجاة المشتهاة تداعب أذنيه ، فيسبل عينيه فى راحة متلذذا بما يتفجر فيه من مشاعر وإحساسات .

تذكر ما كان بينه وبين هدى فى دار خالته ، ولكنه لم يتذكره كما كان بل تذكره كما يشتهى أن يكون ، رأى نفسه يدنو منها ويقول لها فى حرارة :

ــ هدى ! . أحبك ، أصغى إلى خفقات قلبى ، انظرى إلى ، إنى أحس دبيب النمل يسرى فى بدنى . إن كان خالجة فى تهفو إليك . أحبك .. أحبك بكل جوارحى . أحبك من كل قلبى .

ــ رحماك ! إنك تعبث بأوتار فؤادى .

ــ هدى ! كم أشتهى أن أحملك وأنطلق بك بعيدا .. بعيدا عن الناس ، لنعيش وحيدين ننعم بحبنا .

ــ ما أشهى أن نكون وحدنا !

ــ نهيم فى الفضاء لا نذكر شيئا .

ــ إلا حبنا .

ــ هدى .. أنت حياتى .

ــ وأنت روحى .

ـــ أصبحت أحيا على أمل .. أمل حلو مرتجى أضاء جوانحى وبدد ظلمات نفسى .. ستنقضى أيام ثم نكون معا إلى الأبد .

ـــ وإنى أبتهل إلى الله أن يحقق الأمل .

ـــ ستكون حياتنا حلما جميلا .

ـــ لن تتخلله رؤى مفزعة .

ـــ وتمر الأيام رخاء كالنسيم .

ـــ لا يعكرها هبوب الزوابع والأعاصير .

ـــ سأكون لك .

ـــ وسأكون لك بكل جوارحى .

ـــ أحبك .. أحبك يا هدى .

وأحس نشوة عارمة فلج فى تخيلاته وراح يسبق الزمن ، فرأى نفسه وهدى فى جزيرة الشاى ينظران إلى اسراب البط التى تسبح فى مرح فى البحيرة الصغيرة وقد انتشرت فى صدره غبطة وتأهب ليدير الحوار الذى يرضيه بينه وبينها .

ولكن قفز إلى مسرح ذهنه خاطر جديد اطمأن إليه وأخذ يفكر فيه منشرح الصدر منبسط الأسارير .

رأى بعين خياله علية قادمة إلى جزيرة الشاى وهى فى ثوبها الأحمر الذى حلى بأزرار صفر كأزرار سترته ، ووراءها إجلال وقد حملت معطفها على يدها ، وعمه فى أناقته . ووقعت عينا علية على هدى فاضطربت واربد وجهها وبان فيه الكمد ، وتقدمت علية نحوهما وعيناها الزرقاوان تقدحان شررا وصدرها فى علو وانخفاض فلم تختلج فيه خالجة ، بل قام فى ثبات وحياها وهو يبتسم وقال :

ـــ هدى خطيبتى . علية هانم ابنة عمى .

وترنحت علية وكادت تنهار فقدم إليها كرسيا فقعدت ، وأحس فى رقدته

نشوة ورغبة فى أن يسترسل فى تعذيب علية فلج فى تصوراته التى راحت تدغدغ حواسه .. رأى بعين خياله إجلال وعمه وهما ينظران إلى هدى فى دهش .. ورأى إجلال تميل على علية وتهمس مستفسرة :

ـــ من هذه ؟ .

فتقول علية فى أسى عميق :

ـــ خطيبة خطيبى .

ـــ ماذا تقولين ؟ .

ـــ خطيبة حسين .

ـــ مستحيل .

فقال حسين فى هدوء :

ـــ وما وجه الاستحالة ؟ .

ـــ علية مخطوبة عليك من يوم ولادتها .

ـــ ومن خطبها ؟.

ـــ أبوك .

ـــ ليتزوجها أبى .

فقالت إجلال فى انفعال :

ـــ هذا بطر .. إنك ترفس النعمة بقدمك .

ـــ إنى أحطم الأغلال التى تريدون أن أرسف فيها إلى الأبد .

فقال عمه فى انفعال :

ـــ أية أغلال ؟

ـــ الأغلال التى كبلوك بها ، أموال سنية هانم ، إنى لا أقبل أن أكون مثلك خاتما فى أصبع امرأة .

ـــ أنت وقح .

فقال فى سخرية :

ـــ لو كنت تزوجت ابنتك لكنت زين الشباب .

فاكفهر وجه علية وترقرق الدمع فى مقلتيها وانسلت غضبى لتذرف دمعها بعيدا ، وقامت إجلال وقد رمته بنظرة قاسية ، وانسحب عمه وهو يرغى ويزبد ، وانفجرت فى جوفه قهقهة عالية ، ولكنها صكت أذنه موحشة بغيضة .

وتقلب فى فراشه وتثاءب ، واختلطت المشاهد فى رأسه فلم يعد يميز شيئا ، ثم راح فى سبات .

وطلع الفجر وزقزقت العصافير فاستيقظ منشرحا ، خرج إلى غرفة الجلوس يقطع الوقت بقراءة رواية بوليسية كان قد اشتراها بثلاثة قروش ، كانت رواية شائقة ولكنها لم تستحوذ عليه فقد كانت تقع فى ذهنه أفكار كالشهاب ، ثم تختفى كالبرق .

واكتمل مولد النهار وبعثت الشمس أشعتها فدبت فى الكون الحياة ، وخرج حسين منطلقا إلى الجيزة يرصد وفود حبيبة الفؤاد .

وقف على وصيد حديقة الحيوان يقلب عينيه فى الهابطات من الأتوبيس والترام لعله يجد هدى بينهن فيدخلان معا ينعمان بأسعد الأوقات ، وظل فى وقفته خافق الفؤاد وقد احتل صدره تشوف لذيذ ، فما أبهج لحظات انتظار الحبيب ، إنها أروع من سويعات اللقاء .

ومر بعض الوقت وهو يتلفت ، ورأى أن يدخل ينقب عنها فما تواعدا على اللقاء أمام الباب بل تواعدا على أن يتقابلا فى جزيرة الشاى فدخل وراح يقطع الممار فى خطا وئيدة وهو يدير عينيه فى المكان وفى صدره نشوة وصفاء ، فراحت المرئيات تنعكس فى نفسه فى رواء وبهاء .

ولاحت لعينيه جزيرة الشاى وقد انتثرت فيها المناضد والمقاعد وفاضت عليها شمس الشتاء ، فراح يرنو إليها متفتح النفس ، وجعل يجيل عينيه فى الفتيات الجالسات إلى الموائد يبحث عن هدى .

وأخذ يدنو من المكان ، وثبت بصره على مائدة من الموائد برهة فخفق قلبه فى شدة ولفه خوف وتقهقر فى خفة واضطراب ، خيل إليه أنه رأى علية بشعرها الذهبى وثوبها الأحمر ذى الأزرار الصفر جالسة إلى مائدة من الموائد وقد مدت بصرها إلى البحيرة ترقب البط السابح فى الماء .

وانسحب وقلبه دائم الخفقان وراح يدور حول الجزيزة فى حذر حتى لا تقع عليه عيناها ، وبلغ موضعا يراها منه ولا تراه ، ومد بصره فانقشعت رهبته وهدأت ثورة نفسه ، ولم تكن علية بل كانت فتاة أخرى .

وعجب فى نفسه لذلك الاضطراب الذى اعتراه ، كان يحسب أنه لا يرهب أحدا وأنه قادر على أن يصارح علية بحقيقة شعوره دون أن يضطرب ، فإذا بشبح علية يجعله يفر مذعورا يدثره قلق وخوف واضطراب .

وراح يرقى الدرجات القليلة الموصلة إلى المكان وهو يدور بعينيه ، وجاس خلال الموائد ثم جلس بالقرب من المدخل يتفرس فى الوافدات . ويتناول الشاى وهو شارد اللب يفكر فيما يقوله لهدى ساعة اللقاء .

وأخذت الشمس فى الارتفاع حتى كادت تحتل كبد السماء معلنة انتصاف النهار ، فتململ فى جلسته وبدأ ينبت فى جوفه قلق ، وراح القلق ينمو وينتشر حتى أحنقه فقام متضايقا يذرع الممار عابسا مقطب الجبين .

ضايقه عدم حضورها ، كان يرجو أن يمضى بقربها لحظات هنية تسعد الفؤاد فإذا به يسير فى الحديقة وحيدا وقد انتشرت فى جوفه سحائب من الكدر ، أراد أن يعب كئوس السرور فإذا به يترنح من الألم .

وطأطأ بصره وقد زوى ما بين حاجبيه وجعل يعبث فى شاربه الأصفر ، والتمع فى ذهنه خاطر كان له وقع الغيث فى الأرض المجدبة ، ترعرعت له نفسه وانبسطت أساريره ورقص قلبه طربا ، خطر له أنها لم تأت لأنها ليست من فتيات اليوم اللاتى أطلق لهن الحبل على الغارب يذهبن حيث شئن ويفعلن ما

يحلو لهن ، إنها فتاة من أسرة ترعاها فليس لها أن تخرج على هواها ، إنها كانت تشتهى أن توافيه ولكن حال بينه وبينها تقاليد أهلها وأنعم بها من تقاليد .

وغادر الحديقة وعاد إلى داره وهو سعيد ، أسعد مما كان لو وافته فى الميعاد .

١٢

وقف محمود أفندى أمام المرآة يرتدى ثيابه ويمرر يده على شعره الرمادى المنفوش البارز من تحت الطربوش وقد انتشرت فى صدره رهبة . إنه ذاهب لزيارة ابنه فى مستشفى الكلية فقد بلغه أنه سقط من على ظهر حصانه وأصيب برضوض .

وجاءت زوجه وفى وجهها آى اضطراب وقالت له فى توسل :

ـــ أذهب معك .

فقال لها فى بساطة :

ـــ ليس هناك ضرورة ، قيل لى إنها رضوض بسيطة .

ـــ قلبى يتعبنى يا محمود .

فقال وهو يبتسم فى رقة :

ـــ قلب الأم دائما فى كبد ، اطمئنى حادثنى بنفسه فى التليفون .

ـــ وماذا لو ذهبت معك ؟

ـــ سأذهب أنا اليوم ثم نذهب فى الغد معا .

وسار وهو يحس اضطرابا وإن حاول أن يبدو متجلدا أمام زوجه ، وخرج وقد تسربل بالرهبة ، ووقف على محطة الترام فى تبرم وضيق ويمد عنقه يرصد الطريق ، ثم يغدو ويروح على الطوار وقد بان فى وجهه العبوس .

وجاء الترام فركبه وأخذ ينظر من خلل النافذة وقد أرخى لخياله العنان ، وانطلق الترام حتى إذا بلغ ميدان الحسينية تمهل لمرور جنازة ، فلما وقعت عينا محمود أفندى عليها انقبض وأخذ قلبه يدوى فى صدره وينزف قلقا وخوفا

وشعر بجفاف فى حلقه ، ومرت الجنازة واستأنف الترام سيره وبقى محمود أفندى للخواطر الكئيبة التى راحت ترعى فى ذهنه .

وهبط من الترام وما سار خطوات حتى لمح زينات وأعلاما . فضيق من خطوه وجعل يرنو إلى الفرح وقد انقشعت سحائب الكدر عن صدره وحل مكانها طمأنينة وأمن ، تشاءم لما رأى الجنازة وتفاءل لما وقعت عيناه على معالم البهجة والسرور .

وانطلق يغذ السير ، فلما دنا من الكلية عادت الرهبة تزحف إلى صدره لتكدر صفوه . ودخل من الباب فاضطربت أنفاسه ودق قلبه ، وتقدم فى ردهة طويلة وهو يتلفت ، ثم دلف إلى حيث ابنه فأحس قلبه يغوص فى قدميه ورهبة تستولى عليه .

ورأى حسينا ممددا فى سريره فاستيقظت فيه مشاعر الحنان ومشت فى جوفه ،وشعر بدموع تبلل مقلتيه وراح يدنو منه مرهف الحواس ، فلما لمحه يتبسم له أحس كأن يدا رفيقة تعبث بأوتار قلبه ، ووقف بالقرب من السرير وقال فى رقة :

— كيف أنت يا بنى ؟

فقال حسين وهو يتبسم :

— الحمد لله .

وجلس محمود أفندى على كرسى قريب من السرير وقال :

— بماذا تحس ؟

— لا شيء ، برضوض خفيفة .

— أرادت أمك أن تأتى فقلت لها تنتظر إلى الغد .

— إنى بخير والحمد لله .

— ستأتى غدا .

— ليس هناك زيارة فى يوم الجمعة .

فقال محمود أفندى فى أسى :

— ويل لى ، لن أخلص منها .

— قل لها إنى آت يوم الخميس القادم .

— أتظن أنها تصدقنى ؟

فقال حسين وقد افتر ثغره :

— إنها تصدقك دائما .

ونظر حسين صوب الباب فرانت على وجهه مسحة من الجد ، ولاحظ أبوه تغيره فنظر خلفه فألفى علية قادمة ، كانت ترتدى ثوبا بديعا أبرز فتنتها وشعرها الأصفر ينوس خلفها فى رشاقة ، فنهض وهو يقول :

— أهلا .. أهلا .

وصافحته ، ثم اتجهت إلى حسين ونظرت إليه وفى عينيها حنان وقالت فى لهفة :

— ماذا جرى ؟

— كنت أثب بحصانى وثبة فكبا الحصان وسقطت وأصبت برضوض .

— وكيف حالك الآن ؟

— بخير .

— وماذا قال الطبيب ؟

— رضوض خفيفة .

— ومتى تفك هذه الأربطة ؟

— بعد يومين .

— هل أنت فى حاجة إلى شيء .

وشعر بالدم يصعد إلى وجهه فقال فى صوت خافت :

— كل شيء موجود .

وبان الرضا فى وجه علية ، ورنا محمود أفندى إليها فى دهش ، إنها فى لحظة

سألت عن كل شيء وهو لم يسأل ابنه عن شيء ، وردت إلى طبعها فقالت :

— أتدرى يا حسين لماذا سقطت عن ظهر حصانك ؟

— لا .

فقالت وقد رفت على شفتيها ابتسامة رقيقة :

— ولكنى أدرى .

فقال وقد حدجها بنظرة :

— لماذا ؟

فقالت وهى تنظر إليه فى حب :

— لأنك لم تزرنا يوم الخميس .

وابتسم محمود أفندى وأسبل حسين جفنيه واضطرب ، وساد السكون وكادت وجنتا علية تحمران خجلا ، ولكن محمود أفندى بدد ذلك السكون بقوله :

— أتعلم يا حسين أننى لما كنت فى مثل سنك سقطت من فوق ظهر الحصان !

فقالت علية وهى مشرقة الوجه :

— وكيف كان ذلك يا عمى ؟

— كنت فى القرية ، وكان على أن أذهب إلى قرية أخرى قبل غروب الشمس لأمر هام ، فامتطيت جوادا ورحت أنهب به الأرض واعترضتنى ترعة فتحفزت لاجتيازها وثبا ، وقفز الجواد قفزة هائلة ولكنى لم أملك نفسى فسقطت على الأرض .

فقالت علية :

— أية أرض ؟

— الشاطئ الآخر للترعة .

— الترعة أم الجدول ؟

فاتسعت عينا محمود أفندى وقال :

— الترعة .

وخيم السكون ثانية ، ورمقت علية حسينا بطرف عينها ، ثم ضحكت فى طلاقة الأطفال .

فقال محمود أفندى فى استغراب :

— ما الذى أضحكك ؟

فقالت علية فى بساطة :

— خاطر سخيف .

— ما هو ؟

وترددت برهة ثم قالت وقد تفتح وجهها :

— خطر لى أن أقوم وأدفع حسينا فى صدره حتى يغادر هذا السرير .

ونظر حسين إليها وأراد أن يبتسم ولكنه عجز عن أن يفرج شفتيه ، ومشت فى صدره سحابة من الكدر عكرت صفوه ولاح فى عينيه شرود .

وعاد سكون يسيطر على المكان ، وأخذوا يتبادلون النظرات و لم ينبس أحدهم بكلمة ، ثم نهضت علية وقالت :

— هيا يا عمى ، انتهى ميعاد الزيارة .

فقام محمود أفندى ووقف ينظر إلى ابنه وقد تحركت فى جوفه مشاعر الحب ، وقالت علية وهى ترنو إليه فى هيام :

— سننتظرك يوم الخميس لنحتفل بشفائك .

وصافحاه وخرجا ، وما إن غابا عن عينيه حتى شرد بصره . وانطلق ذهنه إلى بيت خالته فخفق قلبه واستيقظت فى جوفه مشاعر الغرام . رأى هدى ترقب وفوده فى شوق والوقت ينقضى دون أن يقبل فيمشى القلق فى صدرها ويدثرها الضيق ، حتى إنها تهم بأن تسأل خالته عنه فيعقد الخجل لسانها ،

فأحس فؤاده يرق ، ورآها وهى تنصرف بعد أن تيأس من إقباله وهى مطأطئة الرأس يخيم على كهف صدرها ظلام أشد حلكة من الظلام الذى يلف الطريق الذى تضرب فيه ، فأشفق عليها وملئت جوانحه حنانا وتمنى لو أن له جناحين يطير إليها الساعة ليكفيها ما ستقاسى من أشجان .

١٣

وقف محمود أفندى وزوجه فى النافذة انتظارا لمقدم ولدهما ، وكانا كلما أقبل ترام من العباسية اشرأب عنقاهما واتسعت عيونهما وطفقا يتفرسان فى الهابطين وفى جوفيهما جناح يرفرف ، وكانت الأم تلتفت إلى زوجها بعد أن يمر الترام دون أن يهبط منه ابنها الذى ترقبه فى تشوف وقلق وتقول :

ــ قلت لى إنه قادم اليوم ؟

فيقول فى صوت خافت :

ــ أجل .

ــ ولكنه لم يأت إلى الآن ؟

ــ لم يحن أوان وفوده بعد .

ــ لو طاوعت قلبى لخرجت أبحث عنه .

ــ إنه لم يتأخر .

ــ أواثق أنت أنه سيأتى اليوم ؟

ــ وما الذى يعوقه عن الحضور ؟

ــ لعل كسره لم يجبر .

ــ قلت لك إننى رأيته سليما يوم الاثنين ، غادر المستشفى .

ــ ولماذا لم تأخذنى معك ؟

ــ لم تكن حالته تستدعى ذهابك .

ــ بل خشيت أن أراه وهو ..

— يا ليتني أخذتك معي وأرحت نفسي .

— وما الذى يتعبك ؟ أنت هادئ أهدأ من الماء فى وعاء بينما النار تأكل أحشائى .

وتميز غيظا ، ولكنه صمت وكبت إحساساته ، ووقف الترام فراح يرصده فى لهفة ، ولم ينزل منه حسين فتضايق واربد وجهه ، وخشى أن تفطن زوجه إلى ما اعتراه فتسلقه بلسانها فجاهد ليبدو هادئا مطمئنا .

وجعلت الأم تتلفت فى قلق وتقول :

— ترى أين أنت الآن يا بنى ؟

وتصرم بعض الوقت وهى تبدى وتعيد وهو صامت يتحلم ، ولمح ابنه قادما فقال فى نشوة كأنما انتشل من الغرق :

— ها هو ذا قد أقبل .

ومدت بصرها فلما رأته تطلق وجهها وطغت إحساساتها فراحت تمور فى شدة ، وتبعته بنظرها فلما دلف إلى البيت هرولت إلى السلم تنتظره فى لهفة ، ورأته أمامها فخفق قلبها فى عنف وبسطت ذراعيها وضمته إلى صدرها وقد ابتلت عيناها بالدموع .

وقاموا إلى الغداء ، وأخذ يتحدث ويقص على أمه ما وقع له وأمه تصغى إليه بحواسها ، ورفع الطعام ودخل غرفته وخلا بنفسه فخطر له أن يذهب الآن إلى دار عمه يشكر علية على زيارتها له فى المستشفى حتى لا يتأخر عن الذهاب فى المساء إلى خالته للقاء هدى ، ولكنه لم يحس حماسة لذلك الخاطر فأعرض عنه وشرع يفكر فى اللقاء المرتقب .

لم يطق أن يمكث حتى إدبار النهار فارتدى ثيابه وخرج إلى الشارع الذى تقطن فيه هدى ، وجعل يغدو ويروح أمام دارها يقلب عينيه فى النوافذ والشرفات وقد أرهفت حواسه ، كان يطمع فى أن تراه فتهرع للقائه فيهدأ قلبه الملهوف .

وظل يذرع الطوار وصدره حقل لمشاعر اللهفة والشوق والقلق . وفكر أكثر من مرة فى أن يقتحم الدار ويطرق بابها يلتمس مقابلتها فيستريح قلبه المفعم بالصبابة ، ولكنه لم يقدم على إنفاذ ما دار فى رأسه بل راح يقطع الطريق جيئة وذهوبا تعابثه الآمال .

وبدأ الليل يرخى شعره الأسود الفاحم يحجب وجه النهار وهو يصوب عينيه إلى مدخل الدار ، ولمحها تنساب فى الطريق بقامتها الفاتنة فاشتد وجيب قلبه وتدفق الدم حارا فى عروقه ، ووسع من خطوه ليلحق بها تهزه نشوة ، حتى إذا أصبح على قيد خطوات منها تمهل فقد تذكر أنها تفزع من محادثتها أمام الناس .

وراح يقفو أثرها ، فلما عرجت إلى الطريق الساكن الذى يخيم عليه الظلام هتف فى رقة :

— هدى .

فالتفتت إليه مشرقة الوجه واندفعت صوبه وفى عينيها بريق حلو ، وقالت له فى حرارة :

— حمدا لله على سلامتك ، شغلنى نبأ إصابتك .

فقال لها وهو يرنو إليها فى وله :

— وأضنانى حرمانى رؤيتك .

فغضت من بصرها وأطرقت وأصاخت إليه لتلتقط همساته. واسترسل فى حديثه :

— يا طالما آنسنى طيفك فى وحشتى ، ما كان يغادرنى فى الليل أو فى النهار .. فى مثل هذه الساعة من يوم الخميس جعلنا نتناجى أعذب مناجاة ، تمنيت لو منحنى الله جناحين أطير بهما إليك لأجنبك ما قد يعتريك من قلق .

فقالت وهى مطأطئة البصر :

— علمت بما أصابك يوم الثلاثاء .

— كيف ؟

— كنت فى زيارة خالتك ، وما أن قعدت بعد مصافحتها حتى قالت لى إنك سقطت عن ظهر جوادك فاضطربت ، وزاد فى اضطرابى أننى فطنت إلى أنها حزرت ما بيننا .

— ليس بيننا يا هدى ما نخشى أن نعلنه ، قلب هفا إلى قلب ، ما أعذب أن تتآلف القلوب .

— انتابنى قلق وهم وقعدت ساهمة ، وخشيت أن تلحظ خالتك كآبتى فاستأذنت وانصرفت ، وخلوت إلى نفسى وفكرت فى الذهاب لعيادتك واستولى علىّ ذلك الخاطر واستبد بى ، وجاء يوم الخميس فخرجت وأنا مضطربة وركبت الترام مسلوبة الإرادة . وانطلقت فى الطريق الواصل بين شارع العباسية وكلية البوليس وأنا مأخوذة ، فلما دنوت من باب الكلية جعل قلبى يقفز حتى يكاد يطير من صدرى ويهبط حتى يصل إلى قدمى ، وانتبهت إلى نفسى وخيل إلى أننى استيقظت من الحلم الذى كنت فيه فشعرت برهبة وخوف ، فدرت على عقبى وأغذذت السير فرارا من الخاطر الجرىء .

فقال لها عاتبا :

— لماذا نكصت وحرمتنى أسعد ساعات الوجود ؟

— كاد خجلى يقتلنى .

— آه لو جئت .. كنت ذهبت إلى الجواد الذى كبا بى وغمرته بقبلاتى .

وبلغا دار خالته فلم يعرجا عليها ظلا يضربان فى الطريق الهادئ الذى دثره الليل بثوب أسود ، لا يهتك سواده الأضواء الخافتة المنبعثة من مصابيح واهنة تلفظ أنفاسها فى خفوت .

ولمس كتفه كتفها وملأ عبيرها خياشيمه ، فغمغم وهو مفعم بالنشوة :

— ليت هذه اللحظة تدوم .

وسارا صامتين ينعمان بالسعادة التى غمرتهما ثم قال :

ـــ هدى أشتهى أن أراك غدا .

فقالت فى صوت خافت :

ـــ أين ؟

ـــ فى أى مكان يروقك ، ولو كان فى القمر .

فشردت ببصرها قليلا ثم قالت :

ـــ لا أدرى لماذا أخشى أن أقابلك فى النهار ، بيت العزم على أن ألقاك يوم تواعدنا على اللقاء فى حديقة الحيوان ولكن ما أشرقت الشمس حتى تقوض عزمى وخارت قواى . لم يسبق لى أن حادثت أحدا فى الطريق لذلك يخيل إلى أننى إذا قابلتك سيصوب الناس إلىّ نظراتهم المتهمة ، وإنى لا أحتمل نظرات الاتهام .

ـــ هدى ! ما هذه الأوهام ؟

ـــ إننى أخشى الناس .

ـــ اطمئنى ، سنذهب غدا صباحا إلى السينما ونتقابل هناك فى الظلام .

وكانا قد بلغا الطريق العام الذى فضحت مصابيحه المتألقة فحمة الليل وحولته إلى نهار فخفف من خطوه ، وانتظر أن تودعه هدى وتنطلق وحدها فرارا من أعين الناس ولكنها ظلت إلى جواره تسير دون أن تفزع ، فشعر بنشوة تغمره وتدغدغ حواسه .

١٤

ارتدت علية ثوبا من ثيابها الفاخرة ، وجلست أمام المرآة تصفف شعرها الذهبى وتديم النظر إلى صقال المرآة ترنو إلى حسنها ، حتى إذا اطمأنت إلى روعتها قامت تخطر فى الحجرة بقوامها الممشوق البديع وذهبت إلى الردهة الخارجية تنتظر قدوم حسين بعد مغادرته المستشفى ، فقد كان اليوم يوم الخميس .

ألقت برأسها الجميل إلى الوراء واسترخت فى مقعدها الوثير وضيقت عينيها الزرقاوين وراحت تقطع الوقت بالتأملات ، فألفت حسينا فى خيالها يقبل بقامته الطويلة ووجهه الذى يحاكى وجوه الأطفال يعبث فى شاربه الأصفر الغزير ، فتهرع إليه تحييه فى شوق تضمه إلى صدرها وتلثمه فى حنان .

وتحركت فى جوفها إحساسات الحب الفوار فلجت فى تصوراتها مشرقة النفس متفتحة الآمال ، فرأت حسينا يضع كفيه على خديها ويرنو إليها بعينيه الواسعتين السوداوين وفيهما هيام ، ويدنو منها ويلثمها فى شوق وهو يغمغم فى وجد :

ـــ أحبك .. أحبك يا علية .

فتبادله القبلات وتقول وهى تحس كأن نارا تتدفق إلى وجنتيها ورأسها :

ـــ كنت يا حسين روحى على الدوام .

فتسرى فيها موجة من الرضا ، وتقوى عين خيالها فترى الصور الحبيبة إليها فى جلاء ، إنه يضع يده فى جيبه ويخرج علبة مكسوة بالمخمل الأحمر ويفتحها ويتناول منها خاتما ذهبيا ، ويأخذ أصبعها بيده فى حنان ويلبسها خاتم الخطبة

وقد افتر ثغره عن ابتسامته الوديعة ، فشعرت وهي في مقعدها بقلبها يدق دقات الفرح ، وفاضت منابع النشوة حتى ملأت جوانحها وطفت على صفحة وجهها الرائع الجميل .

واسترسلت في تصوراتها فألفت حسينا يأخذها من يدها ويذهب بها إلى حيث يجلس أبواها وهو فرحان ويريهما الخاتم في إصبعها وهو مشرق الوجه ، فتقوم أمها إليها وتضمها إلى صدرها الحنون وتلثمها في وجنتيها ودموع الفرح تترقرق في مقلتيها ، وتغمغم في انفعال :

ـــ مبارك ، هذا أسعد يوم في حياتي .

ويتقدم أبوها إليها ويقبلها في جبينها قبلة أودعها حبه ثم يتقدم إلى حسين ويمسكه من كتفيه وينظر إليه وفي عينيه فرح ، ويقول له في نبرات متهدجة :

ـــ يسعدني أن تكون زوجا لعلية ، إني أبارك هذا الزواج .

وقال حسين وهو يحدجها بنظراته الحارة :

ـــ لا أدري كيف أطيق أن أصبر الشهور الباقية .

واستغرقت في تخيلاتها فراحت تنعم بمشاعر البهجة ، وسمعت وقع أقدام فأفاقت إلى نفسها ونظرت فرأت إجلال مقبلة ، فاعتدلت في مقعدها ووجهها ينطق بالبشر والسعادة ، وجاءت إجلال وحيتها وهي تقول :

ـــ لا بأس من أن أصافحك ولو أنك لست في انتظاري .

فقالت علية في مرح :

ـــ ما كنت أنتظر غيرك .

ـــ ما الذي يدعوك إلى انتظاري وما أنا بفارس تهفو إليه قلوب العذارى ؟

فقالت علية وهي تبتسم :

ـــ سواد عينيك .

فقالت إجلال وهي ترمقها بطرف عينيها :

ـــ أو شاربي الأصفر .

فأشرق وجه علية وقالت :

— إجلال اعقلى .

فقالت إجلال فى فزع تمثيلى :

— أعقل ! لست كبيرة إلى هذا الحد ، لا زلت طائشة .

— وستظلين طائشة .

فرفعت إجلال أكف الضراعة ، ومدت بصرها إلى السماء وقالت فى ابتهال :

— اللهم أدم علينا نعمة الطيش .

فقالت علية فى إنكار :

— عليك وحدك ..

— ما الذى يفزعك هكذا ؟

— أخشى أن تكون أبواب السماء مفتحة فيستجيب الله دعاءك .

فقالت إجلال وهى تغوص فى مقعدها وتضع ساقا على ساق :

— يا ليت ! الطيش والشباب توأمان ، فإذا دام الطيش دام الشباب .

وأخذا يتحاوران وتصرم الوقت ، وبان فى وجه علية قلق وأخذت تلتفت إلى الباب بين لحظة وأخرى ، وفطنت إجلال إلى ما اعتراها . فقالت :

— ما بال حسين قد تأخر ؟

فقالت علية تطمئن نفسها :

— لا بد أن يأتى ، دعوته لنحتفل بشفائه وقد علمت أنه خرج من مستشفى الكلية يوم الاثنين .

واستأنفا ما كانا فيه من حديث وشردت علية مرات ، خطر لها أنه لن يأتى فقد انقضى من الليل ساعات ، فانتابها ضيق وأقبلت على إجلال تحادثها لينقشع ذلك القلق الذى احتل صدرها ، ولكن هيهات فقد أخذ القلق يتكاثف ويتكاثف حتى ضاق به جوفها فشعرت كأن جمرة نار وقفت فى حلقها ،

وقنطت من مجيئه فقالت فى أسى :

— لن يجيء اليوم .

فقالت إجلال وهى تنهض :

— لعله لا زال يقاسى من أثر السقطة .

وانصرفت إجلال وبقيت علية وحدها فريسة لأفكارها التى راحت تضنيها ، احتلت ذهنها مشاهد ذلك اليوم الذى ذهبوا فيه إلى القناطر فرأت نفسها وهى قاعدة فى الزورق إلى جواره وهو مغرق فى الصمت . لم يقلقها صمته فى ذلك اليوم ، فيا طالما جلس إليها دون أن ينبس بكلمة ، ولكن ذكرى ذلك اليوم تجعلها تضطرب فى مقعدها ، خيل إليها الساعة أن حسينا الذى كان معها فى الزورق يختلف عن ابن عمها الذى عاشت معه سنين عمرها ، إنها لترى كأن حائلا قام بينه وبينها .

وسرح خيالها إلى يوم ذهبت لعيادته ورن فى أذنيها ما دار بينهما من حديث :

— ألا تدرى يا حسين لماذا سقطت عن ظهر حصانك ؟

— لا .

— لأنك لم تزرنا يوم الخميس .

وتذكرت الصمت البغيض الذى ساد المكان فجرى الدم حارا فى عروقها وشعرت بعرق الخجل ينبثق من جبينها وسرت فى بدنها رعدة . إن حسينا لم ترقه دعابتها ، فلو أنها راقته لعلق عليها ولما صمت ذلك الصمت المطبق الذى جرح كبرياءها .

وعجبت لنفسها كيف لم تفطن إلى ذلك الفتور الذى انتابه فى الأيام الأخيرة ، انطفأ ذلك البريق الذى كان يتألق فى عينيه كلما رنا إليها وران على وجهه هدوء يختلف عن هدوئه السابق ، هذا هدوء المعرضين وذاك هدوء القلقين الذين يحتمل فى صدورهم إحساسات نابضة بالحياة .

واستبدت بها أفكارها فراحت مشاعر الحزن تزمجر فى جوفها وتعصف بها ، ولم تستطع أن تحتمل هواجسها التى راحت تحز روحها وخزا إليما فقامت إلى المعزف تعزف لحنا حزينا وما انبعثت الأنغام حتى هيجت شجونها فترقرق الدمع فى مقلتيها فأحست كأن قطرات من الماء البارد انسكبت على النار المندلعة فى أحشائها .



وتحركت فى جوفها إحساسات الحب الفوار ، فلجت فى تصوراتها

١٥

راح يتمشى أمام دار السينما ، وينقل عينيه فى الوافدات والواقفات فى الردهة وينظر فى ساعته ويتلفت ، كان يتلهف على حضورها ويخشى أن يحول خجلها بينها وبين موافاته فى الميعاد ، وراح ينقل قدميه فى ملل ويغدو ويروح فى قلق وقد غلفت صدره رهبة تبدت فى نظراته الحائرة .

وخطر له أن يشترى تذكرتين حتى إذا جاءت دلفا إلى السينما دون أن يقفا معا فى عرض الطريق أمام الناس ، فاتجه إلى الشباك وما أن بلغه حتى نكص على عقبيه وراح يتلفت ، خشى أن يشترى لها تذكرة ثم لا تجىء .

وجعل يجوس خلال الواقفين فى الردهة ويحملق فى الوجوه ، وانتابه ضيق ولكنه لم يقنط فلا زال أمل مجيئها يرفرف بين جنبيه.وسار قليلا فى الطريق المنتظر أن تقبل منه ثم قفل عائدا واتجه إلى الشباك واشترى تذكرتين .

ووقف يترقب مرهف الحواس يمد بصره الحديد إلى نهاية الطريق ، ولمحها قادمة فتفجرت فى نفسه ينابيع السعادة وأحس خفة وهم بأن يذهب إليها يقابلها ، ولكنه كبح جماح نفسه وجعل يتبعها بنظره خافق الفؤاد . ودنت منه فلما لمحته أشرق وجهها بابتسامة عذبة ، فتطلق وجهه وتحرك ليصافحها فى حرارة ، فلما أومأت برأسها الجميل محيية رد عليها تحيتها بانحناءة خفيفة ، وسار إلى جوارها نشوان .

وراحا يخترقان الجموع المتكدسة فى الردهة وقد طأطأت بصرها ، ولمح شبانا يتطلعون إليهما فى فضول ، فاجتاحته موجة من الغضب سرعان ما هدأت وانتشرت فى جوفه مشاعر الزهو والارتياح فما جذب أبصارهم

إلا جمالها الرائع ، وما تلك النظرات المتطفلة إلا تزكية لذوقه ، إنه ولا شك محسود .

وقعدا وكتفه يلمس كتفها ، ونظرت أمامها وشرد ببصره يتمتع بالسعادة التى تفتحت فى صدره تفتح الورود لقبلات ندى الربيع ، وظلا صامتين وأراد أن يداعبها فهمس دون أن يلتفت إليها :

ـــ ماذا يحدث لو تناولت يدك ووضعتهما بين يدى ونظرت إلى عينيك الساحرتين وأخذت أسمعك حديث القلب ؟

فقالت فى حياء وقد خفضت بصرها :

ـــ أوه حسين ، الناس حولنا .

فهمس وهو يميل نحوها :

ـــ لا أرى أحدا غيرنا .

فهمست وهى تبتسم :

ـــ لا أجد مقعدا خاليا .

وتلفت حوله ثم قال :

ـــ أصبت بالعدوى .

فقالت فى لهفة فى صوت خافت :

ـــ أية عدوى ؟

ـــ أصبحت أهفو مثلك إلى الظلام .

فرفت على شفتيها ابتسامة مشرقة ووضحت غمازتاها فزادت تألقا ، فأحس قلبه يخفق فى غبطة ويمده بمشاعر حبيبة لذيذة .

وأطفئت الأنوار وساد القاعة ظلام وانبعثت الأنغام الموسيقية مجلجلة قبل بداية العرض ، فدنا منها وقال :

ـــ ها قد ردنا إلى جونا ، أتمنى لك أسعد التصورات .

وراح ينظر إلى الشاشة وهو حالم يرى ما يجرى فى خياله أوضح مما يجرى

أمام عينيه على الشاشة البيضاء . وانداحت فى صدره إحساسات شهية وحلق فى سماوات وردية من الأحلام فسربلته نشوة ومشى فيه خدر يهدهد الحواس .

وظل ينعم بسعادته الفياضة حتى إذا أضيئت الأنوار فى الاستراحة نهض وتركها وحدها وذهب إلى المقصف يشترى لها شيئا ، وأخذ يقلب عينيه فى الوجه الزجاجى للمقصف فرأى أن يشترى شيكولاته .

وفيما هو منطلق فى الردهة الطويلة قفزت إلى ذهنه صورة خفق لها قلبه فى شدة وانقبض صدره وأحس خوفا ، رأى نفسه وعلية وهما يسيران فى مسالك حديقة الحيوان يتسامران وعلية تهرع إلى بائع الشيكولاته تشترى منه قطعتين وتقدم له قطعة ، فيتناولها منها فى اضطراب .

أحس جفافا فى حلقه يسرى فى بدنه سريان الكهربا ، فخفف من خطوه حتى ينقشع ذلك الاضطراب الذى هيجه الخاطر المتطفل المقتحم لحظات الصفاء بلا استئذان ، وبقى مدة وهو يشعر بضيق يحاول أن يطرد طيف علية الذى جثم على ذهنه لا يريد براحا .

وتقدم فى بطء ، فلما وقعت عيناه على هدى ذهب قلقه وانتشرت فى صدره إحساساته الحبيسة ، وقعد فى مقعده وناولها شيكولاته غمزا وأخذ يرنو إليها فرحان .

وأطفئت الأنوار وبدأت الرواية . كانت تدور حول شاب تعرف بشقيقتين فشرع يخرج معهما إلى الحدائق ، فأحبته الأختان ولكنه شعر بحب لإحداهما فكان يبدى لها حبه ، والأخرى تتألم فى صمت .

وفى ذات يوم ارتكب جريمة قتل عن غير قصد وخشى أن يواجه القانون ففر إلى بلد ناء وأخذ يعمل حتى كون ثروة ، وأحس حنينا إلى حبيبته فبعث إليها رسالة يستدعيها ، كانت حبيبته ترقب هذه الرسالة فما إن سمعت بوصولها حتى أخذت تتأهب للرحيل ، وطفقت الأخرى تذرف دموعها فى صمت .

وفضت الرسالة وقرئت فبان الدهش فى وجوه الجميع ، كانت الدعوة للأخت التى لم يتودد إليها و لم يمنها بالزواج ، وفرحت الفتاة وأخذت تجمع حوائجها فى بشر ثم سافرت للقائه .

وقف فى المرفأ يرقب وفودها وجعل يبحث عنها بعينيه بين الجموع المحتشدة فوق سطح السفينة ، فلما وقعت عليها عيناه لاح فى وجهه حيرة ، إنه لم يستدعها ولكنه استدعى حبيبته التى خفق بحبها فؤاده ، وراح يفكر فى رسالته فتذكر أنه أخطأ فى ذكر الاسم دون أن يدرى .

وقابلها وهو حانق ولكنه كبت شعوره وعزم فى قرارة نفسه أن يعيدها على أول سفينة ، ومرت الأيام وهو يعيش معها حتى إذا حان ميعاد إقلاع السفينة كان قد اكتشف حقيقة عواطفه ، إنه يحبها هى لا أختها فأبقاها معه ، وأبحرت السفينة وهما على المرفأ يرقبانها وهى تختفى فى الأفق البعيد .

وأضيئت الأنوار وأخذ الناس يسارعون فى الانصراف ، وجلس حسين وهدى يتحادثان فى غفلة من العيون ، فقال لها :

— ما رأيك فى الرواية ؟

— لطيفة ؟

— ولكنها لا تحدث إلا فى خيال المؤلفين .

— لماذا ؟

فقال فى بساطة الواثقين :

— إنهم يعقدون مشاكل القلب ، ما من إنسان لا يعرف حقيقة عواطفه .

— قد يختلط الأمر .

— لا أظن ، ما أيسر أن نعرف من نحبهم ومن نكرههم .

ونهضا ، وسارا فى تؤدة كأنما يريدان ألا ينتهى الممر الطويل ، وبلغا الباب الخارجى فالتفتت إليه وقالت :

— إنى ذاهبة .

— وحدك ؟

— لا أستطيع أن أسير معك فى الطريق .

— مع السلامة ، وإلى اللقاء يوم الخميس .

١٦

وجاء يوم الخميس فذهب حسين إلى داره تداعبه أحلام وتملأ نفسه الأماني ، فكر طوال الأسبوع فى هدى فكانت تزوره فى شكول أججت نار الصبابة فى فؤاده ، وجعلته يعزم على أن يفاتحها فى أمر الزواج .

كانت حياة الكلية خير معوان لإذكاء نار حبه . فقد كان طيفها يحيا فى نفسه ساعات خلوته وما أكثر هذه الساعات لمن يعيش فى حيز محدود مغلق لا تتجدد مشاهده ، وكانت ترافقه فى غدوه ورواحه تفعل ما يريده خياله وتقول ما يرضى فؤاده ، فهام بها حبا لأنها من خلق هواه .

وكانت لحظات اللقاء القصيرة التى تومض فى حياته وميض البرق فى السماء خميرة أفكاره ، تربو فى ذهنه على مر الأيام وتتشعب وتتغلغل فى نفسه وهو يغذيها بروحه ، فتعمقت جذورها فى أعماقه حتى أصبحت راسخة رسوخ الجبال .

إنها تتمثل فى ذهنه فى الصور الحبيبة التى ابتدعها فكره ، ويراها فى الواقع بعين خياله فينشرح لها صدره وتهفو إليها كبده ويخفق قلبه خفقات الوله والهيام . كان يعشقها وهو لا يدرى عشق الفنان لتحفة بديعة من خلقه لا تقع عينه منها إلا على الجمال .

تحلقوا حول المائدة وأخذوا يتناولون الغداء ، فأكل محمود أفندى لقيمات ثم كف عن الطعام وراح يتحدث ، فقالت له زوجه :

ـــ ألا تأكل ؟

ـــ إذا ملأت بطنى الآن تعذر على تناول العشاء .

ـــ كل وتعش عشاء خفيفا .

ـــ كيف أتعشى عشاء خفيفا وأنا مدعو عند كال .

ـــ والتفت إلى ابنه وقال :

ـــ كلمني عمك ودعانا لتمضى الليلة عندهم .

وغامت صفحة وجه حسين وأحس ضيقا ، إنه يرقب هذه الليلة الحبيبة بصبر نافد ليقابل من خفق بحبها الفؤاد .. وهذه الدعوة التى هبطت على رأسه على غير انتظار تحرمه أمانيه وتلك اللحظات الشهية التى يداعبه طيفها فى الليل والنهار ، فقال فى انفعال :

ـــ لن أذهب الليلة .

ـــ لماذا ؟

ـــ واعدت بعض أصدقائى على اللقاء .

ـــ ولكن قبلت دعوة عمك .

ـــ اذهب أنت واعتذر لهم .

ـــ كيف أعتذر ؟

ـــ قل لهم لم آت إلى البيت فى الظهر لأنى كنت مدعوا عند صديق .

فحدجه أبوه بنظرة نكراء وقال :

ـــ ما شاء الله .. تعلمنى الكذب بعد هذا العمر الطويل !

فقال حسين فى غضب وقد خفض بصره :

ـــ قل لهم ما تشاء فلن أذهب الليلة .

ونظرت أمه إليه فحزرت ما يعتمل فى صدره وخشيت أن يتطور الحديث بينهما فيكاشف أباه كما كاشفها بأنه لن يتزوج علية فتحل الجفوة التى تخشاها ، فقالت لابنها فى رقة :

ـــ قابل أصدقاءك ، ثم اذهب بعد ذلك إلى دار عمك .

فقال محمود أفندى وقد لوى شفته السفلى :

إننا مدعوون على العشاء لا على السحور .

فقال حسين فى حنق :

— لكأنما كتب على أن أمضى عمرى بين جدران الكلية وسجن الزمالك .

فنظر إليه أبوه فى دهش وقال :

— سجن الزمالك ؟! . إن أمرك عجيب إنهم يدعونك ليرفهوا عنك .

فقال حسين وهو يلوح بيده فى تبرم :

— إن خير ما يفعلونه أن يدعونى وشأنى .

— وهل كبلوك فى الحديد ؟

— هذه الدعوات المتلاحقة تقيد حريتى .

— عيبهم أنهم دللوك .

— وأنا أمقت التدليل .

فنظر محمود أفندى إلى ابنه وفى عينيه حيرة وقال له :

— ما بالك اليوم ؟

فقالت أمه :

— إنه مكدود .

وأطرق حسين ولم ينبس بكلمة .. وقام محمود أفندى وهو يعجب من أمر ابنه يتساءل عما انتابه فلا يجد جوابا .. كان يحسب أن دعوة عمه له تفرحه وتشرح صدره فإذا به اليوم يكتشف أنها ثقيلة على نفسه .. تقلقه وتجعله يفقد أعصابه .

ونهضت زوجة لتصلح ما أفسده ابنها ، فدنت منه وقالت :

— إنه مجهد .

— إنه تغير .. لم يعد حسينا الذى كان أطوع لى من بنانى .

— لا يزال كما كان ولكنه تعب .

— وماذا أقول لكمال ؟

— لا شيء . اذهب أنت وسيلحق بك بعد أن يستريح .

— أخشى أن يحرجني .

— لن يحرجك أبدا ، إنه سيذهب .

وشعرت بقلق يمشي في صدرها فقد تذكرت الحديث الذى دار بينه وبينها لما فاتحته فى أمر زواجه من علية ، وجعلت تغالب قلقها وتحاول أن تبده فى نفسها ولكنه راح ينداح فى جوفها حتى استولى عليها .

ودخل محمود أفندى غرفته ، وذهبت الأم إلى حسين وقالت له معاتبة :

— لقد أغضبت أباك .

— لا أجد سببا لغضبه . دعيت إلى العشاء ومن حقى أن أعتذر .

— ما قبل الدعوة إلا لأنه يعرف أنها تسرك ، فلابد أن تذهب معه .

— لا أستطيع أن أذهب الليلة .

— ماذا وراءك ؟

وأحس بالدم يتدفق حارا فى عروقه وبرغبة فى أن يفضى إليها بمكنون صدره ليواجه العاصفة مرة واحدة ثم يستريح ، فقال فى صوت متهدج وقد زاغ بصره وإن حاول أن يبدو هادئا :

— ذاهب للقاء خطيبتى .

فأحست كأن جدارا انهار على رأسها ، وكأن أوعية الرهبة والقلق والضيق انفجرت فى جوفها فامتزجت ، وامتقع وجهها ، ولكنها لم تشأ أن يفلت منها زمام نفسها فصمتت برهة حتى استجمعت أفكارها التى شتتها المفاجأة وقالت :

— عيبك أنك تخلط الجد بالهزل .

فقال فى هدوء :

— إنى لا أهزل .

وساءها أن يخطب دون أن يقول لها ، فقالت له فى صوت فيه رنة استياء :

— ومن خطبها لك ؟

— لم يخطبها لى أحد .

— خطبتها بنفسك ؟!

— لم أخطبها بعد ولكنى رأيتها فأعجبتنى ، وأريد أن تذهبى لتطلبى لى يدها .

فأحست راحة فما أقدم على الزواج كما حسبت دون أن يستشيرها ، وقالت وقد ردت إلى طبعها :

— اسمع نصيحتى يا حسين ، لن تجد مثل علية .

وشعر بدم حار يجرى فى عروقه وبقلبه يخفق خفقات ، وقال فى صوت خافت :

— لنها ليست لى .

— لماذا ؟

— حياتى تختلف عن حياتها ، وأريد امرأة تخدمنى لا امرأة أخدمها .

— إنك تظلمها .

— بل أظلمها لو تزوجتها ، سأرغمها على أن تضحى بحياتها الرغدة لتحيا حياتى .

— ما ألذ التضحية على قلب المحبين ، إنها تحبك .

فقال فى مرارة :

— حبها لدميتها .

— يا لقسوتك ! تحطم قلبا يهواك .

— بإحجامى عن زواجها أصون حياتها ، فهل من القسوة أن أصون حياة ؟!

— فكر جيدا ، إنك ضحية أوهام .

فكرت ووجدت فى هذا الزواج شقائى ، فإن أردتم شقائى فأرغمونى على هذا الزواج .

فأحست حنانا يملأ جوانحها فقالت فى رقة :

— إننا لا نبغى إلا سعادتك .

— سعادتى أن أتزوج من أهواها .

— لو كنت واثقة من أنها تسعدك لآزرتك بكل قواى .

— ستسعدنى ولا شك .

— وما أدراك ؟

— قلبى .

— الدليل الأعمى الذى يخبط على هواه .

— وكيف يتزوج الناس إذا لم يكن بوحى قلوبهم ؟

— يتزوجون بعد سلسلة طويلة من الاستقصاءات عن أهل العروس وعن العروس ، فالزواج ليس نزهة من النزهات .

فقال لها وهو يرنو إليها فى عطف

— ومن ذا الذى سيقوم بهذه الاستقصاءات غيرك ؟

— لو تصدرت لذلك غضب أبوك وأنا لا أريد أن أغضبه .

فقال لها وهو يلتصق بها كطفل مدلل :

— ليس لى أحد سواك .

— لو سمعت نصيحتى لما تزوجت غير ابنة عمك .

فقال فى ملل .

— أوه ، سنعود إلى ما انتهينا منه .

ولم تشأ أن تضايقه فقالت له :

— وما اسم هذه التى تريد أن تتزوجها ؟

— هدى .

— ابنة من ؟

— لا أدرى .

— أتتزوج فتاة لا تعرف أهلها ؟! .

— سأتزوجها هى لا أهلها .

— حاذر يا حسين ، لا زلت صغيرا .

فنظر إليها فى إشفاق وقال :

— لست صغيرا عن الزواج .

— صغيرا عن أن تختار بنفسك زوجة .

فقال فى اعتداد :

— وأكبر من أن أخضع لرغبات تنافى رغباتى .

وساد السكون برهة .. وأخذا يتبادلان نظرات قلقة ثم قالت :

— وأين قابلتها ؟

— عند خالتى .

— يا للمصيبة !

— ماذا ؟

— سيقول أبوك إننا زوجناك .

— إذا كنت تعلمين أنك ستكونين موضع اتهام ، فلماذا لا تعاونينى بدلا من أن تعرضى عنى وتتحملى اتهاما ظالما ؟

— لأننى لا زلت أعتقد أن علية خير زوجة لك .

فقال فى غضب وهو ينهض :

— أوه .

ودخل غرفته وأغلق عليه بابه ، وبقيت أمه مطرقة تفكر فيما دار بينهما فشعرت بقلق وحيرة ، وراحت حيرى بين ابنها وزوجها .. ابنها مقبل على أخطر ما يقدم عليه رجل ولا يجد من يهديه إلا قلبه ، فلو استمعت إلى عقلها

لذهبت إلى من يرغب فى الزواج منها ورأتها واستقصت عنها مجنبة ابنها الحبيب التردى فى هاوية ليس لها قرار ، ولكنها إذا استجابت لأمومتها أغضبت زوجها ، سيتهمها بأنها حرضته على الزواج من غير علية لأنها تكره أمها فيا طالما اتهمها بكره سنية .. وظلت مدة ككرة تتقاذفها الأيدى لا تستقر ولا تهدأ .

وخطر لها أن تفضى لزوجها بعزم حسين فتبرئ نفسها ، ولكنها خشيت أن تكون المنفاخ الذى ينفخ جمرات النار فتزيد ضرامها قبل الأوان ، فرأت أن تطوى صدرها على مناجاة ابنها لها وتنتظر الأيام ، فقد يعود إلى رشده ويقبل الزواج من ابنة عمه دون إثارة أقاويل قد تخلف فى النفوس آثارا .

وبقيت مرتعا للأفكار حتى خرج إليها زوجها فمشى فى جوفها قلق ، خشيت أن يفضح وجهها ما يعتمل فى صدرها ، ولكنه قال وهو فى طريقه إلى الباب :

— ذاهب إلى القهوة ثم إلى الزمالك ، قولى لحسين يلحق بى هناك .

وأغلق الباب خلفه ، فثارت مخاوفها وباتت تخشى ما قد يقع إذا أصر ابنها على عدم الذهاب .

ومر الوقت وهى فريسة لأفكارها التى أخذت تضنيها ، وأقبل عليها ابنها ووقف أمامها منتصبا وقال وهو يبتسم :

— هل أعجب خطيبتى ؟

فقال فى مرارة :

— حسين ! الأمر أخطر مما تظن .

— وما وجه الخطورة فى الأمر ؟

— الزواج ممن لا تعرف مغامرة يحفها أهوال .

— إنى أعرفها أكثر من نفسى .

— ستغضب أهلك :

— غضبهم أهون من شقائى .

وصمتت أمه على مضض ، وتحرك ليخرج وهى تتبعه بنظرات حائرة ، وقبل أن ينساب إلى الخارج هتفت :

— حسين .

فالتفت إليها فقالت فى نبرات مضطربة :

— لى عندك رجاء !

— ماذا ؟

— أن تذهب الليلة إلى دار عمك حتى لا تحرج أباك .

— ذاهب إلى خطيبتى ، وخطيبتى لا تقطن فى الزمالك .

١٧

راح حسين يقطع الطريق الهادئ المنساب إلى بيت خالته وهو نشوان يحس راحة لإفضائه بسر قلبه وسرورا يملأ جوانحه ، وراحت الرؤى البهيجة تطوف برأسه فخيل إليه أن وزنه قد خف وأنه ارتفع ليهيم بين الأرض والسماء .

ودلف إلى البيت وأخذ يصعد فى الدرج فى خفة الطيف وطرق الباب طرقات خفيفة تنم عن الفرح ، وما أن فتح الباب حتى دخل فى مرح ولو طاوع نفسه لصفر فى ابتهاج . ولمح خالته قاعدة بالقرب من النافذة فذهب إليها وحياها فى اشتياق ، فقالت له فى عتاب :

ـــ انتظرتك يوم الخميس لأهنئك بالسلامة واطمئن عليك ، ولكنك لم تأت .

فقال وهو يبتسم :

ـــ قابلنى بعض الأحبة فسرقنى الوقت .

ـــ ذهبت إلى الزمالك ؟

فشعر بخفقة فى جوفه سرعان ما انقشعت فقد بددتها بهجته ، فقال :

ـــ لم أذهب إلى هناك من أسابيع .

وأطرق برأسه ، ورنت إليه خالته رنوة فلمحت البشر فى وجهه فرأت أن تتبسط معه فقالت له :

ـــ لم تأت هدى يوم الخميس الفائت كأنما كنتما على اتفاق .

فنظر إليها فرأى فى عينيها صفاء ، فرفت على شفتيه ابتسامة لطيفة وقال :

ـــ ما رأيك فيها ؟

— لم أر منها شيئا أنكره .

فقال فى حماسة :

— إنها فتاة رائعة تختلف عن فتيات اليوم .

وسمع طرق على الباب فقالت خالته وهى مشرقة الوجه :

— ها هى ذى قد أتت ، لم تخلف الميعاد .

وأقبلت هدى فى ثوب من الحرير المشجر أبرز جمال تكوينها ، وصففت شعرها الأسود فى عناية فبدا وجهها فاتنا جذابا ، وما وقع بصرها على حسين حتى أشرقت عيناها الواسعتان بابتسامة ، وفطنت الحاجة إلى النظرات الوالهة فتشاغلت عنها لحظة ثم قالت :

— لم يرك أحد يوم الخميس .

فقالت هدى وهى مطأطئة البصر :

— جاءنا ضيوف شغلونى عن الحضور .

فنظرت الحاجة إلى حسين وقالت :

— ضيوف أعزاء .

ونهضت تعد لهما شيئا تقدمه وتخلى لهما الجو ، وما غابت عنهما حتى شعر حسين بمشاعر تمور فى جوفه فالتفت إلى هدى وقال :

— هدى !

— نعم .

— أحبك .

فأسبلت عينيها وانبسطت أساريرها ولاحت على وجهها أمارات الابتهاج ، فأخذ ينظر إليها تتجاوب فى جوفه زغاريد النشوة ثم قال :

— هدى ..

فافتر ثغرها عن اللؤلؤ المنظوم وقالت فى رقة :

— نعم .

ـــ أريد أن أفضى إليك بخبر هام .

ـــ قل ، كلى آذان .

فتلفت حوله وقال :

ـــ لا أستطيع أن أتحدث هنا ، سأنتظرك فى الطريق .

وصمتا وعيونهما تتناجى ، وجاءت الحاجة تحمل صينية صغيرة عليها صحفة بها جوافة وكوب ماء ، فتناول حسين واحدة واعتذرت هدى ، فقالت الحاجة لحسين وهى تبتسم :

ـــ قل لها أن تأخذ واحدة .

فغضت هدى بصرها حياء ، والتفت حسين إليها وقال وهو يدفع إليها بواحدة :

ـــ تفضلى .

فأخذتها وراحت تقضمها فى صمت ، وأخرج حسين ساعته ونظر فيها فقالت له خالته :

ـــ ماذا وراءك ؟

ـــ موعد مع صديق .

ونهض مستأذنا وانصرف ، وبقيت هدى تتلفت وتتململ فى جلستها ، ولاحظت الحاجه قلقها فقالت لها فى رقة :

ـــ اذهبى ، إنه ينتظرك .

ودهشت هدى ونظرت إلى الحاجة بعيون زائغة ، ولكنها قامت وصافحتها وانصرفت وهى تغذ السير لتلحق بمن يرقب هبوطها نافد الصبر خافق القلب مرهف الحواس .

ووقفت على وصيد الباب ومدت بصرها فلمحته قادما إليها ، فانسابت إليه فى خفة وانطلقا معا فى الظلام ، وأحس اضطرابا يلفه فصمت حتى إذا أفرخ روعه قال :

ـــ ماذا يقول أبوك يا هدى لو رآنى أطرق بابكم غدا ؟
فقالت فى بساطة والابتسامة العذبة تتوج فمها الدقيق :
ـــ سيقول لك تفضل .
ـــ فأقول له : جئت أطلب يد ابنتك ، فماذا يقول لى ؟
فصمتت و لم تحر جوابا فقال فى رجاء :
ـــ ماذا يقول يا هدى ؟
فقالت فى صوت خافت يشى بالفرح :
ـــ تشرفنا .
ـــ ما أسعدنى لو كان الأمر بهذه البساطة .
ـــ وماذا تظن أنت ؟
ـــ سيقول لى : دع بطاقتك من فضلك حتى نسأل عنك .
ـــ وماذا فى ذلك ؟
ـــ إن ذلك يضايقنى .
ـــ لماذا ؟
ـــ لأننى لا أملك بطاقة فلا زلت طالبا لم أتخرج بعد .
فضحكت هدى وقالت :
ـــ من أعلمك أنك ستقابل أبى إذا طرقت بابنا ؟
ـــ فمن سأقابل إذن ؟.
ـــ قد يكون أبى غائبا فتقابلك أمى .
ـــ فماذا تقول أمك إذا قلت لها إننى جئت أطلب يد ابنتها ؟
فقالت هدى فى انشراح :
ـــ تقوم وتقبل خديك .
واجتاحتهما موجة من الغبطة فراحا يتبادلان النظر وقد غابا فى نشوتهما عن الوجود ، وتذكر أن أمه سألته عن أهلها فألفى الفرصة سانحة ليعرف

ما يريد ، فقال لها :

— ما اسم أبيك يا هدى ؟

— إسماعيل السرورى موظف بمصلحة المساحة .

وبلغا الطريق العام الغارق فى النور فصافحته ، فقال لها وهو يضغط على يدها فى هيام :

— مع السلامة ، وإلى اللقاء قريبا فى داركم .

* * *

انبجست مشاعر النشوة فى جوفه فشغل بسعادته عما حوله فلم يعد يرى إلا هدى التى فجرت ينابيع صفوه ، إنه يلمحها أينما يولى وجهه بابتسامتها المشرقة التى تبدد ظلام نفسه وتجذب روحه وتناغى حواسه .

وسار الهوينى يستذكر ما جرى بينه وبينها وقلبه يرقص بين ضلوعه فى وله كسكران استخفه الطرب ، وظل ينعم بألذ المشاعر وهو فى شبة غيبوبة حتى إذا دنا من بيته أفاق إلى نفسه ، فرأى أن ينطلق بعيدا يسعد بإحساساته وبالتصورات الحبيبة التى راحت تتوافد إلى رأسه .

وذهب إلى محطة الترام ووقف وهو مشغول بالرؤى الشاعرية التى تجرى فى ذهنه ، فلما أقبل الترام صعد فيه وهو غارق فى أفكاره ، وانطلق الترام وهو شارد البصر غائب فى أحلام يقظته .

ولاحت لعينيه أعمدة جسر أبى العلا كأشباح تتراقص ، وصفحة النيل الهادىء الغارق فى فوف من ضياء القمر كصقال مرآة ، ووقف الترام فنهض دون أن يدرى وهبط منه كالمأخوذ ، ولفح الهواء البارد وجهه فانتبه وتلفت حوله فى دهش ، إنه هبط دون وعى منه أمام دار عمه .

وسرى فى جوفه قلق وخفق قلبه فى جنون وزاغ بصره وعلته حيرة ، فوقف لا يدرى ماذا يفعل ، وخطر له أن يلبى دعوة عمه حتى لا يغضب أباه فتقدم فى بطء تلفه رهبة ، وما إن بلغ الباب الخارجى حتى دار على عقبيه

وهرول مبتعدا ، فقد هجس فى نفسه هاجس راح يؤنبه ويتهمه بالنفاق فولى فرارا .

وراح يرنو إلى الضوء المتلالىء فى الدار فأحس كأن يدا تعصر فؤاده ورجفة تسرى فى بدنه ، وتسمر فى مكانه بعيدا ، وتحركت فى جوفه رغبة الانطلاق إلى بيت عمه ولكنه أخذ يجاهد ليئد هذه الرغبة التى أقلقته ، وجاء الترام فقفز فيه وقعد وهو يزفر فى شدة .

وانساب الترام يهتك السكون بضجيجه وعجيجه وهو مطأطىء البصر مضطرب ، وانقضى بعض الوقت ولم يفرخ روعه ، كانت صورة بعينها تحتل أقطار رأسه فتضنيه ، لم تكن صورة أبيه العابسة الثائرة المزمجرة بل صورة علية وهى مطرقة وقد انتشرت فى صفحة وجهها سحائب من الأسى والحزن .

١٨

دلف محمود أفندى إلى الردهة فقابلته علية متفتحة كوردة ترتدى ثوبا من ثياب السهرة ، فبدا جيدها الناصع البياض كأنما صنع من مرمر مشرب حمرة . يفوح منها أريج حلو ملأ أنفه ، وتقدمت إليه وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وقالت وفى عينيها فرح :

ـــ أهلا عمى .

فقال فى صوت خافت :

ـــ أهلا علية .

وسارت إلى جواره رشيقة حتى دخلا غرفة الاستقبال ، وما إن جلسا حتى قالت له فى نبرات شحنت رقة :

ـــ كيف حال حسين الآن ؟

فشعر بموجة من الأسى تجتاحه ومشت فى جوفه رهبة ، وقال :

ـــ بخير . الحمد لله .

ـــ لم نره بعد أن خرج من المستشفى .

فقال وهو مطرق :

ـــ والله لا أدرى ما الذى يشغله هذه الأيام .

وأحست قلقا ، وأرادت أن تطمئن نفسها فقالت :

ـــ لم يبق على نهاية السنة إلا أسابيع ، إنه على أبواب امتحانات .

وجاءت إجلال ، فلما لمحت محمود أفندى ذهبت إليه وصافحته ، وأدارت عينيها فى المكان كأنما أنكرت شيئا ثم قالت :

— وأين حسين ؟

فقال محمود أفندى وهو ينظر إليها نظرات قلقة :

— سيأتى بعدى .

وثارت مشاعر الخوف فى صدره ، إنه يخشى أن يركب حسين رأسه ولا يأتى فيحرجه ، ولزم الصمت حتى إن إجلال أنكرت صمته فقالت :

— ما بال عمى اليوم ساهما ؟

فقال فى ارتباك :

— أحس وعكة .

وأقبلت سنية هانم وجلست تشاركهم الحديث ، وما انقضى بعض الوقت حتى التفتت إلى محمود أفندى وقالت :

— وأين حسين ؟

فقال وقد خفق قلبه وسرى فيه اضطراب :

— سيأتى بعد قليل .

وجاء كمال بك وكان يرتدى حلة أنيقة والدم يكاد يفر من خديه ، فلما لمح أخاه اتجه إليه وهو يقول مداعبا :

— مرحبا بأخى الشيخ .

وتأهب للمساجلة الظريفة التى ستدور بينهما فتملأ الجو مرحا ، ولكن محمودا ابتسم ابتسامة خفيفة ولم يحر جوابا وساد المكان صمت ، ونظر كمال إلى أخيه وقال :

— أين حسين ؟

فانتابه قلق وقال فى ارتباك :

— كنت فى القهوة وجئت منها إلى هنا ، سيأتى عما قليل .

وقال كمال بك ملمحا إلى شيء فى نفسه :

— لم يبق عليه إلا بضعة أسابيع ثم يصبح ضابطا بحق .

فقال محمود أفندى :

ـــ إنه يخشى أن يعين فى مركز من المراكز النائية .

فقال كمال فى ثقة :

ـــ لا يخش شيئا .

وقالت إجلال وهى تبتسم :

ـــ البركة فى عمى كمال بك يعينه فى نقطه الزمالك .

وضحكت سنية هانم ، وابتسم كمال بك فى اعتداد ، وتغير لون محمود أفندى . أما علية فقد رنت إليها رنوة تنطق فى وضوح : « اعقلى » .

وسمع وقع أقدام فى الخارج فمد محمود أفندى بصره فى لهفة وهو يرجو أن يكون القادم حسينا ، ولكنه لمح الخادم مقبلا وبين يديه صينية فانقبض وأخذ يتلفت وهو حيران ، وراح الوقت يمر وانتابهم فتور وكثرت فترات الصمت ولم يجئ حسين ، فأحس محمود أفندى بالغضب يستبد به والحنق يضغط صدره حتى يكاد يكتم أنفاسه ، ولاحظ أمارات الملل على الوجوه فرأى أن يخرج من ذلك الضيق الذى أرهقه ، فلم يجد أمامه إلا أن يلوذ بتلك الكذبة التى لقنه إياها حسين فقال :

ـــ الظاهر أن حسينا لم يعلم بأمر هذه الدعوة ، لم يأت فى الظهر لأنه كان مدعوا عند صديق ، وقد قلت لأمه تقول له ليلحق بى فلعله لم يذهب إلى البيت حتى الآن .

ونظرت إجلال إلى علية فألفت مسحة من الكآبة ارتسمت على وجهها ، ونهض كمال بك وهو يقول :

ـــ هيا نتناول عشاءنا .

وقاموا إلى المائدة فى تثاقل ، محمود أفندى يحس قهرا ، وعلية تشعر بوخزات تخز روحها ، وإجلال ترمق علية فى إشفاق . إنها حزرت يوم كانت فى الزورق معهما أن حسينا يهرب من علية ، وأن ما حزرته فى ذلك اليوم

أصبح حقيقة واضحة كفلق الصبح . دعته يوم زارته فى المستشفى إلى حفلة تقيمها له بعد إبلاله ابتهاجا بشفائه ولكنه غادر المستشفى و لم يفكر فى زيارتها ، ودعته الليلة لتقضى على الهواجس التى بذرت بذور الشك فى نفسها ولكنه لج فى هجره .

وراحوا يتناولون الطعام لا يسمع إلا أصوات الملاعق والشوك والسكاكين وأحاديث مقتضبة بين سنية هانم وكمال بك ، و لم تأكل علية إلا النزر اليسير ، ولولا الملامة ما جلست إلى المائدة لحظة ، وراح محمود أفندى يزدرد الطعام كأنما يزدرد جمرات من النار .

وفرغوا من الطعام فعادوا إلى غرفة الاستقبال ، و لم يطق محمود أفندى أن يمكث فى ذلك الجو الذى ساد المكان فاستأذن وانصرف وفى صدره ثورة وغضب . وقام كمال بك وسنية هانم وغادرا الغرفة .

وأطرقت علية وفى وجهها أسى ، وأخذت إجلال تنظر إليها وقد هاجت شجونها وساءها أن يمزق فؤادها ولما يتفتح للحياة ، وأرادت أن تسرى عنها فدنت منها وقالت لها :

ــ لعله يتأهب للامتحان .

فقالت علية فى نبرات حزينة :

ــ لا يا إجلال ، أصبح يفرمتّى .

ــ لا تدعى مثل هذه الأوهام تتسلط عليك .

ــ ليست أوهاما ، هى الحقيقة بعينها .

ــ علية ، لاتجسمى تصوراتك .

ــ خدعتنى أحلامى و لم أصح إلا على صفعات الواقع الأليم. لم يأت لزيارتى قبل أن يكبو به حصانه فأخذت ألتمس له المعاذير،فلما أصيب برضوض هرعت إليه خافقة القلب وداعبته فلم يستجب لدعابتى ، ودعوته وانتظرته فلم يأت وتركنى فريسة الشكوك .. وراح قلبى يعذبنى فدفعت أبى إلى دعوة عمى ودعوته وها هو ذا يعرض عنى ويلقى فى وجهى بالحقيقة

السافرة : إنه لا يريد أن يرانى .

فقالت إجلال فى إشفاق :

— لا يا علية ، هذه تخيلات . .

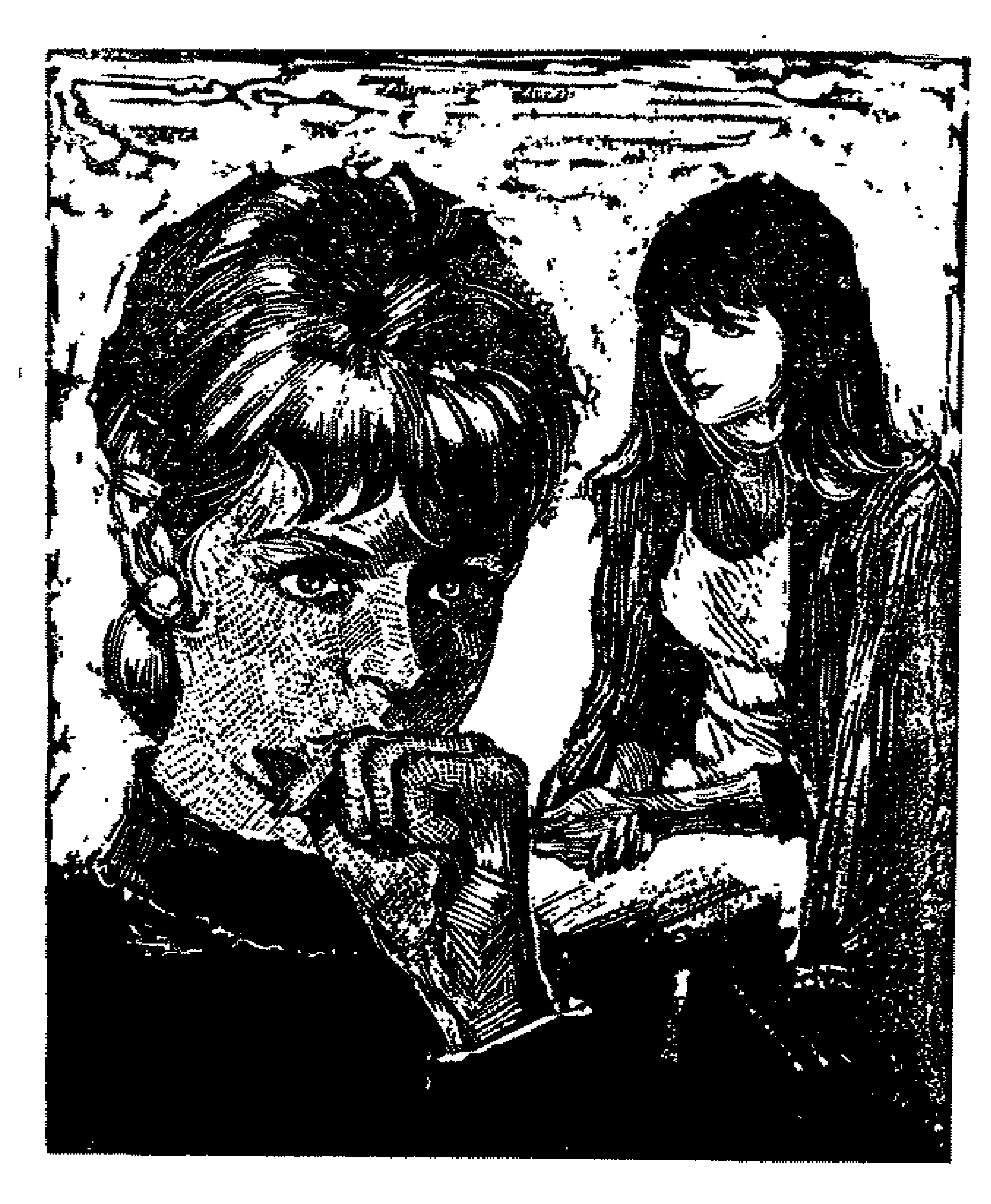
— ألم تلحظى تبدل عمى ؟ ألم ترى تلك الكآبة التى رانت عليه ؟ . عمى المرح يفقد مرحه ودعابته ويتكلم وهو زائغ البصر ، لماذا ؟

فقالت إجلال فى رثاء :

— هدئى من روعك ولا تفكرى فيه .

فقالت علية فى يأس :

— ليت أمر قلبى بيدى .



وأطرقت علية وفي وجهها أسى ، وأخذت إجلال تنظر إليها .

١٩

دخل حسين على أمه وهى جالسة بالقرب من النافذة تقطع الوقت بمشاهدة الغادين والرائحين . فلما سمعت وقع أقدامه نظرت إليه وراحت تفحص عنه فى إمعان كأنما تحاول أن تقرأ ما فعله فى ليلته ، ولاحظت أنه يتحامى أن تقع عيناها على عينيه فسرى فى صدرها قلق وحزرت أنه لم يذهب إلى دار عمه فانقبضت وقالت له فى عتاب :

ـــ لم تذهب ..

وأحس غلالة رقيقة من الاضطراب ترفرف فى جوفه ، ورأى أن يمزق ذلك الاضطراب قبل أن يتمكن من نفسه فقال وهو يبتسم :

ـــ ذهبت إليها .

فقالت فى كدر :

ـــ إلى من ؟

ـــ خطيبتى .

ـــ أغضبت أباك .

واسترسل فى حديثه كأنما لم يسمع قولها :

ـــ وقلت لها إنك ذاهبة لزيارتها يوم الخميس القادم .

فقالت فى إنكار :

ـــ أنا ؟! مستحيل .. لن أذهب إليها أبدا .. ماذا يقول أهلك ؟ .

ـــ وماذا يهمك من أهلى ؟ سعادتى أبقى من مجاملة جوفاء .

ـــ حسين .. إننا عشنا العمر الطويل نرقب يوم زواجك لتتم بهجتنا ، وإذا

بك تعمل على تقويض حلم من أحلامنا العزيزة التى طالما داعبتنا .

ـــ والله أمركم عجب ! كنتم تتمنون زواجي .. وهاأنذا أتزوج ، فما الذى تبدل ؟! عروس اخترتموها لى وعروس اختارها قلبى .. إنكم تريدون سعادتى لا سعادة غيرى .. فماذا يهمكم من أمر العروس ؟

ـــ نريد زواجا يلم الشمل لا زواجا يوقع البغض والنفور .

ـــ أنا أدرى الناس بحقيقة شعورى، إننى أعمل على أن أجنبكم متاعب فى المستقبل ، أمن الخير أن أتملقكم وأتزوجها ثم أعيش فى جحيم لن ينتهى إلا بتمزيق أواصر الأسرة ؟ أم أتزوج من أهواها وأجرحهم جرحا طفيفا سرعان ما يندمل ؟

فقالت أمه فى صوت عميق :

ـــ جروح القلوب لا تندمل ، ستغرس فى قلوبهم بيدك المقت البغيض .

ـــ سرعان ما ينسون .

ـــ هيهات أن تنسى المرأة من طعن كبرياءها ، علية لن تنساها أبدا .

ـــ إنها تستطيع أن تتزوج من هو خير منى .

ـــ لن تنسى هذه الإهانة ولو تزوجت أميرا .

ـــ هل من الإهانة أن أدعها حتى لا أحطم حياتها ؟

ـــ هذه تعللات تبرر بها تنكرك إياها لن يصدقها أحد .

ـــ بل هى الحقيقة .

ـــ فى نظرك وحدك ، حتى أنا لا أصدقها .

ـــ صدقوها أو لا تصدقوها ، لن أتزوج إلا من نبض بحبها قلبى .

ـــ لن أستطيع أن أكتم عن أبيك عزمك ، سأقول له كل شيء .

ـــ وقولى له إننى ذاهب إلى أهلها يوم الخميس القادم لأطلبها منهم .

وتحرك ليغادر الحجرة فغمغمت فى أسى :

ـــ يا لبختى الذى مال ، كنت أطمع فى أن تكون ليلة زفافك من ليالى

العمر السعيدة فإذا بك تجعلها نكدا وبكاء .

وغاب فى غرفته ، وشرد ذهنها وسرى فى جوفها اضطراب ، و لم تشعر بحزن لأن ابنها لن يتزوج ابنة عمه ولكنها أحست رهبة مما قد يقع بينه وبين زوجها ، باتت تخشى أن يثور زوجها ثورة عاتية وأن يقابل حسين ثورته بتمرد فيتصدع كيان الأسرة ويفترق الأب والابن على خصام ، ولا يكابد غيرها نار الفراق .

وراحت تفكر فى أن تكسر حدة زوجها وأن تلقى على نار غضبه ماء باردا ، لا ليوافق على زواج ابنه من غير ابنة أخيه فما كان لها أن تطمع فى ذلك ، بل لكيلا يحتدم النقاش بينهما حتى يبلغ حد النفور والانفصال ، إن همها أن تبقى الأسباب موصولة لتدوم لها هناءتها . فشبح القطيعة بات يؤرقها ويقض مضاجعها .

وسمعت طرقا متتابعا فنهضت وقلبها يرجف ، وحاولت أن تبدو هادئة فوقفت خلف الباب لحظات تستجمع قواها ثم فتحته فألفت الغضب يتطاير من عينى زوجها ، فتعامت عن غضبه وابتسمت له ، ولكنه دخل كعاصفة ثائرة مزمجرة وراح يهدر :

ـــ أين حسين ؟ لماذا قلت لى إنه سيحضر ؟ لماذا تضعوننى فى ذلك الموقف الحرج ؟ لولا أنك أكدت لى ذهابه لا عتذرت لهم أول ما قابلتهم ولجنبت نفسى ذلك الخجل الذى كان يعترينى بين لحظة ولحظة . والله لا أدرى لماذا لم يلب دعوتهم ؟ ولماذا يبدى ذلك النفور وتلك القطيعة ؟ إنه تغير ، تبدلت أحواله ، أصبح حسينا آخر .

وخطر لها أن تفضى إليه بسر ابنها وهو فى ثورته ، أن تجبهه بالأمر فيرغى ويزبد مرة واحدة ، وتندلع نار غضبه وتأكل بعضها ، فإذا قابل ابنها فى الصباح لم يكن فى صدره إلا رماد ، فقالت فى هدوء :

ـــ إنه لا يريد أن يتزوج علية .

بهت واتسعت حدقتاه وقال مأخوذا :

— هذا عبث أطفال ، إنها مخطوبة له .

— إنه يحتج بأنه لم يخطبها .

— تتابع زيارته لها دليل رضاه وتوكيد لهذه الخطبة ، إننى لا أقبل هذا العبث أبدا ، أين هو ؟

— نائم ؟

— نائم يغط فى نومه مخلفا لنا النكد والمتاعب ، لا بد من أن يتزوج علية .

— إننا لا نملك أن نرغمه أن يتزوج على هوانا .

— لا بد أن يتزوجها .

— لا يمكن أن يجبرك أحد على أن تأكل ما لا تشتهيه .

— يا طالما أرغمونى على شرب الدواء لأن فيه شفائى ، سأرغمه على الزواج منها لأنى أعتقد أن فيه صلاحه ، هل يطمع فى أن يجد خيرا منها ؟ علية جميلة مهذبة غنية ، إنها أفضل منه .

— أمر قلوبنا ليس بأيدينا ، لا نستطيع أن نرغمها على أن تتعلق بهذا وتنفر من ذاك ، إنها مجنونة ليس لنا عليها سلطان ، حسين معذور خرج أمره من يده .

فحدجها بنظرة شزر وقال :

— وماذا جرى له ؟

— أحب ، وسيتزوج بمن خفق بحبها قلبه .

— ومن التى طيرت عقله ؟

— لا أعرفها . قال لى إنها هدى بنت إسماعيل السرورى .

— وأين قابلها ؟

فقالت فى ارتباك :

— لا أدرى .

— وأين سيقابلها إلا فى الطريق ، لن أوافق على أن يتزوج ابنى من فتاة من الشارع .

— خير لنا أن نسير معه فى طريقه نستقصى له ونرشده ، من أن ندعه وحده يخبط فى الظلام .

— لن أسير معه فى ذلك الطريق المعوج أبدا ، هذا طيش شباب لا بد من أن يقوم .

— إنه ذاهب بنفسه لخطبتها يوم الخميس القادم .

فقال فى غضب شديد :

— ما شاء الله ! تم كل شيء فى غفلة منى لتضعونى أمام الأمر الواقع ولكن لا ، والله لو تزوجها لأذهبن إلى الكلية أبلغها أنه طالب متزوج ، فيكون مآله الطرد والتشريد .

شعرت بغصة وبرهبة تسرى فى بدنها ، وقالت بصوت متكسر :

— إننا نهدم ابننا بأيدينا .

— وهو يمزق أواصرنا بعبثه ، ماذا أقول لأخى بعد هذه السنين الطويلة ؟

— نبصرهم بأعذار حسين ومخاوفه ، نقول لهم إنه يرى فى زواجه من ابنتهم خفضا لها ، وأنه يتوارى من حياتها ليحفظ لها عيشتها الهانئة السعيدة .

فقال فى زراية :

— أتحسبين هذا القول يرضى أخى ويشرح صدره ؟! إن فى نكوص حسين عن الزواج من علية بعد أن ذاع نبأ خطبتهما تجريحا لهم .

— ماذا نستطيع أن نفعل الآن ؟

فقال فى إصرار :

— ينبغى أن يتم هذا الزواج .

٢٠

وتمدد فى فراشه وراح يتقلب فى قلق و لم تغمض له عين ، كانت الأفكار تتضارب فى رأسه وتتصارع ، إنه يتمنى أن يتزوج ابنه من ابنة أخيه ليسود الأسرة سلام ، ويرجو من كل قلبه أن يسعد ابنه فى حياته الجديدة التى يهم أن يضع قدمه على أولى درجاتها وهو حيران ، وود صادقا أن يهتدى إلى ما فيه صالح حسين .

وأخذ يستعرض علية فى خيالة فألفاها خير فتاة تصلح لوحيده ، فوطن على أن يبذل ما فى طوقه لإقرار ذلك الزواج ، وما استقر على ذلك واطمأنت إليه نفسه وبدأ النوم يمس جفنيه حتى همس فى جوفه هامس يشككه فى حكمه ويتهمه بأنه يميل مع هواه ، فما أدراه أن الأخرى ليست أوفق لابنه من ابنة أخيه. إنه يعرف علية ويحبها ولكنه لم ير الثانية ولا يعرف عنها شيئا ، فكيف يقارن بين من يعرف ومن لا يعرف ؟ لعل حسينا معذور كما قالت أمه ، وجد الغريبة أوفق له من ابنة عمه فمال إليها وتعلق بها فؤاده .

وعادت الأفكار إلى رأسه تتلاطم وهو حيران لا يدرى مع أيها يميل ، إذا رجح كفة علية خشى أن يكون متأثرا فى حكمه بعواطفه ورغباته ، وإذا رأى أن يسير على هوى حسين خشى أن يكون ابنه مخدوعا بعاطفة كاذبة تطفو على سطح قلبه كالحبب على سطح الكأس سرعان ما تندلح .. وتقلب فى فراشه فى ضيق وهو يحس شعور السائر على حبل منصوب فى الهواء ، وقد ازدحم ذهنه بأفكار متنافرة متناكرة تحاول كل منها أن تقضى على الأخرى لتنفرد وحدها على مسرح رأسه ، ولكن هيهات !.

وبقي فريسة لأفكاره حتى دب الخور فى أوصاله وغلبه النوم ، فراح فى سبات دون أن يطمئن إلى فكرة بعينها يعمل على إنفاذها فى عزم وإصرار ، ومضى الليل بأحلامه وآلامه ، وأقبل النهار فنهض من فراشه وذهب إلى غرفة الجلوس وقد قلعت عن صدره ثورته العاتية ، وانتشرت فيه رهبة وحيرة .

وجاءت زوجه تتفرس فى وجهه لتستشف خبيئة نفسه فلمحت قلقا فى عينيه فخفق قلبها فى اضطراب ، وجلست تنتظر ما يسفر عنه لقاء ابنها وزوجها وهى تبتهل إلى الله فى صمت أن يمر ذلك اللقاء بسلام .

وفتح باب غرفة حسين ، فرنت إليه رنوة ثم نقلت عينيها إلى وجه زوجها فشعرت بقلبها يتنزى رهبة .. أربد وجهه وضاقت عيناه واعتراه انفعال يفضح الثورة الهائجة فى جوفه .

نظر محمود أفندى إلى ابنه وهو قادم نحوهما فشعر برغبة فى أن يفاتحه فى الموضوع الذى شغله طوال ليلته . ولكنه كبح جماح نفسه ولزم الصمت ، وجلس حسين ولم ينبس بكلمة فساد الحجرة سكون وإن كانت الصدور تضيق بالمشاعر الدافقة الفائرة .

والتفت محمود أفندى إلى حسين وقال :

— ماذا وراءك هذا الصباح ؟.

فقال حسين فى صوت خافت :

— لا شيء .

— تأهب لنخرج معا .

وساد الصمت ثانية وسرى القلق فى الصدور ، الأم قلقة لأنها كانت تفضل أن يدور النقاش أمامها حتى تلطف من حدته إبقاء على كيان الأسرة، والابن بات يخشى الخلوة بأبيه ، والأب لا يدرى حقيقة عواطفه .

ونهض حسين يرتدى ثيابه وهو غارق فى أفكاره .. وقد وطن النفس على أن يصارح أباه بمشاعره وأن يعمل على استمالته واستغلال أبوته ، فخير له أن

يكسب قلبه من أن يوغر عليه صدره .

وانسل محمود أفندى وحسين من الدار صامتين والأم ترقبهما وفى صدرها جناح حمامة يرفرف . صارت ترهب ما قد تسفر عنه هذه النجوى ، وانطلقا وقد أطرقا دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وبلغا ميدان الحسينية وعرجا على طريق هادئ ساكن ، ورأى محمود أفندى أن يبدأ الحديث فقال :

— قالت لى أمك أنك تريد أن تتزوج فتاة قابلتها فى الطريق .

— بل قابلتها فى بيت محترم .

— وأين قابلتها ؟

— عند خالتى .

— وماذا تعرف عنها ؟

— فتاة طيبة . من أسرة محافظة .

— من قال لك ذلك ؟

— لم يقل لى أحد ، ولكنى عرفت ذلك بنفسى .

فقال محمود أفندى فى استخفاف :

— قال لك قلبك !

فقال حسين فى حماسة :

— أجل .. قال لى قلبى .. وما كان قلبى يخدعنى .

— تريد أن تتزوجها لأنك تحبها ؟

— نعم .

— وتعتقد أنك لن تسعد إذا تزوجت غيرها ؟

— نعم .

— إنى لا أبغى إلا سعادتك ، وإنى أقول لك إن الزواج السعيد ليس من مستلزماته أن يبدأ بحب عنيف ، بل دلت التجارب على أن الزواج الذى يبنى على حب جارف سرعان ما ينهار .

فحدجه حسين بنظرة فيها إنكار ، فقال له فى ثقة :

— لا تنظر إلىّ هكذا ، هو الواقع ، وقد كابدت ما تكابده الآن .

فنظر إليه بعينين واسعتين لاح فيهما الدهش ، وقال أبوه فى هدوء :

— كنت فى مثل سنك ووقعت عيناى مصادفة على فتاة من جيراننا فخفق قلبى فى شدة ، ولازمنى طيفها فى الليل والنهار وداعبتنى أحلام ، وترادفت رؤيتى لها فزادت نار الحب ضراما وبت أعتقد أن لا حياة لى بدونها ، وكاشفت أمى بما أحسه قلبى والتمست منها أن تطلب لى يد التى سلبت لبى ، فلما أفضت إلى أبى برغبتى رفض أن يوافق على زواجى من فتاة لا يعرفها . ولج فى الرفض فانتابنى الهم واعتقدت أن مآلى البوار ، وزوجونى أمك ولم أرها إلا ليلة الجلوة ، وألفتها على مر الأيام وأحببتها حبا صادقا وتقضت أيامنا هنية سعيدة ، وتبخر ذلك الوهم الذى استبد بى كما يتبخر الندى إذا لمسته شمس الصباح .

فقال حسين فى حرارة :

— ولكنى أحبها من أعماق قلبى .

— ليست قوة خفقان القلب دليل عمق الحب ، إنه الشباب ، وإن ما تحسه نزوة من نزواته .

— إننى عازم على الزواج منها استجابة لعقلى وفؤادى .

— هذا وهم خادع ، ففى مثل سنك سرعان ما يخضع العقل للفؤاد .

— لست غرا ولست ممن يجرون وراء عواطفهم ، وزنت الأمر فوجدتها أوفق فتاة لى .

— وبماذا فضلتها على علية ؟

— زواجى علية مآله الإخفاق ، قد تسعد شهورا ثم تنبلج لنا الحقيقة المرة ، حقيقة اختلافنا فى المشارب والأهواء .

— وكيف فطنت إلى ذلك ؟

— من معاشرتى الطويلة لها .

— إية معاشرة ؟ إن ما تعرفه عنها قشور ، معدن المرأة الحقيقى لا يعرف إلا إذا وضعت فى بوتقة الاختبار .

— إننى لا أرضى أن أنزلها من نعيمها لتحيا معى فى الشقاء .

— إنها تهفو إلى ذلك الشقاء الذى يفزعك أن تهبطها إليه ، فما ألذ أن يكافح فى الحياة حبيبان .

— قد تنعم بهذه اللذة شهورا وأعواما ثم تنقشع الغشاوة عن عينيها فتجد نفسها تجد فى أثر سراب .

— تخشى أن تفجعها الحقيقة إذا خلقت الأحلام ومشى البلى فيها ؟

— هذا ما يقلقنى ويطير النوم من عينى .

فنظر إليه أبوه نظرة فاحصة ، وقال له فى صوت عميق :

— إنك تهواها .

فاضطرب حسين كأنما وجه إليه اتهام ، وقال ليدفع هذه القريبة فى حماسة :

— لا ، لا تحاول أن تخدعنى ، إننى أدرى الناس بعواطفى ، لم ينبض قلبى بحبها نبضة .

— حسين إننى لا أبغى إلا سعادتك ، كنت قد وطنت النفس على أن أدعك تفعل ما تشتهيه ، ولكن بعد أن أيقنت أنك تحبها لن أسمح لك أبدا أن تحطم نفسك .

وأحس حسين دماءه الحارة تتدفق فى عروقه فقال فى حدة :

— استدرجتنى فى يسر لتدخلنى المصيدة فى غفلة منى ، ولكن لا لن أصيخ إليك ، إنك تريد أن تنفذ غرضك على أشلائى ، ليس همك سعادتى بل همك أن ترضى أخاك على حساب عواطفى ، إننى أنا الذى سأتزوج وأنا الذى أختار من أتزوجها .

— لن أدعك تتخبط كالأعمى فى الظلام ، إننى أراك على شفا هاوية ولن أتركك تتردى فيها .

— إننى أدرى الناس بمواطئ قدمى .

— لا زلت صغيرا فى حاجة إلى من يأخذ بيدك ويقيل عثراتك .

— لست قاصرا ولست فتاة ، وإنما أمرى بيدى أفعل ما أريد وأتحمل نتائج أفعالى .

— أتريدنى أن أنظر إليك مكتوف اليدين وأنا أراك فى لحظة من لحظات الطيش تحطم فى رعونة آمالنا وآمالك ؟!

— تشفق من أن تنهتك الأحلام التى نسجتموها فى السنين الطوال . أما سعادتى فليس لها حساب .

— والله لا أضع نصب عينى إلا سعادتك ، وسعادتك فى الزواج من علية .

— غاية سعادتى أن أتزوج منأهواها .

— إذن تتزوج علية .

— أنا وحدى الذى أعرف حقيقة عواطفى ، سأتزوج من يهفو إليها كبدى .

فقال محمود أفندى فى حدة :

— إذا ركبت رأسك فلا تلومن إلا نفسك ، نصحتك وأخلصت لك النصح .

وصمت حسين وظلا يجرجران سيقانهما وهما مطرقان ، ودثرهما السكون والقلق الحائر ، واستمرا فى صمتهما حتى إذا اقتربا من البيت قال محمود أفندى :

— إذا اخترت أن تسير فى طريقك المعوج فستسير فيه وحدك حتى النهاية .

وصعدا فى الدرج وفى وجهيهما شجن ودلفا إلى مسكنهما ساهمين ، راحت الأم تنقل عينيها بين ابنها وزوجها فى حيرة ولهفة وتلاقت عيناها بعينى حسين فغض من بصره وانطلق إلى غرفته وأغلق عليه بابه ، وسار محمود أفندى إلى حجرته وصفق الباب خلفه ، فانهارت الأم على مقعد قريب مبهورة الأنفاس ، وعلا وجهها سحائب من الكدر والحزن فقد حزرت كل شىء .

٢١

انقشع الغضب الذى ران على صدر حسين ولفته راحة ، فقد كشف لأبويه عن عواطفه المذخورة التى كان كتمانها يضنيه ، و لم يقلقه عدم موافقة أبيه على تزويجه ممن يهواها فما كان ينتظر أن يربت أبوه على كتفه لما يعلم أنه سيهجر ابنة عمه ليتزوج غيرها .

وفكر فيما جرى بينه وبين أبيه من جدال فألفى أباه قد سايره فى هدوء ، كان يتصور ذلك المشهد قبل أن يقع فيرتجف ، فما كان يرى أباه إلا ثائرا صاخبا مزمجرا ويرى نفسه متضائلا أمام ثورته العاتية ، أما الآن وقد انقضى ما يخشاه فقد سرت فى صدره طمأنينة . إن أباه لم يوافق على زواجه من هدى ولكن ذلك لم يعد يقلقه فالأيام كفيلة بجبر ما انصدع ، سيجد أبوه نفسه يوما أمام الأمر الواقع فيغضب ويحنق ويبالغ فى الغضب والحنق مراعاة لشعور أخيه وسرعان ما يقلع غضبه وتنمحى نقمته ليحل محلها حنانه الدافق ، إنه يحبه وما أيسر نسيان إساءات من نحب .

وافى ميعاد الغداء فجلس ثلاثتهم إلى المائدة صامتين كأنما كانوا ثلاثة غرباء جمعتهم المصادفة إلى مائدة من الموائد لا يجدون ما يقولون ، وراح حسين يتناول طعامه وهو خافض البصر بينما كان صدره صافيا صفاء السماء فى يوم من أيام الصيف ، وأخذ محمود أفندى يمد يده إلى الصحاف وهو شارد اللب يفكر فى موقفه من أخيه بعد أن يبلغه خطبة ابنه لفتاة غير ابنته فتعاف نفسه الطعام ، ويتجرع الماء ليسيغ اللقيمات الواقفة فى حلقه ، أما الأم فكانت تنقل بصرها بين ابنها وزوجها فتحس جمرات من النار تلسع قلبها .

وغادر حسين المائدة وذهب إلى غرفته وأخذ يرتدى ثيابه ، وأحس حركة بالقرب منه فالتفت فألفى أمه ترنو إليه فى قلق وتقول فى نبرات مضطربة :

— إلى أين تذهب الساعة ؟

فقال فى هدوء :

— سأزور صديقا قبل أن أتوجه إلى الكلية .

وخطر لها أنه ذاهب لزيارة هدى فقالت فى توسل :

— حسين ، فكر فيما أنت مقدم عليه ، تريث .. إنك تقوض هناءتنا .

— فكرت وأمعنت الفكر فوجدت أننى أفعل ما يفعل كل رجل ، من حقى أن أتزوج من أطمئن إليها فأنا الذى سأعاشرها العمر الطويل .

— أغضبت أباك .

— أيغضبه أننى أبحث عن سعادتى ؟ أيرضيه أن أستكين له وأتزوج على هواه زيجة لن تعمر طويلا ؟ أقول لكم إنى إذا تزوجت علية فلن أعيش معها شهرا واحدا . حرام عليكم أن تحطمونا معا .

وأرادت أن تتكلم ولكنها لم تجد لسانها ، عقله ما استولى عليها من حيرة ، وجعلت تنظر إليه وقد رنقت عيناهابالكدر ، وانسل من جوارها فى خفة وخرج .

وسار فى الطريق خافق القلب ، حتى إذا بلغ دار خالته زاد وجيب قلبه وراح يصعد فى الدرج متمهلا ، كان يفكر فيما دفعه لزيارتها قبل ذهابه إلى الكلية ، ويرتب أفكاره وينمق عباراته حتى تنفذ إلى قلبها .

ودخل عليها فنهضت تصافحه وقد لاح الدهش فى وجهها ، كان بالأمس عندها و لم يعتد أن يزورها فى مثل هذه الساعة ، وقعد صامتا برهة يستجمع أفكاره ثم قال :

— جئت إليك فى أمر هام .

فاتسعت حدقتاها وقالت :

— خيرا .

— عزمت على أن أتزوج هدى وقد طلبت من أمى أن تذهب لتطلب لى يدها ولكنها رفضت حتى لا تغضب أبى وجئت ألتمس منك أن تخطبيها لى .

فقالت فى صوت خافت :

— آسفة لا أستطيع .

فقال فى توسل :

— ليس لى أحد غيرك .

فقالت فى نبرات متهدجة :

— هذا يغضب عمك .

— وماذا يهمك من أمر عمى ؟ أفهم أن تحجم أمى حرصا على شعور أبى ، أما أن تغضبينى إرضاء لعمى فهذا ما لا أفهمه .

فأطرقت برهة وغام وجهها بسحائب من الكدر ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— لا يا حسين ، لا أستطيع .

فرنا إليها فى ذهول وقال :

— لماذا ؟

فنظرت إليه فى شرود ، وقالت فى صوت كأنما كان منبعثا من واد سحيق :

— كنت مخطوبة على عمك ودامت خطبتنا سنتين ، ثم فسخها ليتزوج من ستية هانم ، فإذا طلبت لك يد هدى حسبوا أننى أثأر لما نالنى .

فأطرق قليلا ثم قال :

— هذا يهون الأمر .

فقالت فى إنكار :

— أتحسب أننى أغتنم هذه الفرصة لأجرحهم كما جرحونى ؟ لا يا حسين ، إننى لا أفعل ما فعلوه .

— لا أقصد ذلك ، بل أقصد أنه ما دام عمى قد خطب ثم فسخ خطبته ليتزوج من سنية هانم فإنه سيعذرنى .

فقالت وهى تهز رأسها :

— أنت واهم فلن يعذرك لأنك فعلت مثله ، إنه يرضى عن فعلته ويسخط على ما فعلته .

فقال فى استدراك :

— لم أفعل مثله ، إنه خطب ثم نكص ولكنى لم أخطب ابنته .

— كان من المعروف أنها لك .. حسين ، ابنة عمك أولى بك .

— لا أحب أن أخدع نفسى ، لم أخلق لها و لم تخلق لى .

وصمتت قليلا ثم غمغمت :

— الغلبة للنصيب .

ونظر إليها فى استعطاف وقال :

— لن تذهبى لتطلبى لى يدها ؟

— أعفنى . .

فقال فى عزم :

— سأذهب لأخطبها بنفسى .

* * *

الساعات تمر بطيئة ، إنه ينتظر بصبر نافد يوم الخميس ليذهب إلى أهلها يخطبها منهم ، النهار يتصرم وهو غارق فى أحلام يقظته ، والليل ينقضى وهو ينتقل من حلم إلى حلم ، حتى إذا استيقظ فى الصباح لم يستطع أن يتذكر ما رآه فى نومه .

وفى يوم من أيام الأسبوع قعد فى فراشه يتمطى وهو يستقبل نسائم

الصباح . ووقعت عيناه على زميله فألفاه يرنو إليه وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ، فنظر إليه فى استغراب فاعتدل زميله ومال إليه وقال :

— من هى علية ؟

فاضطرب وأحس دمه يتدفق حارا فى عروقه ، وقال فى صوت مخنوق :

— لماذا ؟

— استيقظت فى الليل على صوتك وأنت تنادى فى لهفة : « علية ! علية » .

فقال وقد أشاح بوجهه :

— آه .

وراح يقدح ذهنه ليتذكر ما رآه فى ليلته ، فلم يتذكر إلا أنه رآها ثائرة وتركته غاضبة وهو يناديها وهى منطلقة لا تلوى على شىء .

٢٢

راح يجوس خلال الغرفات وقد شرد بصره وبان فى وجهه انشغال البال ، وذهب إلى غرفة الجلوس وقعد . وسرعان ما قام واتجه إلى الشباك ومد منه بصره ، ثم ذهب إلى الشرفة ووقف يتلفت ، ولم يدم وقوفه طويلا فقد عاد إلى غرفة الجلوس وغاص فى مقعد وأطرق رأسه وأخذ يعلو وراء ما يجرى فى رأسه من أفكار .

وفطنت أمه إلى قلقه فجعلت ترقبه وقد انتشر فى وجهها اضطراب ، حزرت أنه مقبل على أمر ذى بال ، وفكرت فى أن تذهب إليه تستدرجه ليفضى إليها بخبيئة نفسه ، ولكنها أحجمت خشية أن تثير فى ذلك الجو الهادئ هدوءا مريبا ، زوابع تقتلع الطمأنينة النازلة فى جوفها على حذر تنتظر أول بادرة لتولى الفرار .

كان اجتماعهم اليوم حول المائدة يسوده التحفز والتحفظ ، الأب ينتظر أن ينبس ابنه بكلمة فى أمر زواجه ليعاود تحذيره من الإقدام على الزواج من فتاة غير ابنة عمه ، فقد فكر طوال الأسبوع وأتعبه فكره ، والابن أطبق فمه فقد عزم على أن ينفذ ما استقر عليه رأيه فى صمت حتى لا يثير متاعب لن يكون لها أثر إلا تكدير النفوس وتحريك الأشجان قبل الأوان ، والأم تترجح بينهما لا يشغلها من الأمر إلا نفسها . إنها ترجو أن تمر العاصفة على أى وجه دون أن تخلف شقاقا بين الأب والابن حتى لا تقاسى مرارة الفراق . وانفض اجتماعهم وما تبادلوا إلا كلمات مقتضبة ، فأحست الأم راحة وإن كانت راحة ليس لها قرار .

ودخل غرفته وراح يرتدى ثيابه فى عناية ويمرر أصابعه على شاربه الأصفر الغزير ويديم النظر إلى نفسه فى المرآة ، والأم ترقبه وفى جوفها قلق . وراودتها فكرة استدراجه فلم تستطع أن تتغلب عليها فذهبت إليه ووقفت صامتة برهة ثم قالت :

— إلى أين ؟

فقال وهو يصلح هندامه :

— خارج .

فقالت وهى تبتسم لتخفى ما يعتمل به صدرها :

— كأنك ذاهب للقاء عروس .

فقال وهو ينظر إليها فى المرآة :

— هذا حق ، إنى ذاهب للقاء خطيبتى .

— عند خالتك ؟

— لا فى بيتها .

— حسين ؟

— ماذا ؟

— تريث .

— تريثت وفكرت وقلبت الأمر ، وهذا هو قرارى .

وأرادت أن تتكلم ولكنها خافت أن يتطور الحوار إلى جدل يسرى إلى مسامع زوجها فيقبل يريق على الحديث نارا فتندلع ألسنة الشقاق الذى تشفق منه وتخشاه ، فالتزمت الصمت وانسل من جوارها وخرج .

وسار فى الطريق وقلبه يدق وخياله يسبقه ، حتى إذا بلغ دار هدى وقف يستجمع قواه ويهدئ أعصابه الثائرة ويمد بصره إلى النافذة لعله يلمحها فيشد ذلك من أزره ، ولكنه لم ير أحدا فتحرك ودلف إلى الدار وراح يصعد فى الدرج متمهلا مرهف الحواس ، ووقعت عيناه على لافته صغيرة من النحاس

حفر فيها « إسماعيل السرورى . مصلحة المساحة » فزاد وجيب قلبه ، ووقف أمام الباب يتلفت فى اضطراب . ومد يده إلى الجرس وضغط عليه فرن رنينا متصلا أحس رنينه فى نفسه .

وفتحت الباب فتاة صغيرة فيها كثير من ملامح هدى ، العينان السوداوان الواسعتان والبشرة السمراء النقية والغمازتان اللتان تكسبان الوجه روعة ، فلما رآها أحس راحة ورفت على شفتيه ابتسامة وقال فى رقة :

— إسماعيل بك السرورى موجود ؟

فقالت وهى تحدق فيه فى استغراب :

— موجود .

— قولى له زائر يريد مقابلته .

ودخلت الفتاة وقد تركت الباب مفتوحا ، ووقف ينتظر فعاد إليه قلقه ، ومس أذنيه أصوات وحركة فزاد اضطرابه ، ولمح هدى تهرول إلى غرفة من الغرف فراح قلبه يقفز فى جوفه ، وأقبل رجل فى الخامسة والخمسين يرتدى حلة متواضعة وعلى عينيه نظارة إطارها من فضة رفيعة ، وراح ينظر إليه من تحت النظارة بعيون مضعضعة وقال فى صوت هادئ :

— تفضل .

فدخل وهو خافق الفؤاد والرجل يقوده إلى الغرفة التى غابت فيها هدى فزاد قلبه خفقانا ، فلما ولج بابها أدار عينيه فى المكان فلم يجد أحدا بل وجد فى الغرفة بابا آخر ، إنها أسرعت تصلح من وضع الأثاث على عجل ، ثم انسلت من ذلك الباب قبل أن يدخل . والتفت الرجل إليه وهو يشير إلى مقعد فى صدر المكان وقال :

— تفضل .

فقعد وأجال عينيه فألفى رياشا بسيطا ينم عن رقة الحال فهدأت نفسه وشعر بقيمته ، فاعتدل فى اعتداد وقال فى ثقة :

ـــ أنا حسين محمود طالب بكلية البوليس ، لم يبق على تخرجى إلا أسابيع قليلة .

فقال الرجل وهو يرنو إليه من تحت النظارة :

ـــ تشرفنا .

ـــ فكرت فى مستقبلى فوجدت أننى قد أعين بعيدا عن أهلى ، ولما لم يسبق لى أن عشت وحدى فقد رأيت أن أتزوج عقب تخرجى لأجنب نفسى متاعب الوحدة .

فقال الرجل فى صوت هادىء :

ـــ هذا عين العقل .

ـــ وقد رأيت الآنسة هدى عند خالتى فجئت أطلبها منكم .

فقال الرجل فى اضطراب :

ـــ هذا شرف عظيم لنا .

وكأنما فطن إلى أنه قال ما ليس من حقه ، فقام وهو يقول فى ارتباك :

ـــ لحظة واحدة من فضلك .

وانسحب الرجل وقد أغلق الباب خلفه ، وبقى حسين وحده فغاص فى مقعده وقد غمرته راحته وسكنت الطمأنينة صدره . ومرت دقائق وفتح الباب ودخل منه إسماعيل السرورى وخلفه امرأة طويلة فى الأربعين ، عيناها واسعتان وأنفها دقيق وشعرها طويل ، قد لفت سوالفها حول أذنيها كواو ، تدلى من أذنيها قرط كبير بشكل هلال أقرب لتلك الأقراط التى يتزين بها فتيات الغجر ، يشع من عينيها بريق قوى ينفذ إلى القلوب ، فلما لمحها حسين نهض وابتسم ابتسامة ترحيب ، فتقدمت منه وفحصت عنه بعينيها فى سرعة وزوجها يقول :

ـــ حسين بك محمود .. زوجتى .

وقعدوا وساد الصمت برهة ، وقالت المرأة :

ـ أهلا وسهلا .

وقال زوجها فى هدوء :

ـ جاء حسين بك يخطب هدى .

فانبسطت أسارير المرأة وقالت :

ـ أهلا وسهلا .

واعتدل حسين فى مقعده وقال :

ـ جئت ألتمس قبولى زوجا لابنتكم .

فقالت المرأة وهى ترنو إليه بنظرة فاحصة .

ـ هذا يملأ نفوسنا غبطة ، وكان يزيد فى سرورنا لو أن أحدا من أهلك شرفنا بالزيارة .

فارتبك حسين وبان عليه الاضطراب ، ولكن سرعان ما استعاد هدوءه، وقال فى بساطة :

ـ هذا الزواج ليس على هوى أهلى .

فقالت المرأة وقد ازدادت عيناها اتساعا :

ـ لماذا ؟

ـ يريدون أن يزوجونى من ابنة عمى ، وأنا لا أريد أن أتزوج إلا ممن تعلق بها قلبى .

فقالت المرأة وهى ترفع حاجبيها فى دلال :

ـ الإنسان لا ينام إلا على الجنب الذى يريحه .

ودخلت الفتاة الصغيرة تحمل صينية عليها أكواب الشراب الأحمر ، وتناول كوبا وراح يشربه فى مهل وقلبه يرقص فى صدره فرحا ، وظل إسماعيل السرورى فى مقعده صامتا كأن الأمر لا يعنيه ، ونهض حسين ليعيد الكوب إلى الصينية فأسرعت المرأة إليه وتناولته منه فقال وهو يبتسم فى إشراق :

— دائما . فى الأفراح .

— دامت حياتك .

وتحرك فى مقعده لينبههما إلى أنه يتأهب للانصراف ، وقال وقد مال إلى الأمام وأسند كفيه على مسند الكرسى :

— سأعود يوم الخميس القادم لأسمع رأيكما النهائىّ .

فقالت المرأة فى دلال :

— إننا نرحب بمن يحبنا وننزله حبات القلوب .

فتوجت شفتيه ابتسامة حلوة وتهلل وجهه الذى كان أشبه بوجوه الأطفال ، ونهض وصافح المرأة فى احترام وصافح إسماعيل السرورى فى حرارة ، وخرج من الغرفة ولمح شبح هدى وراء زجاج باب قريب فقفزت إلى ذهنه صورتها وقد أسدلت على وجهها نقابها الأزرق المفهاف ، فتدفقت دماؤه حارة فى عروقه ، وأحس كأنما سكبت فى روحه كئوسا من الخمر فامتلأ نشوة وسرورا .

٢٣

نظر محمود إلى زوجه وقد ضيق عينيه ثم أشاح بوجهه الباسر فى تبرم ، ونهض يذرع الحجرة كليث حبس فى قفص ، زوجه ترنو إليه وقد انبثق فى جوفها القلق والرهبة ، إنها تدرى سبب ثورته وترجو من كل قلبها أن تتبخر دون أن تنفجر .

واستمر يغدو ويروح ومشاعر الحنق تضيق صدره ، ولم يحتمل إحساسات الغضب التى أخذت تتضخم فى جوفه فقال وهو يصرف أنيابه :

ــ هذا عبث أطفال .

فرمته بعيون قلقة ورفرف قلبها رهبة ولم تتحرك شفتاها ، وابتهلت فى سرها أن يتداركها الله برحمته فتمر هذه الثورة كما مرت سابقتها دون أن تتمزق أواصر الأسرة ، ولج فى غضبه فراح يهدر :

ــ أحرجنى بعبثه وجعلنى أنزوى أنا الذى لم أنزو أبدا ، كلمنى كمال اليوم بالتلفون ودعانا لتمضية السهرة عنده فأخذت أعتذر وأنا أتلجلج ، كنت أشعر شعور المجرم الذى تكاد أن تنكشف جريمته ، لماذا كل هذا ؟ لأن حسينا الذى كنت أحسبه عاقلا ركب رأسه وأعرض عن ابنة عمه ليلتقط فتاة من الطريق ، لا . هذا لن يكون . لن أقبل هذه الفضيحة أبدا ، سأقاوم هذا الزواج . سأمنعه ولو كان فى ذلك تحطيمه .

فبان فى وجهها الهلع وأحست يدا قوية تعصر قلبها وراحت تتلفت بعيون زائغة ، باتت تخشى أن يدخل ابنها الآن فقد وافى ميعاد أوبته فتقع الكارثة وتنهار الأسرة على رأسها ، واستمر فى ثورته فأخذ يقول وهو يضرب كفه

بقبضته :

— سأقسو عليه .

فقالت فى صوت خافت :

— لا تتعجل ، انتظر ، قد يثوب إلى رشده .

— لا . هذا اللين أفسده .

— قد تدفعه بضغطنا عليه إلى العناد .

— سأقول له اليوم فى وضوح : إننا لا نوافق على هذا الزواج فعليه أن يختار بيننا وبينها ، فإذا فضلها علينا فلن أسمح له أن يمكث فى بيتى دقيقة واحدة ، إننى لا آوى فى دارى من يعصينى .

وتعلقت به عيناها وهو فى غدوه ورواحه وقد اضطرمت نفسها رهبة فما كانت تخشاه أصبح قريب الوقوع . إن هو إلا أن يفتح الباب ويدخل حسين حتى يجبهه أبوه بثورته ويصرخ فيه أن يفارق الدار فتقع الجفوة التى تحيل هناءتها شقاء . ورأت أن تحتال حتى توهن هذه الثورة المتأججة فى صدر زوجها فقالت :

— لا تفاتحه يا محمود فى هذا الأمر .

— لماذا ؟

— لأن كثرة الخوض فى هذا الموضوع يشجعه على المضى فيه .

فقال فى إصرار :

— لا ، لن أترك الأمر معلقا ، عليه أن يختار بيننا وبينها .

ساد المكان سكون لم يعكره إلا رنين الجرس ، فالتفتا نحو الباب وأخذ قلباهما يدقان فى اضطراب ، ودخل حسين بقامته الطويلة متطلق الوجه ، فلما رآهما قال فى هدوء :

— السلام عليكم .

واسترقت الأم النظر إلى زوجها فألفته مقطب الجبين فأوجست خيفة ،

وانساب حسين إلى غرفته وراح يبدل ثيابه ، ونهضت الأم تجهز السفرة شاردة اللب مبهورة الأنفاس .

وقعدوا يتناولون الغداء وحسين يتحدث وأمه تصغي إليه بقلبها وأبوه مطرق لا يفوه بكلمة ، ورفع الطعام ولم تهدأ نفس الأم القلقة ، إنها حزرت أن زوجها قد تريث حتى ينتهوا من الطعام ثم يفتح الموضوع الذى أصبح مسلطا عليها كسيف الجلاد .

ومر الوقت وهى فى رهبتها ولم ينبس زوجها بكلمة ، ونظرت إليه فخيل إليها أن سحائب الكدر التى رانت على وجهه قد انقشعت ، ولكنها لم تهدأ بل ظلت فى حيرتها ، ونهض زوجها ودخل حجرته وقام حسين إلى غرفته وبقيت فى جلستها تجتر مخاوفها .

وانقضت ساعة وبعض ساعة وخرج حسين يرتدى ثيابه وهو بادى التأنق يلوح فى وجهه البشر ، ودنا من أمه وقال :

— سألبسها اليوم خاتم الخطبة .

فقالت وهى تنتفض :

— لماذا تقول هذا ؟

فقال وهو يبتسم :

— لأشركك فى أفراحى .

وسار نحو الباب ، وقبل أن يفتحه التفت إليها ورفع يده إلى رأسه يحييها وأشرق وجهه وانبسطت أساريره ، فخفضت بصرها فانساب إلى الخارج وراح يهبط فى الدرج وقد ملأته نشوة .

وأقبل زوجها وأخذ يقلب عينيه فى المكان كأنما يبحث عن شىء ثم قال :

— أين حسين ؟

فقالت وقد نمت عيناها عن الخوف النازل بجوفها :

— خرج .

فعاد زوجها إلى غرفته و لم يتكلم ، فأحست كأنما رفع عن صدرها حجر ثقيل كان يكتم أنفاسها فزفرت فى راحة .

* * *

انطلق حسين يغذ السير يتحسس جيبه بين لحظة وأخرى حتى إذا بلغ دارها صعد فى الدرج ثابت الخطو ودق جرس الباب وراح يصلح هندامه ويمرر أصبعه على شاربه ، وفتح الباب فوجد أمامه هدى بوجهها الصبيح وعينيها الساحرتين الجذابتين تتطلع إليه فى ترحيب ، فأحس دبيب النمل يسرى فى بدنه وخفق قلبه سرورا وارتسمت على شفتيه ابتسامة حالمة ، وقال وعيناه تضحكان :

— إسماعيل بك السرورى موجود ؟.

ففسحت له الطريق وكانت منبسطة الأسارير يكاد الدم يطفر من وجنتيها :

— تفضل .

وسارت أمامه وهو فى أثرها يتطلع إليها نشوان ، كانت فى ثوب من الحرير الأخضر يفضح مفاتنها ، وكانت تتلفت إليه وهى فى طريقها إلى حجرة الجلوس فتشع عيناها بريقا يبهر فؤاده وينوس شعرها الأسود فى دلال فتضطرب مشاعره ، ودلفا إلى الغرفة فجلس وبقيت واقفة تنظر إليه فى فرح ، فقال لها وهو يومئ إلى مقعد قريب :

— تفضلى .

فقالت مستأذنة :

— لحظة واحدة .

وانسلت من الحجرة فى خفة الطيف وهو يتبعها بنظرات ولهى ، وغابت عن عينيه و لم تغب عن خياله فدبت الحركة فى نفسه فراح يناجيها مناجاة عذبة انتشت لها روحه ، وظل فى حلم يقظته حتى سمع وقع أقدام فالتفت فرآها



.. ونظرت إليه من طرف عينيها نظرة هزت كيانه

مقبلة ونهداها يترجرجان فى توافق ، وثغرها كهلال من الدم انفرج عن لؤلؤ نضيد ، وعيناها تنفثان سحرا ، فأحس كأنما أريقت فى جوفه دنان النشوة ، وتطلع إليها وقد لاحت فى وجهه الغبطة ، ودنت منه فملأ عبيرها الفواح أنفه ، وجلست إلى جواره فجعل ينظر إليها وهو فى غمرة من السرور .

ومرت لحظات وهما يتبادلان النظر فى صمت كان أبلغ من الحديث ، ورأى حسين أن يتكلم فقال وقد مشت فيه رهبة :

ـــ جئت اليوم أسمع رأيكم فيما عرضته عليكم . تقدمت إليكم وقلبى على كفى وهو كل ما أملك ، وأنا أطمع أن يحوز هذا القلب الخافق بحبكم القبول .

فأطرقت فى خفر ونظرت إليه من طرف عينيها نظرة هزت كيانه ، وقالت فى صوت خافت :

ـــ أمى قادمة تفضى إليك برأينا ؟

فقال فى حماسة :

ـــ أريد أن أسمعه من فمك .

فقالت وقد أسبلت جفنيها :

ـــ الكلمات تفر منى ، ليتك تستطيع أن تصغى إلى حديث قلبى .

فنظر إليها جذلان وقال :

ـــ هذا يكفينى .

ومس أذنيه حفيف ثوب فالتفت فرأى أمها مقبلة بقامتها المديدة ، كانت فى ثوب جديد بلا أكمام فبدت ذراعاها عاريتين وقد انتشرت المساحيق فى صفحة وجهها ، وصففت شعرها فى عناية فائقة وحلت جيدها بقلادة وتدلى من أذنيها قرط طويل ، وبالغت فى زينتها كأنما كانت العروس تأهبت للقاء خطيبها .

وتقدمت منهما ، فلما ألفته يتطلع نحوها قالت مرحبة فى صوت منغم :

— أهلا وسهلا .

وهب واقفا يستقبلها وصافحها والابتسامة العذبة تتوج شفتيه ، وقعدا وهما يتبادلان عبارات الترحيب ، ثم ساد الصمت وران على المكان سكون .

وراح حسين يستجمع أفكاره وقد انتشرت فى صدره أبخرة من القلق ، كان واثقا من قبوله زوجا لهدى وعلى الرغم من ذلك لفته رهبة واضطرب ، رفع عينيه وقال فى صوت متهدج :

— ماذا رأيتم فيما عرضته عليكم يوم الخميس الفائت ؟.

فاعتدلت الأم فى مقعدها وقالت وقد أخذ حاجبها يرتفع وينخفض :

— والله لقد تفتحت لك قلوبنا ، وسرنا أنك لم تحاول أن تخدعنا فرأينا أن نعطيك هدى ونحن مطمئنون .

فقال فى تلعثم والدم الحار يجرى فى عروقه :

— أشكر لكم هذه الثقة .

والتفت إلى هدى فألفاها تنظر إليه فى هيام ، فخفق قلبه وبدا على شفتيه ابتسامة عذبة وظل يديم النظر إليها وهو نشوان .

وتحسس جيبه ، ثم دس فيه يده وأخرج علبة صغيرة من المخمل الأحمر وفتحها وتناول منها خاتما ، وقام إلى هدى وقلبه يرفرف فى صدره يتألق فى عينيه بريق حلو ، وأخذ إصبعها بين إصبعيه وألبسها الخاتم وهى مطرقة فى حياء وأمها تنظر مفعمة بالغبطة ، ولو طاوعت نفسها لأطلقت فى الغرفة الزغاريد مدوية .

ارتبك حسين ولاح فى وجهه آى الاضطراب ، وفطنت الأم إلى ما اعتراه فنظرت إلى إصبع ابنتها فوجدت الخاتم واسعا ، فابتسمت وقالت فى هدوء :

— لا بأس ، نعيده إلى الصائغ ليضيقه .

وعاد إلى مقعده والخاتم بين أصابعه وقد استولى عليه ضيق ، وحزرت الأم ما يعانيه فأرادت أن ترفه عنه فقالت وهى تبتسم :

— هذا برهان على أنك لم يسبق لك أن خطبت .

فقال فى ارتباك :

— هذه أول مرة .. وآخرة مرة .

— هذا بشير خير .. إن الله سيوسعها عليكما ..

وانبسطت أساريره وظل الخاتم بين أصابعه ، وكأنما شاءت أن ترشده إلى ما يتبع فقالت له فى هدوء :

— جرت العادة أن يطلب الخطيب خاتما من خواتم العروس ليصنع خاتم الخطبة على مقاسه .

ونهضت لتحضر له خاتما من خواتم هدى فقام مستأذنا ، فقالت فى دهش :

— إلى أين ؟

— ذاهب لزيارة خالتى .

— والخاتم ؟

— سآتى غدا صباحا لآخذ هدى ونذهب معا إلى الصاغة .

والتفت إلى هدى فألفاها تتطلع إليه وفى عينيها رضا فرقص قلبه طربا ، وغادر المكان وهو مفعم بالأمل والنشوة .

٢٤

كانت الشمس تبعث أنفاسها الخافتة قبل أن تتوارى فى جوف الأرض مخلفة الظلام الثقيل ، والنسيم يهب من النيل رخاء يداعب السجف الحريرى فى الردهة الخارجية من قصر كال بك ، والمقاعد خالية إلا من الهواء الذى كان يدور كأنما يبحث عن وجوه يلمسها فى رقة لينعش الأفئدة الهاجعة فى الصدور .

كان اليوم يوم الخميس اليوم الذى طالما دبت الحياة فيه فى القصر ، ولكن السكون العميق ران على كل شيء ، فالروح السحرية التى كانت تملؤه حياة هجرته وتركته بلا روح .

وهتك ذلك الصمت وقع أقدام إجلال وهى ترق الدرج فى تثاقل مطأطئة الرأس وفى وجهها عبوس ، وسارت فى الردهة فلم تجد أحدا فما عادت علية تهبط من غرفتها لترقب قدوم حسين بعد أن لج فى الهجران ، وتلفتت فأحست وحشة وانقباضا فوسعت من خطوها وصعدت إلى الطابق العلوى وقلبها ينزف أسى وحزنا .

وقابلت خالتها فحيتها وقعدت ، وقالت لها :

ـــ أين علية ؟

ـــ لا زالت فى غرفتها .

ولزمت إجلال الصمت وشرد بصرها ولاح فى وجهها سهوم ، فنظرت إليها سنية هانم مليا ثم قالت لها :

ـــ ما بالك اليوم عابسة ؟

فقالت إجلال فى حزن .

— سمعت خبرا أحزننى .

— ما هو ؟

— بلغنى أن حسينا سيتزوج من فتاة أحبها .

فقالت سنية هانم فى ضيق :

— من قال لك ذلك ؟

— صديقة من صديقاتى .

فبان فى وجه سنية هانم القهر وقالت :

— والله لأزوجنها من هو خير منه .

ونظرت إجلال إليها بعينين حائرتين وقالت فى نبرات متهدجة :

— علية تحبه .

فقالت سنية هانم فى غيظ :

— وماذا نستطيع أن نفعل ؟!

فأشاحت إجلال بوجهها وقالت فى صوت خافت :

— لا شىء .

وأطرقتا وخيم على المكان عبوس ، ومرت لحظات ثم رفعت إجلال رأسها وقالت :

— يجب ألا تعرف .

فنظرت إليها خالتها وفى عينيها حزن وقالت :

— بل يجب أن تعرف .

— سنجرعها كئوس العذاب .

— من الخير أن نجرعها الألم مرة من أن ندعها للقلق الدائم والضنى المرير .

— سنجرح قلبها .

— لا زالت صغيرة سرعان ما تندمل الجراح .

فغمغمت إجلال وقد صوبت بصرها إلى لا شيء :

ـــ هيهات .

وسمعت حركة ، فالتفتنا فألفينا علية قادمة بقوامها الممشوق وشعرها الذهبى وعينيها الزرقاوين وقد انتشرت فى صفحة وجهها صفرة ، فلما رأت إجلال ابتسمت واتجهت إليها ، فقامت إجلال تصافحها وهى تحس إبرة تخز قلبها ، وراحت أمها تتطلع إليها وفى حلقها وقدة نار .

ورحن يتحادثن فى فتور وسنية هانم و إجلال تتبادلان نظرات قلقة، وفطنت علية إلى ذلك القلق الجاثم على المكان فغاص قلبها وانتشرت الرهبة فى صدرها ، ونظرت إليهما فى تساؤل ثم قالت :

ـــ ماذا هناك ؟

فقالت إجلال فى اضطراب :

ـــ لا شيء .

ـــ بل تخفيان عني أمرا .

فقالت أمها فى نبرات حزينة وعيناها مسبلتان :

ـــ لا شيء ذا بال ، رأت إحدى صديقات إجلال حسينا فى رفقة فتاة .

فأحست علية خنجرا يطعن فؤادها ويمزقه ومشاعر الحزن تتدفق فى جوفها حتى تكتم أنفاسها ، وأخذت تنظر إليهما نظرات قلقة حائرة ، وحاولت أن تتجلد وتبدو هادئة لكن ذلك كان فوق طاقتها فبان فى وجهها الأسى والانزعاج .

وجزعت الأم لتلك الكآبة التى كست وجه ابنتها فقالت لتخفف عنها :

ـــ لعلها رأت شابا آخر حسبته حسينا .

ولكن لم يسر ذلك عن علية ، كانت غارقة فى أحزانها ، حزن قلبها ما حاولت أمها أن تخفيه فراح يدمى فى صمت ويذرف الدمع على الحب الذى كفن فى الصدر قبل الأوان .

ونظرت إليها إجلال وهمت أن تتكلم ولكن الكلمات ماتت على شفتيها ، فالحزن الذى تبدى فى وجه علية قبض قلبها وعقل لسانها ، وزفرت سنية هانم فى ضيق ثم قالت فى زجر :

— ما هذه الكآبة ؟ الأمر لا يستحق كل هذا العبوس .

وأحست علية أن مشاعرها التى تمور فى صدرها تريد أن تنطلق ، فقامت مزلزلة النفس ممزقة الأعصاب تحس ألسنة النار تلسع روحها ، وانسحبت من الغرفة وفى رأسها دوار وفى جوفها شجن .

ونهضت إجلال وانطلقت خلفها ، ودخلت عليها حجرتها فألفتها تحمل رأسها بكفها وقد شردت ببصرها وفى وجهها أعمق الأسى ، فدنت منها خافقة القلب وقعدت إلى جوارها وربتت على كتفها وقالت فى صوت متهدج :

— خففى عنك .

وتلاقت العيون فى صمت ، ثم جرت دموع علية حارة على خديها وارتمت فى أحضان إجلال تنشج وتنتحب ، فضمتها إجلال إليها وقد ترقرقت دموعها فى مقلتيها .

٢٥

عسعس الليل ومد الظلام رداءه الأسود الثقيل يلف الكون ، ونشر الهدوء أجنحته فهجع كل شيء في الكلية إلا بعض طلبة أكبوا على استذكار دروسهم في ضوء خافت ضعيف ، وتثاءب أحدهم وأحس فتورا فنهض يتمطى واندس في فراشه ، وبقي حسين منهمكا في قراءاته حتى شعر بملل ففكر في أن يذهب ليستريح ، واعتدل في مقعده وشرد بذهنه فرأى هدى تبتسم له فانتعشت روحه وانتشت نفسه ، وشعر كأن يدا رفيقة تمسح صدره فتبدد ذلك الملل الذي استولى عليه فاستأنف استذكاره في حماسة فقد وطن النفس على أن يكون من المتفوقين حتى يعين في عاصمة من العواصم ليجنب هدى العيش في أعماق الريف .

واستمر فيما هو فيه ، فلما مشى التعب إليه قام واستلقى في فراشه وهو مكدود ، وأغمض عينيه ولكن لم يمس النوم جفنيه فقد أضاء ذهنه وبدت فيه مشاهد حبيبة .. راح ينظر إليها وهو مسرور .

رأى نفسه وهدى وهما منطلقان إلى الصاغة ليستبدلا بخاتم الخطبة آخر ، ورأى نفسه وهو يحادثها خافق القلب يفضي إليها بما عزم عليه وهي تصغي إليه وفي عينيها سرور ، وأصاخ لصوته وهو يقول لها : « سنتزوج يا هدى بعد ثلاثة أسابيع ! » ، ورن في أذنيه صوتها وهي تقول له وقد اتسعت عيناها في دهش : « لم نجهز شيئا من الجهاز بعد » . وسمع صوت نفسه وهو يقول لها : « ليس هناك ضرورة لإعداد هذا الجهاز .. إننا لا ندري أين سنعين فلنؤجل أمره إلى يوم نستقر فيه » .

واستمر يسبح فى فكره يتذكر ما كان بينه وبينها وهو نشوان حتى غلبه النوم فنام ، وأشرقت الشمس ودبت الحياة فى الكلية فراح يسعى مع الساعين .. فلما جاء العصر ذهب إلى النادى يستجم قليلا قبل أن ينطلق إلى قاعة الاستذكار .. ولمح صحيفة تناولها وراح يقلبها يبحث عن الروايات التى تعرضها دور السينما فى ذلك الأسبوع فقد واعد هدى على أن يخرجا معا يوم الخميس .

أخذ يقرأ أسماء الروايات فألفى رواية « غراميات كارمن » تستهويه . فقر رأيه على أن تذهب هدى معه ليشاهدا هذه الرواية .

ووافى يوم الخميس فانساب خفيفا فى الطرقات المؤدية إلى دارها ، فلما بلغها راح يصعد الدرج قفزا ، ودق جرس الباب وقلبه فى صدره يرقص فرحا ، ولم يطق أن يتريث حتى يفتح الباب فعاد ودق الجرس وهو ينقل رجليه فى قلق .

فتح الباب فرأى إسماعيل أفندى السرورى بنظارته ذات الإطار الفضى وشعره الرمادى المبعثر وهو يبتسم له ويقول :

ـــ تفضل .. أهلا وسهلا .

وأقبلت ليلى الصغيرة وقد ارتدت ثوبا نظيفا وصففت شعرها فى عناية ، فطن إلى أنها ستذهب معهما فلن يسمحوا له أن ينفرد بهدى قبل أن يبنى بها ، فأحس رضا يحتل جوفه وطمأنينة تسكن صدره .

والتفت إلى ليلى وقال وهو يجذبها إليه :

ـــ سنشاهد الليلة رواية لطيفة .

ونظر إلى الأم فوجدها تنظر إليه منشرحة .. ولما التقت عيونهما قالت وهى ترفع حاجبيها :

ـــ أية رواية ؟

ـــ غراميات كارمن .

— رواية مصرية ؟.

— لا .. رواية بالألوان الطبيعية .

فقالت الأم كأنما فهمت شيئا :

— آه .

ولمح هدى قادمة فخفق قلبه ، وأدام إليها النظر فشعر بنشوة . كانت رائعة الحسن شديدة الأسر ينبعث من عينيها السوداوين بريق يعرف طريقه إلى القلوب ، وكانت تنثني كغصن رطيب داعبه النسيم فأحس كأنما انجذبت روحه إليها ، ونهض وفي وجهه أمارات الغبطة وفي عينيه وجد وهيام .

صافحها في حنان وضغط على يدها في خفة ، وعربد السرور في جوفه فاشتاق إلى أن يأخذها ويذهب بعيدا عن العيون ، فالتفت إلى الأم وقال :

— إننا ذاهبون .

فقالت وهي تبتسم :

— ألا تمكث قليلا ؟

— أزف ميعاد السينما .

والتفت إلى ليلى وقال :

— هيا يا ليلى .

وهم بالانصراف ولكنه تذكر إسماعيل السروري الذي كاد ينساه فذهب إليه وصافحه ، وانصرف وهدى إلى جواره وليلى خلفهما كالحارس الأمين .

وركبوا سيارة انطلقت بهم ، ونظر حسين إلى الطريق من خلل الزجاج ثم التفت إلى هدى وقال :

— يا طالما سرت في هذه الطرقات ولكنني لم أرها جميلة كما أراها الليلة . إن كل شيء أمد إليه بصري يبدو جميلا .. ما أجمل الحياة !

ونظرت إليه في وجد وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ، ثم أسبلت جفنيها فقال لها في همس :

ـــ ما أجمل الجفون إذا حاولت أن تخفى فى دلال ما تبدى العيون !

ووقفت السيارة أمام باب السينما فهبطوا منها وراحوا يشقون الجموع ، ولمح بعض العيون المتطفلة تتفرس فيهما فلم يغضب بل أحس راحة ، فجمال هدى يجذب الأبصار ، وانطلقوا حتى بلغوا مقاعدهم فجلسوا يتحادثون .

ومر الوقت وهو مفعم بالنشوة . وجاءت استراحة وأضيئت الأنوار فنظر فى البرنامج الذى كان فى يده فقرأ : « غراميات كارمن » .. وفكر دون أن يدرى فيما جعله يختار هذه الرواية . إنه يفضل روايات المغامرة والشجاعة فما الذى جذبه لمشاهدة رواية غرام ؟

وطفت على سطح ذهنه صورة علية وهى بالقرب من المعزف فى ذلك اليوم الذى انهمر فيه المطر وهى تقول له ولأبيه : « امكثا معنا حتى المساء ثم نذهب جميعا إلى الأوبرا » ، فيقول أبوه : « ماذا نشاهد هناك ؟ » فتقول علية : « كارمن » .. وشعر بقلق يمشى فى جوفه ، وعجب فى نفسه لتلك الذكرى التى خطرت له فجأة فأضرمت القلق بين ضلوعه فى لحظة من لحظات صفوه .

والتفت إلى هدى وجعل يحادثها ليطرد من ذهنه تلك الذكرى المتطفلة التى لا يدرى سببا لإلحاحها على رأسه فى هذه الساعة التى ينعم فيها بأسعد الإحساسات .

وأطفئت الأنوار وبدأ عرض الرواية فراح حسين يشاهد ما يجرى على الشاشة ولم ينقشع قلقه ، وأخذت المشاهد تمر وهو يتابعها باهتمام وأعصابه متوترة . إنه يرى ضابطا حديثا يسقط فى شرك امرأة من الغجر فيخفق قلبه ، ويتعلق الضابط بها ويهيم بها حبا حتى إنه يرتكب فى سبيلها حماقات تدفعه إلى أن يفر معها إلى الجبال يعيش عيشة قطاع الطرق . وفى يوم يقبل زوجها وتدور بين الرجلين معركة هائلة مروعة تنتهى بأن ينتصر الضابط ويسقط الآخر صريعا مضرجا بدمه . يصبح الضابط الذى ضحى بكل شىء فى سبيل

من يحب السيد الذى لا ينازع سلطانه أحد ، وتبدأ المرأة النارية التى لا تهدأ تبحث عن حب جديد ، فتضطرم الثورة والغيرة فى صدر الضابط الذى كان ضحية قدره .

زاد نبض حسين وسرت دماؤه حارة فى عروقه وثارت مشاعره فى جوفه ، فراح ينظر وهو مبهور لا يدرى سبب ذلك الانفعال الذى استبد به ، واندمج فى الرواية حتى خيل إليه أنه يشاهد شيئا وثيق الصله به ، وأقلقه ذلك الشعور فأراد أن يطمئن نفسه أن ما جرى أمامه إن هو إلا رواية ليس بينه وبينها من سبب ، فمد يده وقبض على يد هدى وراح يضغط عليها فى انفعال ، فحسبت أنه يغازلها فمالت نحوه حتى التصق كتفها بكتفه ولمس شعرها الناعم خده وملأ عبيرها الفواح أنفه ، فلم يفطن إلى ذلك فقد كان غائبا عما حوله بالأثر العميق الذى تخلفه فيه المناظر تتتابع أمام عينيه .

وانتهى العرض وأضيئت الأنوار فأحس كأن كابوسا انزاح عن صدره ، ونظر إلى هدى وفى عينيه حيرة ، وخشى أن تفطن إلى اضطرابه فقال لها :

ـــ ما رأيك فى الرواية ؟

ـــ نهايتها بشعة ، قتلها وقتل .

فقال فى انفعال :

ـــ ضيعت مستقبله وحطمت قلبه ، عبثت به وأرادت أن تمرغه فى الأوحال .

وسار وفى صدره بقايا قلق وهدى إلى جواره وليلى تتبعهما ، وما خرج إلى الطريق ولفح الهواء البارد وجهه حتى ذهب قلقه ورد إلى طبعه ، فالتفت إلى هدى مشرق المحيا وراح يناجيها ، فعادت الغبطة تمرح فى صدره والأمل البسام يتخايل أمام عينيه .

٢٦

وضع حسين حقيبة سفره مفتوحة على سريره وراح يغدو ويروح في الغرفة وهو صامت يجمع حوائجه من هنا وهناك يدسها في الحقيبة ، وأمه ترنو إليه في أسى تغالب دموعها التي تترقرق في مآقيها . إنه تخرج وعين في الإسكندرية فأصبح عليه أن يفارقها الساعة ليذهب إلى عمله .

راحت ترقبه حزينة كسيرة الفؤاد فما تحقق أمل من آمالها ، كانت تتمنى أن يعين في القاهرة ليكون بقربها فما كانت تطيق فراقه ، وها هو ذا يعد نفسه ليغادرها . وكانت في لحظات فراغها تشرد بذهنها في متاهات الخيال فترى ــ وهي مفعمة بالنشوة ــ ليلة زفاف ابنها التي ستقيمها يوم تخرجه ، وها هو ابنها يسافر دون أن يقام الفرح الذي تراءى لعينيها في اليقظة وفي المنام . رفض أن يتزوج ابنة عمه فأغضب أباه وحرمها أمنيتها الكبرى حرمها من أن تكتحل عيناها برؤيته وهو إلى جوار عروسه باسم الثغر مشرق الوجه . في ليلة الزفاف .

وأخذ يجاهد ليغلق الحقيبة ، فأحست كأنما أغلقت أبواب الأمل في نفسها وراح قلبها يتنزى حزنا ، ومد يده يحمل حقيبته فاضطربت وشعرت بوقدة من النار تلسع قلبها وبرغبة في أن تبقيه معها ، فقالت في صوت حزين :

ــ ألا تبقى حتى يأتي أبوك ؟

فقال دون أن يرفع إليها بصره :

ــ لا بد أن أسافر الآن .

ــ تغد معنا وسافر بعد الظهر .

فقال ليخفف عنها :

ــ لن أغيب إلا أياما ، سأعود يوم الخميس .

وتحرك ليغادرها ، فلم تستطع أن تكتم عواطفها فانطلقت إليه ولفته بذراعيها وضمته إلى صدرها فى حنان وأخذت تلثمه وقد جرت دموعها على خديها ، فتحركت عواطفه وخشى أن يتبدى ضعفه فأطرق ثم انسل من بين ذراعيها فى خفة ، وسار وهى تنظر إليه من بين دموعها وقلبها يهتف :

ــ فى حفظ الله .

وهبط إلى الطريق ووقف على الطوار ، فلما لمح سيارة أشار إليها ووضع حقيبته فيها وركب ، وانطلقت به ولكنها لم تنطلق إلى المحطة بل اتجهت إلى بيت هدى ، وما مرت لحظات حتى كان أمام الباب يدق الجرس .

انفرج الباب عن هدى فى ثوب من ثياب المنزل كان فى لون الفيروز طرزت على صدره وردة كبيرة ، وكان شعرها السبط يتهدل على كتفيها وعيناها السوداوان ينفثان سحرا ، فلما رأته تهلل وجهها وضمت ثوبها بيدها إلى صدرها فبرز نهداها فى إغراء ، وفسحت له الطريق فى ترحيب فدخل وهو يتطلع إليها فى سرور .

ولمحت الحقيبة الكبيرة فى يده فقالت وهى تسير إلى جواره :

ــ مسافر ؟

ــ الآن . تعالى معى .

فابتسمت وأسبلت جفنيها فاهتز قلبه ، وسار حتى دخلا غرفة الاستقبال فقعد وهو يأخذها ببصره فهمت بالانسحاب فقال لها :

ــ هدى !

فنظرت إليه من فوق كتفها وفى عينيها تساؤل ، فقال فى حنان :

ــ إذا كنت أسافر وحدى اليوم فسنسافر معا يوم الخميس .

فانسلت فى خفة وهى تهتز فرحا .

وأقبلت الأم وهي ترحب به من بعيد فى نبرات منغمة . وصافحته فى حرارة وقعدت فى مقعد قريب منه ، ولمحت الحقيبة فقالت :

ـــ مسافر ؟

ـــ بعد قليل .

ـــ وماذا ستفعل ؟

فقال وهو يبتسم :

ـــ ما يفعله المسافرون .

فقالت وهي ترفع حاجبيها :

ـــ وأين تنزل ؟

فاعتدل وقال وهو ينظر إليها :

ـــ لا أدرى بعد ، سأبحث عن مكان ثم آتى يوم الخميس لآخذ هدى .

فقالت فى إنكار :

ـــ يوم الخميس ؟ إننا لم نتأهب .

فقال فى بساطة :

ـــ الأمر لا يستدعى تأهبا ، ولو طاوعتمونى لأخذتها معى الآن .

فقالت وقد اتسعت عيناها :

ـــ دون أن تعقد عليها ؟

فابتسم وقال :

ـــ ما أيسر حضور المأذون .

فقالت كأنما تفر من شبح :

ـــ لا .. لا .. لن يكون ذلك دون إقامة فرح .

ـــ وما لزوم الفرح ؟

فقالت فى استغراب :

ـــ ما لزوم الفرح ؟! إنه كل شيء للعروس .. إننى أذكر ليلة زفافى فى

ساعات همى فيتبدد كربى ، إنها الذكرى الحبيبة التى تفيض فى لحظات فتغمر ما عداها من ذكريات .. لا أحسب أن عروسا تسعد إذا تزوجت دون فرح .

— وما دخل إقامة الفرح فى السعادة ؟ .. المناعة الحقيقية فى راحة السر وهدوء البال .

فقالت وهى تنظر إليه فى أمعان :

— لن تقيم فرحا ؟

فقال فى هدوء :

— سأحضر يوم الخميس أنا والمأذون ، ثم آخذ هدى ونرحل .

وجاءت هدى فى ثوب بديع يبدو منه منحرها وذلك الأخدود الغائر بين ثدييها وقد صففت شعرها وأبرزت فتنتها ، فشعر بنشوة تنتشر فى جوفه وجعل يتطلع إليها وهو سعيد .

وأرادت الأم أن تشرك هدى معهما فى الحديث فقالت :

— إنه يريد أن يأخذك معه يوم الخميس .

فصمتت و لم تحر جوابا ، ورأى حسين أن ينصرف فنهض فقالت له الأم :

— إلى أين ؟ .

— مسافر .

— لن تسافر قبل أن تتغدى معنا .

— متشكر ، لا بد أن أسافر الآن .

فقال له الأم :

— لن تخرج قبل الغداء .

وتلاقت عيناه بعينى هدى فألفاهما تدعوانه ، فقعد وقد استجاب لدعاء عينيها وإن رفض قبل ذلك أن يمكث استجابة لدعوة أمه التى كانت تشتهى بكل جوارحها أن يبقى معها سويعات .

٢٧

كانت الشمس تبعث أشعتها حامية تشوى الوجوه والناس يحتمون بالحوائط من تلك الأشعة التى كانت تلسعهم كألسنة من نار وقد تفصد منهم العرق وضاقت الأنفاس ، وفى ذلك الهجير وقفت سيارة هبط منها حسين وراح يهرول نحو الدار منبسط الأسارير ، فقد كان مشغولا عن ذلك الحر الذى يكاد يزهق الأرواح بما يعتمل فى صدره من مشاعر وما يجرى فى رأسه من أفكار .

وطرق الباب ففتحت له الخادم الصغيرة ، وما إن سار فى الردهة خطوات وارتفع وقع أقدامه حتى هرعت أمه إليه وجعلت تضمه إليها فى شوق ، ودخل غرفة الجلوس فألفى أباه قاعدا فذهب إليه وصافحه ، وقعدوا يتحدثون .

وانتهى الغداء ودخل الأب غرفته وبقى حسين وأمه يتناجيان ، فقالت الأم :

ـــ ستبيت عندنا الليلة ؟ .

فقال وهو يبتسم :

ـــ سأبيت مع عروسى .

فنظرت إليه فى دهش وغمغمت فى أسى :

ـــ ماذا تقول ؟ .

ـــ سآخذ المأذون معى الآن ثم أسافر أنا وهدى الليلة بعد إتمام العقد .

فقالت وهى تنظر إليه فى ارتياب :

ـــ حسنين !

فقال فى عتاب :

ـــ لماذا لا تأتين معى لتشاهدى فرحى ؟ إن غيابك يحز فى نفسى .

فغامت صفحة وجهها بسحابة من الكدر ، وبان فى عينيها الأسى وقالت فى قهر :

ـــ كنت أعيش وأنا أحلم بهذه الليلة ، ولكن كتب على ألا أراها .

ـــ لماذا لا تستجيبين لرغبة قلبك ؟ إنك تريدين أن تذهبى ، تعالى ودعك من المجاملات الفارغة التى تخنق النفس ، إن عمى لن يرضى عنك ولو وقفت فوق السطح وصرخت بأعلى صوت أنك لا توافقين على زواجى من فتاة غير ابنته .. تعالى .

فقالت فى ضعف :

ـــ لا أستطيع .

ـــ لماذا ؟

ـــ لا أريد أن أغضب أباك .

ـــ ولماذا لا يأتى معى أبى ؟

فقالت أمه فى يأس :

ـــ كفى يا حسين لا تنكأ جراحات القلب .

وقام وذهب إلى حجرته وتمدد فى سريره والأفكار فى رأسه تتزاحم والمشاعر فى جوفه تمور ، و لم يستطع صبرا على أن يظل هادئا فى رقدته فنهض وانطلق إلى الحمام ، وأخذ يدلك جسمه وهو غائب بفكره يفكر فى كتابة العقد . وخطر له خاطر : ترى أيضع يده فى يد إسماعيل السرورى أم فى يد زوجته ؟ ورأى نفسه يضع يده فى يد تلك المرأة الطويلة التى تتكلم بحاجبها ، فابتسم لذلك الخاطر الساخر ونفسه صافية لم يكدرها شىء .

وخرج من الحمام ووقف يرتدى ثيابه أمام المرآة وأمه ترقبه ثائرة الأعصاب مضطربة الأنفاس ، وزمجرت عواطفها فى جوفها حتى كادت تعصف بها

إنها لا تستطيع أن ترى ابنها الوحيد يتأهب للخروج للزواج دون أن تذهب معه تشاركه آماله ، وشعرت بأنها تريد أن تثور ، أن تتمرد على هذه الأوضاع السخيفة التي تحول بينها وبين إظهار سرورها لزواج فلذة كبدها ، فانتصبت واقفة وقلبها يرفرف بين ضلوعها .

وسارت إلى غرفة زوجها وقلبها دائب الخفقان ودماؤها تتدفق حارة فى عروقها ، واقتربت من سريره وهى تحس ثورة يشوبها قلق ، وشعر محمود أفندى بوقع أقدام ففتح عينيه فألفى زوجه تنظر إليه وفى عينيها اضطراب وغضب ، فراح يرمقها وقد سرت فى جوفه رهبة وقال وهو يعتدل فى فراشه :

ـــ خيرا ؟

فقالت فى انفعال :

ـــ حسين سيتزوج الآن .

فقال وقد أربكته المفاجأة :

ـــ ماذا ؟

ـــ وسيأخذ زوجه ويسافر إلى الإسكندرية .

وبان فى وجهه الكمد وصمت وهو حيران ، ثم غمغم :

ـــ لن أرضى أبدا عن هذا الزواج .

فقالت فى حنان :

ـــ إنه ابننا ، فإذا كان قد أخطأ فعلينا أن نغفر له خطأه ، ينبغى ألا نتركه يذهب وحده .

فقال فى حدة :

ـــ ماذا تريدينني أن أفعل ؟

ـــ أن تذهب معه .

فقال فى ثورة :

— هذا محال ، لن يكون ذلك أبدا .

فقالت فى توسل :

— محمود ، إنه ابننا .

فقال وهو يشير بيده :

— فليذهب وحده .. فليذهب وليتزوج ممن يشاء ، رفض أن يستمع إلى نصحى فليس له عندى إلا الغضب والإعراض .

— أظهرنا استياءنا ولكنه استمر فى طريقه وليس هناك فائدة من هذا الغضب ، وعلى كل حال فهى زوجه ومن حقه أن يختارها .. محمود ! إنه ابننا وسيتزوج الليلة ويسافر وقد لا أراه بعد اليوم ، إننى مريضة وأمنيتى أن أفرح به قبل أن أموت ، فلا تجعل هذا اليوم يوم نكد وعذاب .

فقال وقد أشاح بوجهه :

— لن أوافق أبدا على هذا الزواج .

فقالت فى صوت متهدج :

— لا تعذبنا .

فقال فى صوت خافت :

— لا تفاتحينى فى هذا الموضوع بعد الآن .

وأطرقت وراحت تنسحب من الغرفة فى خطا بطيئة حزينة وقد ترقرقت الدموع فى مآقيها ، ولم يستطع محمود أن يستمر فى قسوته المفتعلة ، وشعر بعواطفه الرقيقة تنبثق فى جوفه فنهض من فراشه واتجه إلى الخزانة القريبة من سريره وهو يقول :

— انتظرى .

وفتح الخزانة وأخرج رزمة من النقود واتجه إلى زوجه وقال :

— أعطه هذه فهو فى حاجة اليوم إلى نقود .

٢٨

أخذ حسين ينقل عينيه بين المأذون الذى يكتب فى سجلاته وهو غارق فى عمله ، وإسماعيل أفندى السرورى الجالس إلى جواره وقد لج فى صمته وإن بان فى وجهه غبطة ممزوجة باضطراب ، وليلى الصغيرة التى كانت تغدو وتروح فى الغرفة كفراشة طليقة . و لم يطق حسين أن يقعد ساكنا حتى ينتهى المأذون مما هو فيه فذهب إلى ليلى وضمها إليه وقبلها وهمس فى أذنها :

ـــ أين هدى ؟

فقالت الفتاة وهى تشير بإصبعها :

ـــ وراء هذا الباب .

فانطلق إلى حيث أشارت وفتح الباب فى رفق فألفى هدى فى ثيابها المنزلية وإلى جوارها أمها فابتسم لهما فى رقة ، ثم قال وهو ينظر إلى هدى فى هيام :

ـــ لم ترتدى ثيابك بعد ؟ هيا لقد أزف الوقت .

فقالت له الأم :

ـــ اقضيا ليلتكما عندنا ثم سافرا فى الصباح .

فقال حسين وعيناه على هدى :

ـــ لا نستطيع ، سنسافر فى قطار السادسة ، هيا يا هدى .

وتحركت الفتاة وألفى نفسه يتبعها ، ودخلت غرفة بها سرير وصوان ووقفت تديم النظر إلى وجهها فى المرآة وهو يرقبها خافق القلب مرهف الحواس ، وتلفت حوله فلم يجد أحدا فدنا منها وضمها إليه وقبلها فى لهفة فأحس خدرا لذيذا يمشى فى أوصاله ، ونظر فى عينيها السوداوين الواسعتين

فاضطرمت نار الصبابة فى جوفه ، فقال فى صوت خنقته مشاعره :

ـــ أسرعى يا هدى ، ما عدت أحتمل الانتظار .

وأقبلت ليلى تقفز وتقول له :

ـــ تعال ، إنهم فى انتظارك .

فانسل فى خفة وذهب إلى حيث كان المأذون وإسماعيل السرورى ، ووضع يده فى يد الرجل الصامت وراح يردد ما يلقنه المأذون وهو يرجو فى قرارة نفسه أن تنقضى هذه الرسميات .

وتم العقد ، ودخلت ليلى تحمل صينية عليها ثلاثة أكواب بها شراب وردى ، فتناول الرجال الأكواب وراحوا يشربونها ، ووضع المأذون الكوب ولم يأت على ما به ، فأعاده حسين إليه وهو يقول مفتر الثغر :

ـــ لا بد أن تشربه كله حتى لا تبور ليلى .

فقال المأذون بعد أن عب ما فى الكوب :

ـــ لن تبور أبدا .. سأكتب عقدها قريبا إن شاء الله .

وخرج المأذون ، ودخلت الأم وقعدت إلى جوار حسين وفى صدرها مشاعر متباينة ، والتفتت إليه وقالت فى انفعال :

ـــ إنى أترك هدى وديعة بين يديك .

فقال حسين فى حرارة :

ـــ اطمئنى .. سأنزلها فى حبات قلبى .

وأشاح إسماعيل السرورى بوجهه وخلع نظارته ذات الإطار الفضى ومسح بظهر يده دمعة سالت على خده ، ثم أعاد نظارته وراح ينظر إلى لا شىء وقد غرق فى الصمت .

وتململ حسين فى مقعده ثم انتصب واقفا واتجه إلى حيث كانت هدى وأمها خلفه ، فلما وقعت عيناه عليها ألفاها تتألق كزنبقة فرف قلبه فى جوفه وقال لها وهو نشوان :

— أسرعي يا هدى .

ووقفت تديم النظر إلى نفسها فى المرآة وهو يرقبها مفعما بالغبطة ، وفطنت الأم إلى ما يعتمل فى صدره من فرح وسرور فقالت له وهى ترفع حاجبها :

— أريد أن أسدى إليك نصيحة .

فقال وهو يرنو إليها منبسط الأسارير :

— ما هى ؟

— ألا تغار أبدا من المرآة .

فقال فى انشراح !

— إنى أغار من الثوب الذى ترتديه .

وأتمت هدى زينتها واتجهت إلى حقيبتها الكبيرة ، فأسرع حسين إليها ليحملها عنها ولكن الأم قالت له :

— دعها ، سيحملها البواب .

وتأهبا للخروج فمد حسين يده يصافح إسماعيل أفندى وزوجه ، وضم ليلى وقبلها ، وصافحت هدى أباها وذهبت إلى أمها التى ضمتها فى حنان ، وفتح الباب وخرجا منه فغامت عينا إسماعيل السرورى بالدمع ، وزغردت الأم مرة . ولم تتبعها أخرى فقد أحست جمرة تقف فى حلقها ووحشة تسرى فى صدرها فراحت ترقبهما فى سهوم ودمعها سرب .

* * *

الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، والنهار يردد آخر أنفاسه الحارة والقطار ينساب كمارد أسود وسط المروج الخضر ، والهواء يندفع من النافذة فيعبث بشعر هدى البسيط فتسويه بيدها وهى ترنو إلى حسين الذى كان يناجيها وهو مفعم بالنشوة يحس إحساس الغارق فى حلم من الأحلام .

وهب الهواء يحمل ذرات الرماد . فأحست هدى شيئا غريبا فى عينها فمررت إصبعها على جفنيها ، ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت نقابها الأزرق

المفهاف وأسدلته على وجهها ولفته حول عنقها ، وراح الهواء يعبث به وحسين ينظر إليها وقلبه يرف بين جنبيه .

وافتر ثغره عن ابتسامة رقيقة ولاح فى عينيه رضا وصفا وجهه ، وقال فى صوت حالم :

ـــ يا للذكريات العزيزة التى أحملها لهذا النقاب !

فمالت هدى نحوه وقالت فى دلال :

ـــ أية ذكريات ؟

فراح يقول وقد شرد ببصره :

ـــ أسعد ذكريات . إننى أذكر أول يوم رأيتك فيه عند خالتى ما أن اقتحمت عليك الحجرة حتى أسدلته على وجهك ، أحسست ساعتها أن قلبى استيقظ من سبات وانصرفت من عند خالتى وذلك النقاب يحتل أقطار نفسى ، كان يتراءى لى أينما وجهت البصر وقلبى دائب الخفقان ، ودخلت إلى فراشى وحاولت أن أنام ولكن فكرى كان يجرى وراء ذلك الذى هز الفؤاد ، وما أشرقت شمس النهار حتى خرجت أجوس الحى أبحث عن ذات النقاب .

يا طالما زارنى فى هجعة الليل فى الكلية وما أكثر ما طاف بى فى النهار ! كنت أراه فى صفحات الكتب وفى رقعة السماء وحيثما أمد البصر ، فى النور أو فى الظلام ، كان القبس الذى أضاء حياتى والأمل الذى غمر صدرى والرغبة التى تفتحت لها مهجتى ، وصار على مر الأيام رمزا لسعادتى ما أفكر فيه حتى تدثرنى نشوة ، وترعى فى جوفى مشاعر دفاقة من الغبطة ، وتتسع أمام ذهنى آفاق الخيال .

وخيم الظلام والقطار ينطلق كالسهم فى الفضاء وحسين يناجى هدى وقلبه عامر بالهيام ، ومالت نحوه ميلان الكئيب ، فأحس دماءه الحارة تسرى فى عروقه كشواظ من نار ، فمد ذراعه ولفها حولها وراح يقبلها فى اشتهاء من

فوق النقاب .

وبلغ القطار الإسكندرية فهبطا منه ، وانطلقا تلفهما السعادة حتى وجدا سيارة فركباها ، وسارت تخترق شوارع المدينة الواسعة ثم عرجت على شارع ضيق ووقفت أمام بيت متواضع ، فغادراها وراحا يرقيان الدرج وقد التصق كتفاهما وقلباهما فى صدرهما يقفزان ، ووقفا أمام باب مسكنهما ودس يده فى جيبه وأخرج المفتاح ووضعه فى الباب ، وقبل أن يلويه ضمها إليه وأخذ يقبلها فى وجد وهيام .

وانفرج الباب فدلفا إلى الداخل وهما ملتصقان ، ومد يده وأدار الزر الكهربى فسطع النور ، وأدارت هدى عينيها فى المكان فألفت ردهة متوسطة بها مقاعد قليلة من الخيزران ، وسارا إلى غرفة أمامهما كان بها سرير وصوان ، فوضع حسين الحقيبة على السرير وفتحها ، ثم اتجه إلى الصوان وأخذ ينقل ملابسها إليه فأسرعت تعاونه ، وراحا ينضدان الثياب وهما يتبادلان القبلات .

بدل ثيابه ونظر إليها فألفاها قد جلست على طرف السرير مطرقة ، فاتجه إلى الأزرار الكهربية وأدارها فساد المكان ظلام ولم يبق إلا بصيص النور ينبعث من مصباح صغير ، فذهب إليها وراح يعاونها على خلع ثيابها .

٢٩

انسل ضوء النهار إلى الغرفة على استحياء ، ففتح حسين عينيه المسبلتين اللتين لم تذوقا طعم الغمض طوال الليل ، ونظر إلى وجه هدى الصبيح الذى بدا كهالة من ضياء وسط فحمة شعرها المحلول المبعثر على الوسادة فى فوضى حبيبة ، فأحس غبطة تشيع فى جوفه وتطلقت أساريره ، ومال عليها ولثم شفتيها المطبقتين فى حنان فاهتزت أهدابها الطويلة ، ثم فتحت عينيها الواسعتين الساحرتين فلما وقعتا عليه وهو يتطلع إليها مسرورا رفعت يديها وأخفت وجهها براحتيها فى دلال ، فمد يده يزيح يدها وقد رفت على شفتيه ابتسامة رقيقة ، فاستدارت ودفنت وجهها فى الوسادة ، فاعتدل فى السرير ورفعها فى رقة بين ذراعيه وأخذ يقبلها وهو يغمغم :

ـــ تعالى نستقبل أجمل صباح .

ـــ وأريقت أشعة الشمس من النافذة حتى غرقت الغرفة فى الضوء ، فرفع عينيه عن عينيها وأدارهما فى المكان ، ثم نظر إلى ساعته وقال .

ـــ ما أسرع مرور الزمن .

وأحس أنه أتى حماقة ، فخلع الساعة من معصمه ووضعها بعيدا ثم قال :

ـــ ما أسخف أن يكون معنا رقيب يحصى علينا ساعات الصفاء .

وراح النهار يعدو كالخيال ، وتحسس حسين بطنه وقال :

ـــ أشعر بالجوع .

وكأنما تذكر شيئا لم يخطر له على بال فقال وقد اتسعت حدقتاه :

ـــ نسينا أن نتناول عشاءنا ، وها هو ذا النهار يوشك أن ينتصف .. تعالى

تملأ بطنينا قبل أن تضعف عن حملنا الأقدام .

ودلفا إلى المطبخ وأخذا يتعاونان على إعداد المائدة ، ثم قعدا يأكلان وهما يتبادلان النظرات فيشعران بالسعادة تملأ جوانحهما وينعكس على وجهيهما ما يعتمل فى صدريهما من مشاعر وإحساسات .

وذهبت هدى إلى الصوان وفتحته وأخرجت ثوبا بسيطا من ثياب الصباح ، وقبل أن تخلع ثوبها رنت إليه فى دلال فقال وهو منشرح :

— أخرج ؟ .

فقالت وهى تبتسم :

— لا ، بل أغمض عينيك .

فوضع يده على وجهه وأخذ يحلق من فرجات أصابعه ، فضحكت وجعلت تبدل ثوبها ، واتجه إلى الصوان وراح يعبث بما فيه فعثر على مجموعة من الصور فرفعها فى يده وقال :

— وما هذه ؟

فقالت وهى تصلح ثوبها :

— مجموعة صورى .

— لماذا تضعينها هنا ؟

— وأين أضعها ؟

— فى « الألبوم » .

فقالت متألقة العينين :

— ومن أدرانى أن هنا « ألبوما » ولم أمض إلا سواد الليل ؟!

ومد يده وأخرج الألبوم ، وقعد على مقعد طويل وأشار لها أن تعالى ، فجاءت وقعدت إلى جواره والتصق رأسها برأسه ، وجعلا يشاهدان الصور وقد توجت شفاههما ابتسامات .

ووقعت عيناه على صورة طفلة عارية توسدت الورود ووضعت إصبعها

فى فمها ، فقال وهو يتفرس فى الصورة :

ـــ من هذه ؟

فقالت فى مرح :

ـــ أنا .

ـــ وكيف قبلت أن تظهرى هكذا أمام المصور عارية ؟

فقالت وهى تهز كتفها :

ـــ بكيت ، ولكنهم لم يسمعوا لبكائى .

فقال وهو يزفر :

ـــ آه لو كنت حاضرا .

فقالت وهى تنظر إليه فى دلال من طرف عينها :

ـــ ماذا كنت تفعل ؟

فقال وهو يدفع إصبعيه فى الهواء :

ـــ كنت خرقت عينى المصور .

واستمرا فى مناجاتهما ، والوقت يمر مرور الطيف ، ومالت الشمس وتأهب النهار ليودع الكون فالتفت إليها وقال :

ـــ هيا نخرج نسير على الكورنيش .

فقالت فى إنكار :

ـــ اليوم ؟

ـــ الآن ، لن يأتى أحد لزيارتنا فما نعرف أحدا هنا .

فقالت له وقد أسبلت عينيها :

ـــ لم تخرج أمى بعد أن دخلت بيت أبى إلا بعد انقضاء شهور .

فقال لها وهو يمرر يده على شعرها :

ـــ وأمى لم تخرج من دار أبى إلا بعد أن جاءت بى .

فقالت وقد افتر ثغرها عن أسنانها :

— فلنفعل مثل ما فعلوا

فقال فى فزع :

— نمكث شهورا دون أن نخرج معا ؟

فهزت رأسها موافقة ، فقال وقد اتسعت عيناه :

— فهل ارتكبنا ذنبا نستحق الحبس من أجله ؟

فقالت وهى تشير بيدها فى تسليم :

— هذه سنة أهلنا .

فقال وهو ينهض ويجذبها من يدها :

— مضت أيامهم وجاءت أيامنا .

وارتديا ثيابهما ، وهبطا إلى الطريق وانطلقا وهما يتهامسان حتى لفح هواء البحر وجهيهما فأنعشهما ، وسارا على شاطئ البحر وهما غائبان عما حولهما بنفسيهما ، وتمهلا فى السير ثم وقفا واستندا إلى السور ، ونظر إلى الأفق البعيد هنيهة والناس فى غدو ورواح والنسيم الرقيق يداعبهما فتسرى فيهما راحة واطمئنان .

والتفت إليها وغمغم فى وجد :

— هدى ، أحبك .

وتلاقت العيون وتحدثت اللحاظ فاهتزت القلوب وتدفقت المشاعر الفوارة بين الضلوع ، فالتصق بها وقال :

— أحس رغبة فى أن أضمك إلىّ وأمطرك قبلات .

فقالت فى صوت متهدج :

— حسين ؟

— سأحبك يا هدى دواما .

وأحست حركة خلفهما فالتفتت ، فوقعت عيناها على امرأة عجوز

فقالت :

ـــ حتى إذا ترهل جسمي ومشى الشيب فى رأسي ؟

ـــ حبي لك يا هدى لن تخمد له نار .

ـــ أبدا ؟

ـــ أبدا .

٣٠

انطلق يغذ السير والنسيم يهب من البحر رخاء فقد تأهبت الشمس للرحيل ، وقبل أن يعرج على الطريق الضيق الذى يقود إلى داره وقع بصره على ضابط من ضباط الجيش يجلس إلى نضد من المناضد الكثيرة المبعثرة على الإفريز أمام محل للحلوى ، إنه رآه أكثر من مرة فى غدوه ورواحه ، وقد تلاقت عيناه بعينيه فرفع يده محيّيا وسار فى طريقه .

ودلف إلى داره وصعد الدرج قفزا ، وطرق الباب فى رفق ففتحت هدى والابتسامة تتوج شفتيها ، فقال وهو فى طريقه إلى غرفة النوم :

ـــ آسف ، فقد تأخرت اليوم .

وراح يبدل ثيابه ، ودنت هدى منه وقبلته وغمغمت :

ـــ جعت اليوم يا حبيبى .

فقال وهو يرتدى ثوبه المنزلى :

ـــ مضى الوقت ولم أحس به !

فقالت فى سخرية وهى تنظر إليه بعينيها الواسعتين وقد افتر ثغرها عن أسنانها :

ـــ كنت فى سينما ! .

فلوى شفته السفلى وقال :

ـــ كنت مندمجا فى رواية من روايات الحياة .

ـــ رواية طريفة ؟ .

فقال وقد غامت صفحة وجهه سحابة خفيفة من الكدر :

— مأساة .

فقالت وهى تتحرك لتعد الطعام :

— لا أحب أن أسمعها قبل الغداء .

فقال وهو يتبعها :

— تقصدين العشاء .

وقعدا يتناولان الطعام فالتفتِ إليها وقال :

— لا داعى لانتظارى إذا ما تأخرت .. تغدى إذا وافى ميعاد الغداء .

فقالت وهى ترنو إليه فى هيام .

— لا أحب أن آكل وحدى .

— سيترادف تأخيرى تحت ضغط العمل فى موسم الاصطياف .

— سأنتظرك .

— وما ذنبك ؟ .

فقالت وقد مالت عليه ووضعت خدها على خده :

— ذنبى أننى تزوجت ضابط بوليس ظريفا .

فقبلها قبلة خاطفة ، ثم راح يلوك الطعام يشع من عينيه بريق الرضا والسرور . وانتهى الغداء فذهبا إلى الردهة وقعدا ، فمالت برأسها ووضعتها على كتفه وقالت :

— قص علىّ قصة اليوم .

فقال وهو يعبث بيده فى شعرها :

— أتحبين الحكايات ؟

فهزت رأسها وقالت :

— كنت أصغى إلى أمى ساعات وهى تقص علىّ الحكايات الطويلة اللذيذة .

— الشاطر حسن وست الحسن والجمال ؟ .

فهزت رأسها ورفت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ولمعت عيناها للذكرى فقال فى حرارة :

— حكاياتى ليست لذيذة كتلك الحكايات ، إنها مستمدة من الواقع الأليم .

فقالت وهى تمط شفتيها المزمومتين لتغريه بالعناق :

— وهل الواقع أليم دائما ؟ .

فقبلها قبلة خاطفة وقال :

— لا يطوف بالأقسام إلا المآسى والأحزان .

— وما رواية اليوم ؟

— إنها مهزلة ، دخل على شاب ثائر صاخب يطلب منى أن أقوم معه من فورى . ولما كان فى حالة هياج شديد قدمت له كرسيا وأخذت أهدئ من ثورته ، ولكنه لم يهدأ وظل يلتمس منى فى إلحاح أن أذهب معه فقد رأى زوجته تدخل مع رجل غريب منزلا قريبا من القسم ، فأشفقت على الشاب ونهضت معه ودمائى تفور فى عروقى ، انطلقنا حتى بلغنا الدار فوجدنا الرجل والزوجة فى وضع تجمد له الدماء فنظرت إلى الزوج بعيون زائغة ، كنت أخشى أن يسقط من هول ما رأى فألفيته قد تسمر فى مكانه يحملق فى دهش وذهول ،فغضضت بصرى، وأنا أحس مرارة فى فمى ورثاء للزوج يملأ أقطار نفسى .

وعدنا إلى القسم وقد عزمت على أن أنتقم لكرامة الزوج المهدرة ، فرحت أسجل ما رأيت وصدرى فى علو وانخفاض وأحسست حركة فى الغرفة فرفعت رأسى عن الورق فرأيت الزوج يذهب إلى الزوجة يتمسح بها ككلب ذليل ، فنظرت وأنا لا أكاد أصدق عينى ، رأيتها تعرض عنه وتشمخ بأنفها وهو يهمس فى توسل : « سامحينا » ، فلا تزداد إلا إعراضا فيتضرع إليها فى خنوع أن تغفر له وتسامحه .

أحسست نارا تسرى فى عروقى وانتشرت فى جوفى إحساسات الحنق والغضب ، وراحت المشاعر تضغط على صدرى وتضايقنى حتى هممت بأن أقوم وأصفع ذلك النذل الذى راح يتوسل إلى من لوثت شرفه ، واعترتنى رجفة ولكننى كظمت ما بى وجعلت أنظر إلى ما يجرى أمامى وأنا حزين .

وتنازلت وساحته فتطلق وجهه وجاء إلىّ وقال لى :

« إنى متنازل عن حقى ، أليس ذلك أفضل ؟ » .

فقلت له فى زراية : « الله ستار أمر بالستر » .

وخرج من عندى ويده فى يد زوجه وأنا أشيعه بنظرة احتقار . وقبل أن يغيب عن عينى خطر لى أن أقوم وأكتم أنفاس ذلك الوغد الذى صفح عما رأى من هول لا تمحوه من الذهن حتى يد المنون .

فقالت هدى وقد رفعت رأسها عن كتفه :

— لعله يحبها .

فقال حسين فى انفعال :

— ليس هذا حبا هذه ضعة ، خير له أن يمزق قلبه من أن يتمرغ برضاه فى الأوحال ، إنى لا أدرى كيف يطيق أن يعيش معها بعد الآن ؟ إن أقل شك يحيل الحياة جحيما فما بالك بمن رأى بعينيه ؟!

— لعله معذور .

فاسترسل فى ثورته :

— عذره أن ما يجرى فى عروقه ماء وليس دماء ، ما هو برجل فلو كان رجلا لغار ... لو كانت هذه امرأتى ...

فسارعت هدى ووضعت يدها على فمه وقالت فى فزع :

— لا .. لا .. حسين ! أرجو .

وهدأت ثورته ، وفطن إلى أنه أساء إليها فقال وهو ينظر بعيون مضطربة :

— آسف .. كنت أقصد ..

وحزرت أنه نادم فى قرارة نفسه على ما بدر منه فطوقته بذراعيها وقالت فى دلال وهى تقرب شفتيها من شفتيه :

— تعال نمح الكلمات التى تراقصت على طرف لسانك .

٣١

قام من نومه والكون يسبل جفنه على عينه البصرة فألفى زوجه جالسة إلى المرآة تمشط شعرها السبط وتنشر المساحيق فى صفحة وجهها وتقرب رأسها من صقال المرآة ثم تبعده وتديم النظر ، ثم تعود وتقربه لتصلح بعض زينتها . وعجزت عن أن ترى الظلال الخفيفة التى كانت ترسمها على جفنيها فى ذلك الضوء الخابى الذى سيطر على الحجرة فنهضت وأدارت الزر الكهربى فسطع الضوء ، فعادت إلى جلستها تستأنف ما كانت فيه .

وقعد فى فراشه يرقبها ثم قال :

ـــ بدأت أغار .

فقالت وهى منهمكة فى تنميق زينتها :

ـــ مم ؟

ـــ من المرآة .

فقالت وقد لاحت أسنانها :

ـــ لم تفدك نصيحة أمى .

ـــ أفادتنى ، لفتت نظرى إلى ما كنت فى حاجة إلى سنين لأكتشفه وحدى .

ـــ جعلتك تغار قبل الأوان .

ـــ هذا عيب النصائح .. توقظ فى نفوسنا ما كان نائما .

فالتفتت إليه وقالت وفى عينيها حب :

ـــ لن أنصحك أبدا .

فقال لها وهو يدنو منها :

ـــ انصحينى أن أسارع بارتداء ثيابى فقد حان وقت خروجنا .

ـــ لن نخرج معا .

ـــ ولماذا كل هذه الزينة إذا كنا لا نخرج الليلة ؟ .

ـــ ستخرج وحدك .

ـــ وأنت ؟

ـــ عندى ميعاد .

ـــ أين ؟ .

ـــ هنا .

ـــ مع من ؟

ـــ أناس يجب ألا تراهم .

ـــ قولى من ؟

فقالت وهى ترنو إليه بطرف عينيها فى خبث :

ـــ أصدقاء .

واقترب منها ورفع يديه وقال :

ـــ والله إن لم تقولى لأشوهن شعرك وأمسحن بيدى وجهك الذى أنفقت فى تزيينه ساعات .

ومد يده إلى شعرها فنفرت منه وهى تضحك وقالت :

ـــ سأقول . سأقول كل شىء .. قبل ميعاد أوبتك طرق الباب فذهبت وفتحته ، فوجدت الخادم الصغيرة التى تعمل عند جيراننا تقول لى إن سيدتها تريد أن تزورنى اليوم بعد خروج البك ، فقلت لها إننى فى انتظارها ولتشرفنا وقتما تشاء .

ـــ ومن هو البك ؟

ـــ أنت .



فقالت وهى ترنو إليه بطرف عينها فى خبث : إنهم أصدقاء ..

فقال وهو شامخ بأنفسه :

— آه .

وراح يرتدى ثيابه حتى إذا وضع طربوشه على رأسه ذهب إليها وهم بتطويقها ، ولكنه جفل كأنما تذكر شيئا وقال :

— لا . لا .

— ماذا جرى ؟

— كدت أقبلك .

— ولماذا لم تفعل ؟ .

— لا أريد أن أفسد زينتك وأصبغ شفتى بالأحمر .

فدنت منه وقالت :

— أقبلك أنا .

وضمت شفتيها وقربتهما من خده ففر منها وراح يحييها من بعيد حتى اختفى عن ناظريها ، وسار فى الطريق لا يدرى إلى أين يذهب ، واستمر فى سيره حتى لاحت لعينيه المناضد المبعثرة على الإفريز أمام محل الحلوى ورأى ضابط الجيش يجلس فى مكانه الذى طالما رآه فيه ، فخطر له أن يقعد فى ذلك المحل ينعم بالهدوء وبالنسيم اللطيف الذى يهب من البحر ينعش النفوس .

واتجه إلى المحل ، فلما دنا من ضابط الجيش ألفاه ينظر إليه وفى عينيه ترحيب ، فحياه وقد افتر ثغره عن ابتسامة خفيفة فرد عليه تحيته وقد ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة عريضة . وذهب إلى مقعد قريب وقعد ينظر أمامه فى هدوء .

وتلاقت العيون أكثر من مرة وأخيرا قال ضابط الجيش :

— تنتظر أحدا ؟ .

قال حسين فى بساطة :

— لا . أمضى بعض الوقت .

فقال ضابط الجيش وقد نهض من مقعده وأشار بيده إلى مقعد بجواره .

— تفضل تقطع الوقت بالحديث فإنى أحسن وحشة وحدى .

فقام حسين راضيا وانتقل إلى حيث دعى فقد كانت الوحدة تضايقه . وما أن قعد حتى قال ضابط الجيش :

— أنا جمال عبد الرءوف ، يوزباشي فى فرقة الأنوار الكاشفة بوادى القمر .

— أنا حسين محمود .

وهم بأن يجارى جمالا ويقول « ضابط بوليس حديث » ولكنه أحجم ، فثيابه والنجمة الوحيدة فوق كتفه تنبئ عنه .

وقال جمال وهو ينظر إلى عينى حسين الزرقاوين وشاربه الأصفر :

— من الإسكندرية ؟

— لا . من القاهرة .

— من أين ؟

— شارع فاروق ، قرب ميدان الحسينية .

فقال جمال فى انشراح :

— نحن جيران ، إننى من العباسية .

فقال حسين وهو يبتسم :

— يربطنا ترام واحد .

فضحك جمال وقال :

— متى جئت إلى هنا ؟

— من شهر .

— إنى هنا من ثلاث سنين .

— وحدك ؟

فقال جمال وهو يبتسم :

— مع الفرقة .

— أقصد ليس معك أحد من أهلك ؟

— وحيد .

وتبسطا فى الحديث حتى إذا خيم الظلام استأذن حسين فصافحه جمال فى حرارة وهو يقول :

— يسرنى أن أراك دائما .

— إن شاء الله .

وعاد حسين إلى داره فلما دخل على هدى أخذ يصفر فى مرح ، فدنت منه وقالت له :

— أين أمضيت هذا الوقت ؟

— فى مكان ما .

— مع من ؟

فقال وهو يرنو إليها بطرف عينه :

— أصدقاء .

— من هم ؟

فهز كتفيه وراح يخلع ثيابه ، فدنت منه وقالت :

— والله إن لم تقل ..

— ماذا تفعلين ؟ تشوهين شعرى وتمسحين زينتى ؟ هاك شعرى وهاك شاربى .

فقالت وهى تطوقه بذراعيها وتقرب فمها من فمه :

— لا ، بل أكتم أنفاسك .

٣٢

وترادفت المقابلات بينهما ، كانا يمضيان أمسيتهما في محل الحلوى يتجاذبان أطراف الحديث حتى إذا أشرفت الساعة على التاسعة عاد حسين إلى هدى وذهب جمال إلى دار من دور اللهو يقضي سهرته ، وتوطدت الصداقة بينهما . وفي ليلة من الليالي أخرج جمال من جيبه صورة له في ثيابه العسكرية ، فتناولها حسين وراح يتفرس فيها ثم قال :

ـــ رائعة ، أجمل من صاحبها .

فابتسم جمال وقال :

ـــ كنت أظن أنني أجمل منها .

ـــ من قال ذلك ؟ .

ـــ المرآة .

فقال حسين وهو يشير بيده في زراية :

ـــ بلها .

وأخذ جمال الصورة وأخرج من جيبه قلما وراح يكتب عليها : « إلى صديقي العزيز حسين محمود ذكرى لحظات سعيدة » . ودفعها إلى حسين فدسها في جيبه .

واستأنفا حديثهما فقال جمال :

ـــ ألا تأتي معي الليلة لتشاهد رواية عظيمة ؟

ـــ آسف لا أستطيع ، إنني لا أذهب إلى السينما إلا مع زوجتي .

ـــ قم نتمش قليلا .

وسارا على الطوار والهواء المنعش يداعب وجهيهما وجمال ينظر إلى البحر ينفث دخان سيجارته فى راحة ، وأقبلت فتاتان جميلتان فأخذ جمال ينقل بينهما عينيه حتى إذا اقتربتا منه حنى رأسه وهمس :

ـــ أخفض رأسى تحية للجمال .

وولدت على الشفاه الحلوة ابتسامة . فقال جمال فى صوت خافت وهو يتبعهما بنظره :

ـــ جبر الله خاطركما كما جبرتما خاطرى .

فالتفت إليه حسين وقال فى عتاب :

ـــ ما هذا يا جمال ؟

ـــ غزل برىء يا صاح .

ـــ وما فائدته ؟

ـــ يجلو الصدور ويعيد إلى القلوب المهمومة الانشراح .

وأنطلقا على الكورنيش يملآن صدريهما بالهواء ، وجاءت فتاة ممشوقة القد تخطر فى مشيتها فى دلال وخلفها جمع من الشبان ، فلما وقعت عينا جمال عليها قال فى صوت مهموس :

ـــ غزال .

فابتسم حسين وقال :

ـــ خلفه ألف صياد .

وابتعد جمال عن حسين قليلا حتى إذا اقترب منها وقف أمامها ودنا صدره من صدرها والتقت عيناه بعينيها ، فتجنبته فى خفة الطيف وقد ازورت بوجهها عنه ، فراح يتبعها بنظره وهو يغمغم :

ـــ يا للجمال !

فجذبه حسين من يده وهمس فى أذنه :

ـــ اعقل .

— عيبي أن الجمال يهزنى ، هذا سر ضعفى .

— لن ترعوى حتى تقاد يوما إلى القسم .

فنظر إليه كأنما أفاق من حلم وقال :

— إذا وجدتنى ذات ليلة أمامك متهما بمضايقة فتاة فماذا تفعل ؟

— ماذا تظننى أفعل ؟ أتحسب أننى أقدم لك كرسيا ؟

— لن تقدم لى كرسيا ؟ فماذا تفعل إذن ؟!

— أبيتك فى التخشيبة .

فقال جمال فى استعطاف تمثيلى :

— حسين ! أنا صديقك .

— الصداقة شىء والعمل شىء آخر .

— لا . أنت حنبلى ، لن أغازل فتاة فى دائرة قسمك .

— حسنا تفعل .

ودارا على أعقابهما وعادا من حيث أتيا ، حتى إذا بلغا ناصية الشارع الموصل إلى بيت حسين تصافحا وافترقا وانطلق كل منهما فى طريقه .

ووقف حسين أمام باب مسكنه يطرقه فى رفق فانفرج الباب عن هدى وقد تألقت فى زينتها ، فهمس فى وجد :

— قمر ا.

فعضت على شفتها السفلى ونظرت إليه فى زجر ، فقال فى صوت خافت :

— ماذا جرى ؟

فقالت فى صوت لا يكاد يبين :

— لا زالت جارتنا هنا .

ودخل على أطراف أصابعه وذهب إلى غرفة النوم وبدل ثيابه . وأخرج صورة جمال وأخذ يتطلع إليها ، وشعرت الضيفة بعودة الزوج فاستأذنت وانصرفت .

لمح هدى قادمة فتظاهر بالتشاغل بالصورة ، حتى إذا تيقن من أنها قد رأته راح يدسها فى جيبه فى اضطراب ، فقالت له وهى تدنو منه :

— ماذا تخفى عنى ؟

فقال فى نبرات من ضبط متلبسا بجريمة :

— لا شىء .

— رأيتها بعينى .

— من ؟ .

— الصورة .

فقال وهو يبتسم :

— إنها صورة صديقة .

— أرنى ، أهى جميلة ؟

— جميلة ، ولكنها ليست أجمل منك على أية حال .

ومدت يدها تخرج الصورة ، فوضع يده على جيبه وقال :

— أحضرى « الألبوم » أولا .

فذهبت إلى الصوان وهى تنمق ألفاظ السخرية التى ستهبها لصاحبة الصورة ، وعادت ودفعت إليه بالألبوم ووقفت على رأسه وقد اشرأبت بعنقها . وضعه على ركبتيه وفتحه وأخرج الصورة وأخذ يثبتها فيه ، وما أن وقعت عيناها عليها حتى خرجت من الغرفة دون أن تنبس بكلمة ، تحس يدا قوية تعصر قلبها .

٣٣

وقف حسين أمام المرآة يحلق ذقنه ثم ينظر إلى الساعة المثبتة فى معصمه ويهتف :

ـــ هدى ! هيا يا هدى ، حان الميعاد .

و لم يسمع لهتافه جوابا ، فسار إلى الردهة والصابون على ذقنه فألفى هدى مسترخية فى مقعدها قد أسندت رأسها بيدها ، فقال لها :

ـــ أوه ! لم تبدلى ثيابك بعد ؟! سنتأخر .

فقالت له فى صوت واه :

ـــ اذهب أنت .

ـــ وأنت ؟

ـــ لا أستطيع أن أذهب .

ـــ لماذا ؟

ـــ عندى صداع .

ـــ لا . قومى يا هدى ، هذه أول مرة يدعونا فيها جمال .

وجذبها من يدها فقامت فى كسل وسارت غير منشرحة النفس ، وراحت تبدل ثيابها ساهمة تحس قلقا يجتاحها ، وفكرت فى أن تعاود الاعتذار ولكنها لم تفعل وراحت تقاوم تلك المخاوف التى تفتحت براعمها فى صدرها .

ورنا حسين إليها فألفاها شاحبة ، ففتح فاه يسألها عما بها ولكنه لم ينطق بكلمة ، وخشى إن سألها أن تلح فى الاعتذار عن الذهاب وما كان يحب أن

تتخلف فى أول مرة يدعوهما فيها صديقه .

وارتفع نداء السيارة يدعوهما للهبوط فنزلا متمهلين حتى إذا بلغا الطريق وجدا سيارة زرقاء أنيقة إلى جوارها جمال بوجهه الأسمر وحاجبيه العريضين المقوسين كسيفين وعينيه السوداوين اللامعتين، ولما رآهما احتلت فمه الواسع ابتسامة ، وصافحه حسين ، والتفت إلى هدى وقال :

ـــ هدى زوجتى .

وأشار إلى صديقه وقال :

ـــ جمال .. صديق الأمسية .

وحنى جمال رأسه وقد تلاقت عيناه بعينيها ، فاضطربت وأسبلت جفنيها وقالت فى صوت مخنوق :

ـــ تشرفنا .

وفتح جمال باب السيارة ونظر إلى هدى يدعوها إلى الركوب ، فتقدمت وركبت فى الخلف وقبعت فى ناحية وقد حملت رأسها بيدها ، وركب جمال وحسين وأسرعت السيارة ، ونظرت هدى إلى الطريق بعيون زائغة منقبضة النفس تحس دوارا . ووقفت السيارة أمام المسرح فهبطوا منها وتقدموا كثلاثة رماح مشرعة ، حتى إذا بلغوا مقصورتهم أخذ جمال وحسين يتحدثان وهدى تنظر إليهما وهى مشغولة عنهما بما يجرى فى رأسها من أفكار وأوهام .

وخيل إليها أن الزمن يتسكع ، وودت أن تنطفئ الأنوار الساطعة فى المسرح وأن ينتهى الحفل لينقضى ذلك الاضطراب المستبدّ بها . وأدارت عينيها فى المكان لتتشاغل بما يجرى فى أعماقها ولكنها عجزت عن أن تحول مجرى أفكارها التى كانت تنشر الخوف فى أرجاء نفسها .

وأطفئت الأنوار فلم تهدأ بل زادت وساوسها وكثر تلفتها ، ووقعت عيناها على عينى جمال فى الظلام فخيل إليها أنه ابتسم لها فاضطربت وضاق صدرها وأحست كأنها تختنق ، وخطر لها أن تميل على حسين تهمس فى أذنه

برغبتها فى الانصراف فالصداع يؤلمها ، ولكنها لم تنفذ ذلك الخاطر بل راحت تنظر إلى المسرح ولا ترى شيئا ، وتمنت أن تضاء الأنوار فالظلام يجثم على صدرها ويكتم أنفاسها ويوقظ أفكارها التى تبذر القلق فى جوفها ، وعزمت على أن تركز ذهنها فيما يجرى على المسرح فاشرأبت بعنقها وأخذت تنظر ، ولكن سرعان ما شغلت عما أمامها بما يقع فى مسرح نفسها .

وأضيئت الأنوار ، والتفت حسين إلى هدى وقال :

— رواية لطيفة .

فاغتصبت ابتسامة وقالت :

— مدهشة .

ووقعت عيناها على جمال فغاضت ابتسامتها وطأطأت بصرها ، وقام جمال ، وقال حسين لهدى :

— تعالى نتمشى فى الردهات قليلا .

— اذهب أنت ، إنى قاعدة .

وذهبا وبقيت وحدها تحاول أن تذد الوساوس التى راحت تمرح بين ضلوعها ، وكادت تنجح ولكن ما إن لاح جمال لعينيها حتى عادت إليها مخاوفها . قدم إليها قطعة من الشيكولاتة وهو يقول وقد لمعت عيناه ورفت على شفتيه ابتسامة :

— تفضلى .

فتناولتها منه وهى ترنو إليه بعيون قلقة عجزت عن أن تخفى ما يعتمل فى صدرها ، وحزرت ما تنطق به عيناه فربت مخاوفها ودق قلبها دقات الفزع .

وعادا إلى مقعديهما وقال جمال لحسين وهو يرقب هدى بطرف عينيه :

— غدا الجمعة ، فما رأيك فى أن نمضى النهار فى العجمى ؟

فقال حسين فى حماسة :

— فكرة بديعة ، ما رأيك يا هدى ؟

فقالت وأهدابها متكسرة :

ـ أعفني ، أشعر بتعب .

وأطفئت الأنوار ، وانفردت هدى بوساوسها فأخذت تعبث بها كما تعبث الرياح بريشة فى الفضاء ، وانقضى الوقت وئيدا وئيدا ، وأخيرا انتهت الرواية وأضيئت الأنوار فأحست هدى إحساس السجين الذى وجد نفسه خارج الأسوار ، ونهضوا ورأت أن الواجب يقضى أن تزجى لضيفها كلمة شكر فقالت له :

ـــ أشكر لك هذه السهرة الرائعة .

فقال وهو ينظر إليها وفى عينيه ابتسام :

ـــ العفو .

وساروا وجمال وحسين يتحدثان وهدى صامتة لا تنبس بكلمة تتمنى فى قرارة نفسها أن تغمض عينيها لتجد نفسها فى البيت ، وركبوا السيارة وانطلقت عائدة ، وما أن وقفت أمام الدار حتى شعرت هدى براحة وانسلت منها خفية ، وتبخر قلقها ولم يبق منه فى جوفها إلا الرذاذ .

وحنت رأسها لجمال محيية ووقفت تنتظر حسينا حتى ينتهى من مصافحة صديقه ، وقال حسين وهو يهز يد جمال :

ـــ سننتظرك غدا لتتغدى معنا :

فقال جمال وهو مشرق الوجه :

ـــ إن شاء الله .

وعاد القلق إلى هدى يحتل صدرها وهرع الدوار إلى رأسها .

٣٤

أخذت هدى تغدو وتروح بين المطبخ والنافذة المطلة على الطريق فقد كانت ترصد قدوم زوجها ، وذهبت إلى المرآة ومررت يدها على شعرها وظلت تديم النظر إلى هيئتها ، حتى إذا اطمأنت اتجهت إلى مقعد فى الردهة وجلست مسترخية وألقت برأسها إلى الخلف وأطلقت لخيالها العنان .

رأت حسينا وهو يغمرها بحبه ويشملها بعطفه فخفق قلبها وانداحت الغبطة فى صدرها وتطلق وجهها وبان فيه الرضا ، ورأته وهو يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره ويقبلها فى هيام فأحست خدرا لذيذا يسرى فى روحها ونشوة تدغدغ حواسها فأسبلت جفنيها تنعم بأحلام يقظتها .

وظلت غارقة فى النشوة تحتويها السعادة بين جنبيها ، حتى مس أذنيها طرق خفيف على الباب فاستيقظت من أحلامها وهبت خفيفة تفتح الباب لزوجها وتتهيأ لضمه إلى صدرها تسمعه دقات قلبها النشوان .

وفتحت الباب وعلى فمها ابتسامة وفى عينيها نداء ، ولكن سرعان ما ذبلت الابتسامة وانطفأ البريق وغامت صفحة وجهها واضطرم فى جوفها الاضطراب . لم تقع عيناها على حسين بل وجدت جمالا يتطلع إليها وقد افتر ثغره الواسع عن ابتسامة انقبض لها فؤادها ، وارتدت خطوة وهى تنظر إليه فى قلق ، وبقى يصوب إليها النظر دون أن يتكلم ، وفطن إلى قلقها وأيقن أنها لن تدعوه إلى الدخول فقال وهو ينقل عينيه بين صدرها ووجهها :

ـــ حسين موجود ؟

فقالت وهى تنسحب خلف الباب لتحمى جسمها من نظراته :

ـــ لم يأت بعد .

ووقف و لم يتحرك ، فتحركت الباب فى ضيق وهمت أن تغلقه ولكنها تحلمت وقالت :

ـــ تريد أن تبلغه شيئا ؟

فقال والبريق الذى تخشاه يشع من عينيه :

ـــ متشكر ، لا تقولى له شيئا ، سأقول له ما أريد عندما أقابله فى المساء .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة فأحست كأن خنجرا طعن فؤادها ، ودار على عقبيه فأغلقت الباب وارتمت فى مقعدها مبهورة الأنفاس .

وراحت الأفكار تنهال على رأسها ، رأت جمالا يوم أقبل يتناول معهما الغداء وهو يرمز لها بعينه فى غفلة من حسين ، ورأته وهو يهمس لها بحديث الهوى لما غاب حسين فى غرفته لحظات ، إنها تنتفض رهبة ويعتصرهـا الانقباض .

وأضىء ذهنها فرأت فى وضوح نفسها وقد جلست إلى المائدة بين زوجها وجمال ، إنها لتنقبض الساعة انقباضا لنظراته الخبيثة التى يصوبها إليها ، وإن القشعريرة تسرى فى بدنها سريانها ساعة أن قرب ساقه من تحت المائدة من ساقها . وراحت تجتر ذكرياتها وهى تحس وخزا يخز روحها .

وصلك أذنيها طرق على الباب فانتبهت مرعوبة وقامت وفتحته ، فوجدت حسينا يبش لها ويرنو إليها بعينيه الزرقاوين فى حب ، فأرادت صادقة أن تبادله الابتسام وأن تضمه إلى صدرها ولكن الهموم الثقيلة النازلة بين جوانحها قامت حائلا بينها وبين ما أرادت .

ودخل حسين ولف ذراعه حول خصرها وقال :

ـــ عدت مبكرا اليوم .

فنظرت إليه وقد اغتصبت ابتسامة كلفتها جهدا ، فقال وهو ينظر إلى ساعته دون أن يفطن إلى ما تقاسى :

— هدى الله المصطافين اليوم فلم يرتكبوا حماقات ، أو بمعنى أصح ارتكبوا حماقات و لم يبلغوا عنها .

وضحك ، وأحست قلبها يغوص فى قدميها وطارت نفسها شعاعا فانسحبت فى هدوء ، ورآها وهى خارجة من الغرفة فقال لها :

— إلى أين ؟ .

فقالت فى صوت خافت :

— أعد الغداء .

وأخذت تعد السفرة وهى شاردة اللب تفكر فى زيارة جمال على غير ميعاد ، ورن فى أذنيها صوته وهو يقول فى زراية : « لا تقولى له شيئا سأقول له ما أريد عندما أقابله فى المساء » فأحست الأشياء تضطرب أمام عينيها والأرض تميد بها .

وجلسا إلى المائدة وراح حسين يسترق إليها النظر فحيره وجومها ، وأخذت تتناول طعامها وهى شاردة البصر تتأرجح بين أن تفضى إلى زوجها بزيارة جمال وبين أن تكتمها ، وهمت أكثر من مرة أن تتكلم ولكن الرهبة كانت تعقل لسانها .

وأحست غصة فى حلقها فازدردت اللقمة التى كانت فى فمها ثم عافت نفسها الطعام ، ولاحظ حسين إطراقها وإعراضها عما أمامها فقال لها فى رقة :

— هدى ! ماذا بك ؟

فقالت فى قلق :

— لا شىء .

— لماذا لا تأكلين ؟

— أشعر بغثيان .

ونهضت وذهبت إلى فراشها وتمددت فيه وهى تشعر بدوامة فى رأسها ،

واتجه إليها وقعد إلى جوارها وجعل يمرر يده على شعرها فى حنان ويقول فى رقة :

ـــ هدى ! كيف أنت الآن ؟ .

ففتحت عينيها وابتسمت له ، فمال عليها وقبلها وهو يربت على خدها ، وفكر فى أن يرفه عنها فقال لها :

ـــ ما رأيك أن نمضى يومى الخميس والجمعة فى القاهرة ؟

فقالت وهى تنظر إليه فى استغراب :

ـــ الناس يفرون من جحيم القاهرة إلى هنا ، ونحن نترك الإسكندرية لنذهب إلى نار القاهرة !

وقبل أن يقول شيئا نهضت من فراشها وذهبت إلى دورة المياه مسرعة وأخذت تقىء ، فأطرق وبان فى وجهه الأسى .

وعادت شاحبة اللون ، فهرع إليها وضمها فى رقة وقال لها :

ـــ فلنذهب إلى الطبيب .

فقالت له فى هدوء :

ـــ إنها وعكة بسيطة :

فقال وهو يرنو إليها بعيون قلقة :

ـــ هدى ! .

فقالت وهى تجاهد لتبدو هادئة :

ـــ إننى بخير .

ولم تهدأ نفسه وصمت على مضض وإن كان القلق يرعى فى جوفه .

٣٥

قعدت هدى تطالع فى صحيفة وما قرأت أسطرا حتى أحست ثقلا فى جفونها ، إنها تشعر بوخم يجثم عليها فما تغادر فراشها حتى يعود النعاس يداعب عينيها ، وحاولت أن تقاوم النوم الذى طاف بها فراحت تهوم فى جلستها وسقطت الصحيفة من يدها ، فانتبهت إلى نفسها وتثاءبت ثم نهضت واندست فى سريرها .

وغرقت فى النوم وأخذ الوقت يمر ، ومس أذنيها طرق على الباب فخيل إليها أنها تحلم ، واشتد الطرق ففتحت عينيها وملكت حواسها وراحت تتلفت فى الغرفة فألفت ضوء النهار يفيض فيها ، فاضطربت واشتد وجيب قلبها فما كان هذا وقت أوبة زوجها ، إنه خرج إلى القسم على أن يعود فى منتصف الليل .

وقفزت إلى ذهنها صورة جمال وهو يلتهمها بعينيه النهمتين وعلى شفتيه ابتسامته المازئة التى تطعن كبرياءها ، فارتجفت واتسعت عيناها ولاح فى وجهها خوف وامتعاض ، وفكرت فى أن تصم أذنيها ولكن الطرق استمر ، فقامت وارتدت ثوبا طويلا يستر جسدها وتقدمت نحو الباب شاخصة البصر وصدرها فى علو وانخفاض .

ووقفت هنيهة تستجمع قواها وتتأهب للثورة فى وجهه إذا ما رماها بنظراته المتطفلة أو حادثها حديث الهوى ، ومدت يدا مضطربة وفتحت الباب فى أناة وقلبها ينزف خوفا ، فلم تقع عيناها على جمال بل رأت فتاة زرقاء العينين دقيقة الأنف ذهبية الشعر ترتدى ثوبا أبيض أنيقا أبرز جمال تكوينها ،

وإلى جوارها فتاة سمراء الوجه متناسقة القسمات سوداء الشعر فى عينيها خفة ، فتطلعت إليهما وفى عينيها تساؤل ، ولم تمهلها السمراء حتى تسألهما عن حاجتهما بل قالت وهى تحدق فى وجهها .

— حسين بك موجود ؟

وأحست هدى يدا تهصر قلبها وقلقا يجتاحها ، وقالت فى صوت مضطرب :

— خرج .

فقالت السمراء وهى تنظر إلى رفيقتها .

— حضرتها علية ابنة عمه .

فقفز قلب هدى بين ضلوعها واضطربت مشاعرها ، وقالت وهى جامدة فى مكانها فى صوت خافت :

— أهلا وسهلا .

وأفاقت من المباغتة وفطنت إلى اضطرابها فراحت تجمع شتات نفسها ، حتى إذا ملكت روعها فسحت الطريق وقالت وهى تغتصب ابتسامة :

— تفضلا .

وتقدمت علية وعلى شفتيها ابتسامة مريرة وفى عينيها انكسار وفى قلبها شجن ، إنها ترى أمامها المرأة التى سلبتها حسينا ، وزاد فى أساها أنها وجدتها شابة فاتنة تستهوى الأفئدة . ودخلت إجلال وتلفتت فوجدت أثاثا متواضعا ، فنظرت إلى علية ولوت شفتها زراية ، ولكن علية كانت مشغولة عنها بالنار التى اندلع لهيبها فى أحشائها .

وفتحت هدى بابا وأشارت إليهما ، فدخلا إلى غرفة عارية لم يكن بها إلا مقاعد من الخيزران ، وقعدت وعلى الشفاء ابتسامات مزيفة وعلية تنظر إلى هدى وقد انتشرت فى صدرها أبخرة الحسد .

وحزرت هدى أنهما ما جاءتا إلا لترياها وتشبعا فضولهما فعزمت على أن

تكمدها ، فانسحبت من الغرفة مستأذنة وذهبت وارتدت ثوبا رائعا ومشطت شعرها وتزينت وعادت إلى الغرفة تتألق كلؤلؤة ، فأحست علية غصة فى حلقها وبدا قوية تكتم أنفاسها .

وأرادت إجلال أن تجرها إلى الحديث فقالت لها :

ـــ وكيف حال حسين ؟

فقالت وهى تنظر إلى علية من بين أهدابها :

ـــ سعيد .

ولاحظت تبدلها وسحابة الكآبة التى رانت على وجهها فشعرت براحة وقررت فى نفسها أن تتعمد إيذاءها ، وفطنت إجلال إلى ما اعترى علية فتضايقت ، ورأت أن تنهى هذه الزيارة فقالت وهى تتأهب للنهوض .

ـــ إذا جاء حسين بك فبلغيه أننا نزلنا المنزل الذى كنا فيه فى السنة الماضية .

فقالت هدى :

ـــ سأبلغه .

وتحركت علية وإجلال للانصراف ولكن هدى قالت لهما :

ـــ لحظة واحدة .

وانسلت من الغرفة فى خفة وتركتهما وحدهما ، فأدارت إجلال عينيها فى المكان الخاوى وانفرجت شفتاها فى زراية وقالت فى صوت خافت :

ـــ والله لا أدرى لماذا فعل حسين هذا ؟

وافتر ثغر علية عن ابتسامة حزينة وغامت عيناها بالدمع و لم تنبس بكلمة ، وشعرت بمخالب حادة تنهش فؤادها وإبرا تخز روحها .

وساد الغرفة هدوء قلق ، وصلك آذانهما وقع أقدام هدى قادمة فشخصا بأبصارهما نحو الباب فرأياها مقبلة وبين يديها صينية عليها أكواب ملئت شرابا ، فانقبضت علية وتدفقت دماؤها حارة فى عروقها وضاقت عيناها من

القهر ، ولو طاوعت نفسها لقامت وحطمت الأكواب وانفجرت باكية . ولكنها تجلدت وإن كانت تقاسي في جوفها ثورة عاتية .

وقدمت هدى إليها الصينية وهي تبتسم ، كانت تحس في قرارة نفسها أنها سيدة الموقف ، فمدت علية يدها وتناولت كوبا وقد سرت في بدنها رعدة ، وقدمتها إلى إجلال فأخذت كوبا دون أن ترفع إليها بصرها حتى لا ترى في عينيها حزنها الدفين ، ووضعت الصينية على نضد وأمسكت كوبا بين أصابعها ورفعته في رشاقة وهي تقول والابتسامة مشرقة على وجهها :

ــ تفضلا .

وراحت علية تتجرع الكوب غصة بعد غصة تحس شواظا من نار يسري في حلقومها ، وهدى ترصدها من طرف خفي وهي راضية ، وهمت علية بإعادة الكوب بعد أن رشفت منه رشفات فأسرعت هدى إليها وتناولته منها وهي تقول :

ــ هنيئا .

فتحركت شفتا علية ولم تخرج من بينهما كلمة .

وقامت إجلال وتبعتها علية ، وسارتا وهدى خلفهما حتى إذا بلغن الباب صافحتهما وهي تقول :

ــ خطوة عزيزة .

وهبطتا في الدرج وهي ترقبهما ، كانت علية مطرقة يلوح في وجهها الأسى فقد نكئ جرح قلبها ، وإجلال بإسرة الوجه تحس ندما لأنها أشارت على ابنة خالتها بهذه الزيارة التي جرجت نفسها وحركت أشجانها . وقالت هدى قبل أن تبتعدا عنها في صوت حاولت أن يكون رقيقا :

ــ سأبلغ حسينا أنكم نزلتم نفس المنزل الذي كنتم فيه في السنة الماضية ، أرجو أن تتكرر هذه الزيارة .

وظلت واقفة حتى اختفتا عن ناظريها ففاضت الابتسامة المرتسمة على

شفتيها ، ودخلت حجرتها وسرعان ما سرى فى جوفها قلق فرؤيتها لعلية أيقظت مخاوفها ، وتمددت فى فراشها و لم تغمض عيناها ، كانت صورة علية بشعرها المسترسل كأسلاك من ذهب وبشرتها الناصعة وعينيها الزرقاوين الصافيتين صفاء السماء فى يوم صائف تحتل أقطار رأسها ، وتحركت عقارب الغيرة فى جوفها فراحت تنهش فؤادها .

وظلت تتقلب فى فراشها لا تذوق النوم الإ غرارا ، وأخذ الوقت يمر وهى فريسة لأفكار قلقة كانت تضنيها ، ومررت يدها على رأسها أكثر من مرة تمسح الرؤى البغيضة التى احتلت ذهنها ، وتقضى الوقت وئيدا لا يشغل تفكيرها إلا هذه الزيارة التى لا تجد لها سببا يريحها .

وانتصف الليل ونام الكون وهدأ كل شىء والأفكار تنمو فى خيالها ، ومس أذنيها صوت مفتاح يدور فى قفل الباب فجلست فى فراشها . وأضاءت نور الغرفة وراحت ترقب دخول زوجها وقلبها يرفرف بين جنبيها .

ودخل حسين ، فلما ألفى نور غرفة النوم ساطعا وسع خطاه فوجد زوجه تنظر إليه وعلى شفتيها ابتسامة ، فقال لها وهو يرنو إليها فى تساؤل :

— لم تنامى حتى هذه الساعة ؟

فقالت له فى دلال :

— كنت أنتظرك .

فرفت على شفتيه ابتسامة وقالت له وهو يبدل ثيابه :

— أتدرى من زارنا اليوم ؟

فالتفت إليها وقال :

— من ؟

— احزر .

— لا أدرى من ؟

— أقاربك .

— ليس لى أقارب فى الإسكندرية .

فقالت وهى تحدقه بنظرها لتستشف وقع كلامها فى نفسه :

— علية .

وأحس قلبه يدق فى صدره فى قوة ودماءه تتدفق حارة فى عروقه ومشاعر من الحنان تنبثق فى جوفه ، واعتراه اضطراب ، وفطن إلى ما طرأ عليه من تبدل فخشى أن تلحظ ذلك فمد يده وأطفأ النور .

وتقدم منها وقلبه دائب الخفقان . ولفها بذراعيه وضمها إلى صدره فى قوة وقبلها قبلة طويلة حارة أذاب فيها روحه ، فأسبلت جفنيها فى راحة وأقلع قلقها ونزلت سكينة بفؤادها ، ولو قرأت ما كان يجرى فى ذهنه فى هذه اللحظة لتمزق قلبها ونأت عنه تخفى وجهها براحتيها ، فقد كان يرى نفسه بعين خياله يضم علية فى وجد ويلثمها فى هيام .

٣٦

أشرقت شمس اليوم التالى وهما يغطان فى نومهما ، وسقط الضوء على وجهه ففتح عينيه ، فلما وجد أن الغرفة غارقة فى النور غادر فراشه وقعد مسترخيا فى مقعد قريب من النافذة ، فأخذ هواء البحر الرطب يداعب شعره وينعش نفسه .

واستيقظت أفكاره فشرد ببصره وغرق فى ذكرياته ، فرأى نفسه وعلية وهما ممددان على الرمال تحت مظلة يتطلعان إلى البحر الذى غص بالأجساد ، ورآها مقبلة عليه تحادثه وقد صوبت عينيها الزرقاوين إلى وجهه وافتر ثغرها الحلو عن أسنانها البيضاء ، فأحس يدا حنونا تعبث بأوتار قلبه وينابيع الحب تتفجر فى نفسه ومشاعر الشوق تنسكب فى جوفه ، فانبسطت صفحة وجهه ولمعت عيناه ببريق أخاذ .

ولج فى الذكريات فرآها وهى تسير إلى جواره على الكورنيش وقرص الشمس المتوهج يغوص فى البحر ، وقد انتشرت الحمرة حوله فى اللجة والسماء فى توافق عجيب نشرتها يد أقدر فنان ، فخفق قلبه وهفت نفسه إلى تلك الأيام .

لم يكن يفكر فيها وهو فى مقعده كما كان يفكر فيها قبل أن يتزوج هدى ، فما عادت علية تلك الفتاة التى كان يتضاءل أمامها بل أصبح يراها فتاة رائعة الحسن نابضة الحياة تبعث ذكراها الدفء فى أوصاله وتعيد إلى القلب ثورات الغرام .

وهفت روحه إليها وشعر برغبة جامحة فى أن يراها ، فى أن يديم النظر إلى

وجهها الدقيق وعينيها الزرقاوين الصافيتين اللتين يراهما فى كل مكان ترنوان إليه فى هيام ، فخطر له أن يقوم من فوره ليذهب إلى ، « جليم » يبحث عنها تحت مظلتها ، إنه ليلمحها بعين خياله وهى ممددة فى ثوبها الأبيض البسيط تتحدث إلى إجلال ، فيشتد وجيب قلبه وتنساب فى جوفه إحساسات الوجد والهيام .

وقر عزمه على أن يذهب إلى هناك ، فالتفت إلى زوجه الراقدة فى فراشها وهتف :

— علية !

وخفت صوته وماتت الكلمة على شفتيه ، واتسعت عيناه وراح قلبه يقفز فى فزع وارتسم فى وجهه سهوم ، وبقى مدة ينظر إلى هدى قلقا ، حتى إذا أفرخ روعه وهدأت نفسه ذهب إليها وأخذ يهزها فى رفق ويهتف :

— هدى ! هدى ! .

وفتحت عينيها فى تثاقل وقالت فى نعاس :

— إيه .

فقال لها وهو يدنى وجهه من وجهها :

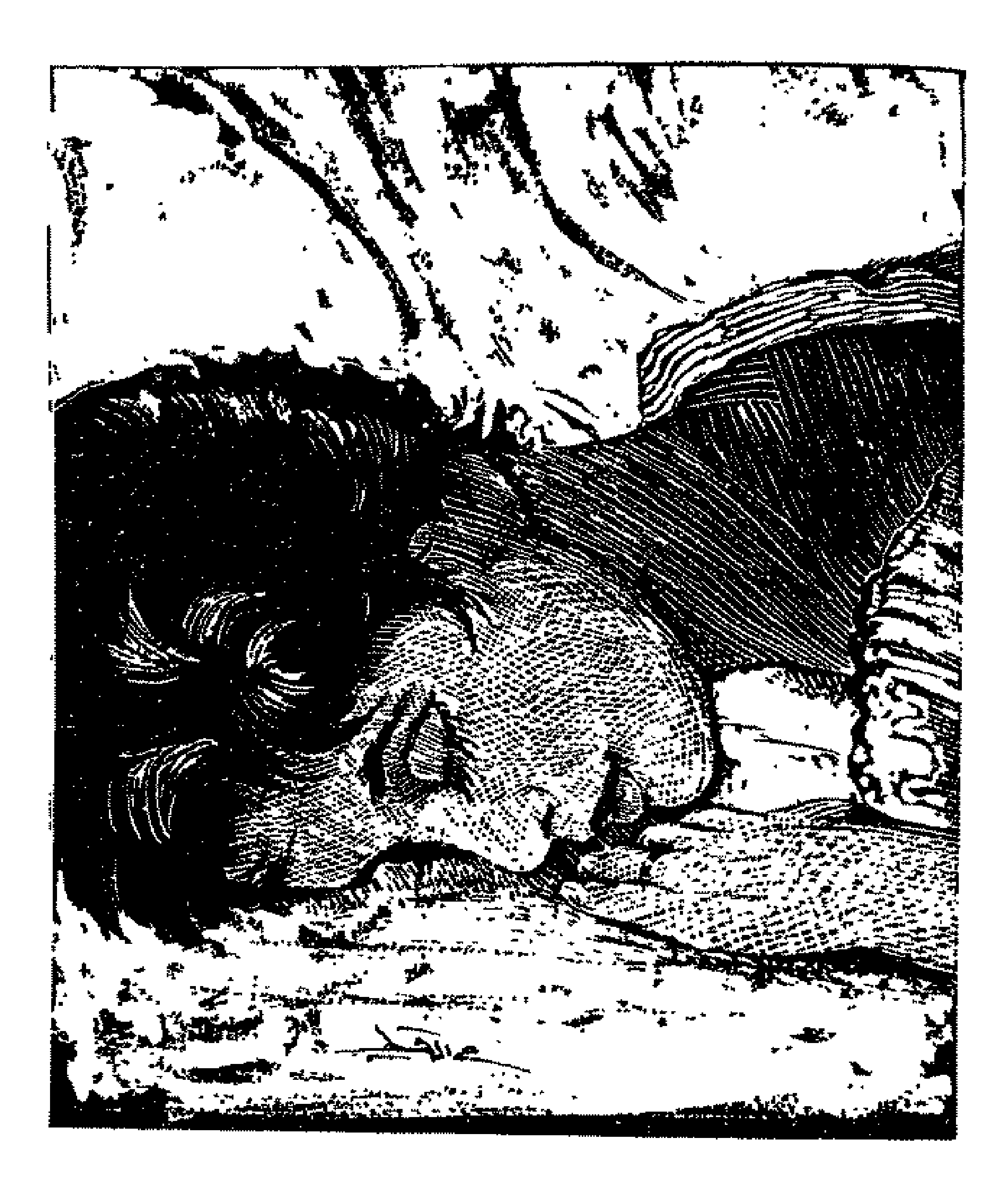
— قومى نتناول الفطور .

فقالت وهى تطبق جفونها :

— كل أنت ودعنى أنام .

— إنى خارج .

وارتدى ثيابه ، وألقى على زوجه النائمة نظرة ثم انسل من جوارها وخرج وفى جوفه ذلك الاضطراب الذى يحسه المحب الذاهب لأول مرة للقاء حبيبة الفؤاد . واستقل الأتوبيس وصورة علية تحتل تفكيره ، إنه يراها وهى تحدثه فى انشراح ، وهى تتطلع إليه وفى عينيها ذلك البريق الأخاذ الذى يخفق له القلب خفقات الحب الفوار .



فقالت وهى تطبق جفونها : كل أنت ودعنى أنام .

وبلغ الأتوبيس محطة « جليم » فهبط منه وقد استيقظت مخاوفه ، وسار يتلفت وفى صدره مشاعر ثائرة تمور فوارة تتدفق ، فوقف برهة يفكر فيما دهاه ، وسرعان ما أفلت منه زمام أمره فألفى قوة عاتية تسوقه إلى حيث اعتادت علية أن تغرس مظلتها ، فتقدم وهو مذهول ليس له على نفسه سلطان .

ووقف فى مكان يشرف على الشاطئ ، ومد بصره وهو مضطرب الأنفاس ينقب عن مظلتها فلم تقع عليها عيناه فأحس أسى ينتشر بين جوانحه ، وانطلق إلى المكان وهو قلق وراح يبحث عنها فى حماسة من يبحث عن شىء عزيز ضال .

وانطلق يجوس خلال الشاطئ يخوض بين المظلات والأجساد العارية ورأسه يدور فى كل اتجاه . إنه يهفو إلى النظر إليها من بعيد ، يشتهى أن تكتحل برؤيتها مقلتاه ، وفكر فيما يفعله لو وجد نفسه فجأة أمامها وجها لوجه فدق قلبه فى رهبة وشعر بجفاف فى حلقه ودثره اضطراب ، ولكنه ظل ينقب عنها فى لهفة واشتياق .

وقطع الشاطئ ولم يعثر عليها فأحس ضيقا ، وفكر فى أن يعود من حيث جاء ولكنه لم يركن إلى يأسه ووقف يدير عينيه هنا وهناك ، لمح أناسا قاعدين فى الكازينو يشرفون على الشاطئ من بعيد فى وقار فراح يقترب منهم فى حذر ، ووقعت عيناه على علية وإجلال وعمه وامرأة عمه فقفز قلبه فى رعونة حتى كاد يفر من فيه وتخلخلت مفاصله ، وأخذ ينظر وقد سربله الاضطراب .

وثبت ناظريه عليها وقلبه يدق فى شدة ودماؤه تتدفق حارة فى عروقه وقد استيقظت بين جوانحه مشاعر الحب الجبار ، وخطر له أن يتقدم منهم يصافحهم ولكنه فزع من ذلك الخاطر وبقى فى مكانه يرنو إلى علية فى هيام .

وعبث الهواء بشعرها الذهبى فرفعت يدها فى رشاقة ومررتها عليه فرفرف

قلبه ، وفيما هو يمد إليها بصره فى وجد شرد ذهنه فوجد نفسه وعلية وحيدين على الشاطئ ، فتقدم إليها وقد رفت على شفتيه ابتسامة ترجمت عما يكنه القلب الولهان ، وقابلته متهللة الوجه وفى عينيها الزرقاوين نداء ، فضمها فى شوق وقبلها فى اشتهاء .

وأفاق إلى نفسه فتلفت حوله فألفى نفسه غريبا على الشاطئ ، كان فى ثيابه الرسمية بين أجساد تجردت من ثيابها فأحس حرارة تنبعث من وجهه ، فراح يبتعد رويدا رويدا وهو يتلفت وقلبه يطفو ويغوص ونار الصبابة تتأجج بين الضلوع .

٣٧

الأفكار تتوافد على رأس حسين فلا يختفي مشهد إلا ليقوم مكانه مشهد آخر ، وكانت جميع المشاهد تدور حول علية . إنه يجتر حياته معها منذ كانا طفلين حتى تزوج هدى ، وفى صدره مرارة وأسى . وإن الحوادث التى طالما فكر فيها وانقبض لها لتبدو اللحظة لعين خياله مجلوة ، إنه يحن إلى ذلك اليوم الذى سحبته فيه من يده حتى بلغا الخميلة المنعزلة فى قصر الزمالك ، وإنه يحس طعم القبلة التى طبعتها على شفتيه باقية فى روحه ، ويتذكر يوم سارا معا فى حديقة الحيوان يتحدثان فيخفق قلبه ، وقفز إلى ذهنه صورتها يوم عادته فى مستشفى الكلية فاختلجت جوارحه وراحت مشاعر الحب الدافق تراق فى جوفه .

واستسلم لأفكاره فراح يسبح فى بحور خياله وهو مطبق جفنيه ، حتى إذا استنفد ذكرياته سمع وسوسة تنبعث من أغوار نفسه ، تتهمه بأن فى انقياده وراء ذكرياته وحنينه إلى ما انقضى من أحداث بينه وبين ابنة عمه خيانة لزوجة . وأصاخ السمع إلى ذلك الصوت الزاجر فشعر بحرارة تشع من أذنيه ووجهه ، وعزم على أن يطرد تلك الذكريات إذا ما ألحت على ذهنه فما فى نبش الماضى وانطلاق العنان للنفس المتقلبة التى تهفو دواما إلى ما لا تملك إلا النكد وجلب المتاعب والأشجان .

وسمع حركة فى الحجرة فالتفت فوجد هدى تنهض من فراشها منقبضة الوجه ، وتهتف فى صوت متخاذل :

ـــ حسين .

فاضطرب وانتشرت فى صدره رهبة ، وأحس كأنما حزرت ما يجرى فى رأسه فقال وعيناه لا تثبتان على شيء :

— ماذا ؟

— أشعر بغيثان .

فقال لها فى رقة مكفرا عن إساءته المستترة التى وقعت فى أعماقه :

— لا بد أن تذهب إلى الطبيب الآن .

وذهب إليها وضمها إليه فألقت رأسها على صدره وقالت :

— ليس هناك ضرورة .

وبقيت مستكينة بين ذراعيه فمال عليها وجعل يقبلها صادقا ليطهر نفسه مما وقع فى خياله ، وراح يسأل نفسه عن شعوره إذا تيقن من أنها تفكر فى رجل آخر كما فكر فى امرأة غيرها فانتفض ، وشعرت برجفته فنظرت إليه بعينيها السوداوين الواسعتين وقالت :

— ماذا بك ؟

فقال وهو يحاول أن يغتصب ابتسامة :

— لا شيء .

وتقلص وجهها وضاقت عيناها وغادرته وهرعت إلى دورة المياه وهو يتبعها بعينيه وفى وجهه تساؤل . وسمعها وهى تقيء فأطرق وبان فى وجهه سهوم ، وأقبلت شاحبة اللون فنهض إليها وقال :

— لا بد أن نتوجه إلى الطبيب .

وارتديا ثيابهما وانطلقا إلى عيادة طبيب قريب من منزلهما ، وقعدا ينتظران وقد لاح فى وجهه القلق فما كان يدرى ماذا جرى لهدى فى الأيام الأخيرة ، وجعل يرتب أفكاره ويفكر فيما يقوله .

ودخلا على الطبيب وكان شابا سمح الوجه فقابلهما متطلق المحيا فهدأت نفس حسين واطمأن إليه . وأشار إلى مقعد وهو ينظر إلى هدى وقال :

— تفضلي .

وقعدت هدى وقال الطبيب :

— خيرا ؟

فقال حسين :

— إنها تشعر بنعاس وغثيان وفقد لشهوة الطعام ، وإذا تناولت طعاما قاءته .

فتوجت شفتي الطبيب ابتسامة ورنا إليه رنوة لم يفهم معناها ، وقال لهدى وهو يشير إلى مقعد طويل عال :

— تفضلي .

وتمددت هدى ، وأخذ يفحص عنها وحسين يشيح بوجهه يلفه قلق وضيق ، والتفت الطبيب إليه وقال وهو يبتسم .

— مبارك .

ولم يفهم حسين شيئا وقال في براءة :

— ماذا وجدت يا دكتور ؟

فانفرجت شفتا الطبيب حتى لاحت أسنانه وقال :

— ستصبح أبا !

واضطرب قلب حسين وأخذت مشاعر الحنان تنبثق في جوفه ، وفاض فرحه فانبسطت أساريره ولمعت عيناه ، ونهضت هدى وقد أسبلت جفنيها ، وأخذ ينظر إليها نشوان ولولا وجود الطبيب لضمها إلى قلبه الفرحان .

وسارا في الطريق الهويني وهو ينظر إليها في وجد بين خطوة وخطوة ، حتى إذا دلفا إلى مسكنهما قال لها في صوت متهدج وهو ينظر في عينيها :

— هدى !

ثم ضمها إليه وجعل يغمغم :

— إني سعيد .

فضغطت على كتفيه وقلبها يخفق كجناح حمامة وترقرقت دموع الفرح فى مقلتيها ، وبقيا مدة وهما غائبان عن الوجود بما يحتمل فى جوفيهما من مشاعر . ثم أخذت هدى تبدل ثيابها وذهبت إلى الفراش فراح يعاونها على التمدد فى رفق .

وقعد إلى جوارها يحادثها فأعارته السمع وتفتح له الفؤاد ، ومر الوقت وفر النهار ووافى ميعاد ذهابه إلى القسم ليقضى نوبته الليلية ، فقال لها وهو ينهض : .

— لو طاوعت قلبى ما غادرتك .

فقالت له مفترة الثغر :

— اذهب فى حفظ الله .

وانطلق منشرح الصدر يغذ السير ويملأ رئتيه بالهواء ، وأشرف على محل الحلوى فلمح صديقه جمالا جالسا وحده ترصدا للغاديات الرائحات ، فذهب إليه وقال له وهو يصافحه :

— أما كلت عيناك ؟

فقال جمال وهو ينظر إليه فى استغراب :

— أيتعب النظر التحديق فى الجمال ؟!

وقعد وبقى حسين واقفا فقال له :

— ألا تجلس ؟

وأراد أن يفضى إليه بالنبأ وينصرف فقال :

— ذاهب إلى القسم فقد تأخرت عند الطبيب .

— ولماذا ذهبت إليه ؟

— كانت هدى تشعر بتعب .

— وماذا وجد عندها ؟

فقال حسين فى زهو :

— سأصبح أبا .

فقال جمال وهو يصافحه مرة أخرى :

— مبارك .

وهم حسين بالانصراف فقال جمال وقد انفرج فمه الواسع :

— أتحب أن يكون ولدا أو بنتا ؟

فأطرق حسين برهة ثم قال :

— كل ما يهب الله لنا فهو خير .

— وإذا جاء ولدا ؟

فقال وهو مشرق الوجه وفى عينيه بريق :

— أدعوه جمالا .

فانفرج فم جمال الواسع وقال :

— وإذا جاءت أنثى .

— أدعوها علية .

وانتبه إلى ما قال فاضطرب وزحفت المشاعر المتباينة إلى صدره ، وخيل إليه أن وجهه يعكس ما فى نفسه فاستأذن وانصرف تراوده رؤى وأفكار .

٣٨

إنه يوم من أيام أغسطس القائظة ، وحسين فى القسم منهمك فى عمله وعرقه يجرى على وجهه وينساب إلى عنقه فيخرج منديله ويجففه ثم يستأنف ما هو فيه من إرهاق ، ومس أذنيه صوت حبيب إلى نفسه فرفع عينيه عن الورق مشرق الوجه منبسط الأسارير ، فقد رأى أمامه أباه بقامته الطويلة وشعره الرمادى المنفوش من تحت الطربوس ، فنهض منشرح الصدر وصافحه فى شوق وقدم إليه مقعدا ثم قعد وهو مقبل عليه وقال له وقلبه عامر بالحب :

ـــ كيف حال أمى الآن ؟

فقال محمود أفندى وهو يتطلع إلى ابنه فى حنان :

ـــ بخير .

ـــ أما جاءت معك ؟

ـــ قلت لها تعالى نزر حسينا قالت ياليت ، إننى لا أستطيع أن أغادر البيت إننى مريضة ، دعونى أموت فى بيتى بسلام .

فقال حسين فى قلق :

ـــ تشكو شيئا ؟

فقال أبوه وهو يبتسم :

ـــ أبدا ، ألا تعرف أمك ؟! إنها تستغيث بالموت إذا أرادت أن تفعل شيئا وتخشى ألا يوافقها عليه أحد ، أو تمتنع عن فعل شىء يلح عليها فيه أحد .

وراح يحاكيها : « دعونى أفعل كذا وكذا قبل أن أموت .. لا أستطيع أن

أفعل كيت وكيت ، إننى مريضة ، إننى أموت » .

فابتسم حسين وقال :

ـــ لو لم تكن مريضة ما تأخرت عن المجىء .

ـــ إنها تهاب أن تغادر البيت ، اعتادت أن تمكث فيه فأصبحت فكرة البعد عنه تقلقها .

وصمت برهة ثم قال :

ـــ إنها عاتبة عليك .

ـــ ولماذا ؟

ـــ مرت شهور دون أن تذهب لرؤيتها .

فقال وهو يدير عينيه فى المكان :

ـــ إننا مرهقون بالعمل ، نعمل فى الصباح وفى العصر وفى المساء ، ونقضى الليل هنا فى انتظار الذين لا يحلو لهم إلا أن يعيشوا فى الظلام .

وراحا يتجاذبان أطراف الحديث حتى إذا وافى ميعاد الانصراف غادرا القسم ، والتفت الأب إلى الابن وقال :

ـــ أقابلك غدا .

وهم بالانصراف فأمسك به حسين وقال له :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى حيث أبيت .

ـــ لن تبيت إلا عندى .

فقال أبوه وقد ازور بوجهه عنه وحاول أن يسير :

ـــ مستحيل .

ولما كان حسين يعلم رقة قلبه فقد قال فى انكسار :

ـــ إننى فى حاجة إلى عونك .

ـــ نتحدث فى ذلك غدا .

ووقف وقد أرهف سمعه ، فقال حسين فى صوت خافت :

— هدى مريضة .

فقال محمود أفندى وهو ينظر إليه فى اهتمام :

— ماذا عندها ؟

فقال فى ارتباك :

— ستصبح جدا عما قريب ، أمرها الطبيب أن تلزم فراشها ، إننى أغادرها فى الليل والنهار وهى فى حاجة إلى من يؤنس وحدتها .

فخفق قلب الأب ولكنه قال متظاهرا بالعناد !

— إنك لست فى حاجة إلى ، إنك فى حاجة إلى امرأة ترعاها وترعى بيتك . ابعث إلى أمها .

وفطن حسين إلى أنه قد لان فقال وهو يجذبه من يده :

— والله لتأتين معى .

فقال الأب وقد انطلقا فى طريقهما :

— مستحيل .

ووقفا أمام الباب ، وأخذ حسين يطرقه فى رفق حتى انفرج عن هدى فى ثوب منزلى بسيط ، فنظر إليها الأب نظرة سريعة فوجدها حلوة رشيقة على الرغم من الشحوب المنتشر فى صفحة وجهها ، وقرأ حسين فى عينيها تساؤلا فقال فى نشوة :

— بابا .

فافتر ثغر هدى عن ابتسامة ترحيب وقالت فى انشراح :

— أهلا وسهلا .

ودخل الأب وتلفت فوجد مسكنا ضيقا ، فما كان إلا غرفتين وردهة ودورة مياه وقد أثث بأثاث متواضع ولكنه نظيف ، وقعدوا يتحادثون وما انقضى قليل وقت حتى صفا قلب الأب ورد إلى طبعه فراح يحادث هدى

متهلل الأسارير ، قال لها :

— كيف وجدت حسينا ؟

فقالت وهى منشرحة وفى عينيها بريق :

— رائعا .

والتفت إليه أبوه وقال فى رقة :

— أصبح رجلا ، وغدا يصبح أبا .. إيه ! كبرنا وصرنا جدودا .

ونظر إلى هدى فألفاها مطرقة ، ولمح فى وجهها غبطة فقال فى صوت شحن حنانا :

— إذا جاء المولود ذكرا سندعوه محمودا .

وخطر له أن قد يكون فيما قاله أنانية فقال :

— أو إسماعيل .

فقالت هدى فى تملق :

— سنسميه محمودا .

وابتسم ورنا إلى ابنه متألق العينين ، وأراد أن يتحدث فألفى نفسه يعود إلى الماضى ، إنه يحن إليه دواما ، قال وهو ينظر إلى هدى :

— كان زوجلك كثير البكاء وهو صغير ، كان يبكى أحيانا من كلمة عارضة ساعات .

فقال حسين :

— لا أذكر أننى كنت بكاء .

فالتفت إليه أبوه وقال :

— أتذكر يوم عدت إلينا من المدرسة تبكى لأن مدرس الحساب ضربك ، فذهبت إلى المدرسة وأنا ثائر أعتزم أمرا .

فقال حسين وهو يبتسم للذكرى :

— أذكر .

وقالت هدى :

ـ وماذا فعلت يومها يا عمي ؟

ـ أخذت أبحث عن ذلك المدرس ، ولكن من حسن حظه أنه كان قد انصرف .

وضحكت هدى واضطرب حسين ، فقد قفزت إلى ذهنه صورة علية وهي تعابث عمها وراحت تتخايل أمام عينيه فنهض وانسحب خافق القلب مضطرب النفس خشية أن يفطنا إلى ما اعتراه .

٣٩

دخل حسين على زوجه قبل أن يخرج فوجد أباه يحادثها وهى تصغى إليه باسمة الثغر ، فشعر براحة وتقدم منها وقال :

ـــ ماذا تتغدى اليوم ؟

فأطرقت هدى تفكر وقال أبوه :

ـــ دعوا لى أمر غدائكم .

فقال حسين كأنما لم يسمع ما قاله :

ـــ سأبعث لكما سمكا .

فقال له أبوه فى زجر :

ـــ لا تبعث شيئا ، سأتكفل أنا بأمر الغداء .

وقال حسين وهو يسير نحو الباب :

ـــ لا تنتظرانى ، إننى أتأخر حتى العصر .

فقال أبوه وهو يبتسم :

ـــ بل سننتظرك .

وذهب حسين وأخذ محمود أفندى يقص على هدى ذكريات الشباب وهو نشوان ، حتى إذا ما أوشكت الشمس أن تحتل كبد السماء نهض وخرج يتولى أمر الغداء .

وعاد يحمل كيسا من الورق به لحم وطماطم وبطاطس ، ودخل إلى المطبخ وتناول وعاء وضع به اللحم وأخذ يقشر البطاطس ، وأقبلت هدى فلما رأته ابتسمت وقالت له :

— دع هذا لى .

فقال لها وهو يعمل :

— لن يطبخ اليوم أحد غيرى .

وأخذت سكينا وتقدمت تعاونه ، فقال لها :

— اذهبى إلى فراشك ولا تجهدى نفسك .

— ليس فى تقشير البطاطس إجهاد .

ومدت يدها وأخذت واحدة ، وقبل أن تعمل فيها السكين مد يده وأخذها منها ، ثم التفت إليها وقال لها وهو يشير إلى مقعد فى المطبخ :

— إذا أردت أن تبقى معى هنا فاجلسى على هذا الكرسى .

ولم تجد مفرا من أن تنفذ أمره فقعدت تنظر إليه ، وراح يقشر البصل فجرت دموعه على خديه ، فابتسمت وقالت له :

— لماذا كل هذه الدموع يا عمى ؟

— أغسل عينى .

وراح يدعك البصل بالملح والتوابل ، فقالت له مداعبة :

— طباخ لا بأس بك .

فقال فى زهو :

— إننى طباخ ماهر .

وشرد ببصره وعاد بذاكرته إلى الماضى فرفت على شفتيه ابتسامة حالمة ، وقال فى انشراح :

— إننى أذكر يوما دعوت فيه أناسا للغداء ، وفى صبيحة ذلك اليوم مرضت زوجتى وعجزت عن مغادرة الفراش فلم أفزع ، دخلت فى هدوء إلى المطبخ وأخذت أعمل ، وما وافى ميعاد الغداء حتى كان على السفرة عشرة أصناف ، وجاء الصحاب وأكلوا وهم يثنون على الطعام .

— أتطبخ يا عمى كل شىء ؟

فقال وهو يهز إصبعه فى الهواء :
— إلا ورق العنب والكرنب .
فأشرق وجه هدى وقالت :
— لماذا ؟
— حاولت أن أطبخهما مرة فانتشر الأرز فى الوعاء وبقى الورق فارغا .
فابتسمت هدى جذلى وقالت :
— وأنا يا عمى لا أتقن طبخهما .
فرنا إليها وقال وهو يهز رأسه :
— الطباخ الماهر لا يحسن طبخهما ؟
فقالت وقد ألقت برأسها إلى الوراء فى غبطة :
— الطباخ الماهر مثلنا .
وجهز محمود أفندى السفرة ، وأقبل حسين فجلسوا يأكلون . وما تناول حسين لقيمات حتى قال متملقا والده :
— طعام لذيذ يذكرنى بطعام أمى .
والتفت إلى هدى وقال :
— تعلم أبى من أمى طهو الطعام و لم أتعلم منك كيف أسلق بيضة .
فقالت هدى وهى تلوى شفتها السفلى :
— ليس الذنب ذنبى . بارك الله فى القسم الذى يلتهم كل وقتك .
وقال محمود أفندى فى بساطة :
— الحقيقة أننى أنا الذى علمت زوجتى .
فقال هدى وقد اتسعت عيناها :
— حقا ؟
— كنت فى صغرى أعاون أمى فى المطبخ ، حتى إنها كانت تتمنى لو كنت بنتا .

فقال حسين فى فزع :

— كفى الله الشر .

ونظرت إليه هدى من طرف عينها وابتسمت ، وقال محمود أفندى :

— أصبح الطهى هوايتى ، فلما تزوجت علمت زوجتى ما تعلمته من أمى .

وراحت الأيام تمر ومحمود أفندى وهدى يتسامران فى الليل والنهار ، فلما جاء يوم رحيله شعرت هدى بشىء من الأسى وقالت تترجم عن عواطفها :

— ستترك فراغا كبيرا فى البيت ، اعتدت أن أراك وأصغى إليك . سأشعر بعد ذهابك بوحشة ، ليتك تبقى يا عمى معنا .

فنظر إليها وفى عينيه رضا ، وربت على كتفها فى رفق وقال فى حنان :

— كان بودى أن أبقى ولكنى لا أستطيع .

وانصرف محمود أفندى وذهب معه حسين ، وبقيت هدى ترقبه وقد انتشرت فى جوفها سحابة خفيفة من الحزن ، كان يؤنسها فى الليل إذا بات حسين فى القسم ويملأ البيت مرحا بالنهار ، ينعش روحها وينزل الطمأنينة بقلبها .

انطلقا إلى المحطة وفى الطريق قال حسين لأبيه :

— ما رأيك فى هدى يا أبى ؟

فانبسطت أسارير محمود أفندى وقال وفى عينيه رضا :

— طيبة ، بنت حلال .

٤٠

كانت هدى تحيك ملابس صغيرة لوليدها المرتقب . وكانت ترفع الملابس بين يديها وتديم إليها النظر فتنتشر فى جوفها إحساسات الغبطة والحنان ، ويخفق قلبها فتضم الثوب الصغير فى وجد إلى صدرها وقد انعكست على وجهها أمارات النشوة ، فقد كانت ترى بعين خيالها نفسها وهى تطوق بذراعيها طفلها الذى ما زال فى بطن الغيب .

وسمعت صوت مفتاح يدور فى الباب ففطنت إلى أن زوجها قد عاد ، فأخذت تجمع الثياب الصغيرة وتخفيها تحت السرير ، ودخل حسين ولمحها وهى تدس لفافة فى عجلة فقال فى عتاب :

ـــ ماذا تخفين عنى ؟

فقالت وقد طأطأت بصرها :

ـــ لا شىء .

ـــ وهل تخفى الزوجة شيئا عن زوجها ؟

ومد يده وأخرج اللفافة فسقط ثوب صغير ، فخفق قلب حسين ومال والتقط الثوب فى رفق وبسطه بين يديه ونظر إليه وقد لمعت عيناه ببريق الفرح ، وقال وهو يهزه فى نشوة :

ـــ أهذا شىء يخفى !

فقالت هدى وقد هزتها فرحة :

ـــ خشيت أن تسخر منى لأنى أصنعها قبل الأوان .

ـــ أسخر منك ؟ ما هذا الذى تقولين يا هدى ؟ إننى أعد الأيام الباقية على

هذه المناسبة السعيدة وأنا مفعم بالأمل ، إننى كلما سرت فى الطريق قلبت عينى فى اللافتات أبحث عن مولدة حتى إذا جاءت الساعة المنتظرة هرعت إليها ألتمس عونها .

وصمت وشرد ببصره وقلبه دائب الخفقان ، وراحت تسعد بإحساساتها ، ومرت لحظات وهما يتبادلان النظر ثم ذهب إليها ولف ذراعه حولها وقال فى صوت يتهدج حنانا :

— أتدرين ماذا حدث هذا الصباح ؟

— ماذا ؟

— رأيت سيارة الروضة أمام بابنا وقد غصت بالأطفال ، فخطر لى أن سيكون لى فى يوم من الأيام ابن بينهم فأحسست جناح حمامة يرفرف فى جوفى وينابيع الحب تتفجر فى صدرى ، فأخذت أتطلع إليهم وقد رنقت عيناى بدموع الفرح .

فقالت هدى فى صوت حالم :

— أتريده ذكرا أم أنثى ؟

— إنى أرضى بما يعطينيه الله .

وساد الصمت بينهما وأطلقا لخيالهما العنان فغابا عن الوجود مدة ، ولما انتبه حسين إلى نفسه قال :

— أوه ! كدت أنسى .

ففتحت هدى عينيها المسبلتين وقالت :

— ماذا ؟

— قابلت جمالا وقد دعانا لنمضى الغد على شاطئ البحر .

خفق قلب هدى فى شدة وأقلعت نشوتها ليحل مكانها قلق ، إنها تضيق بالسويعات التى تجمع بينها وبين جمال ، وخطر لها أن تعتذر لزوجها عن تلبية دعوة صديقه ، أن تدعى أنها مجهدة ، ولكنها وأدت ذلك الخاطر وهى

مضطربة .

وظلت فى قلقها ورهبتها حتى دخلت فراشها وساد الحجرة ظلام دامس فراحت أفكارها تنمو فى الظلام ومخاوفها تتزايد ، واشتدت ضربات قلبها حتى خيل إليها أنها ستوقظ زوجها الراقد إلى جوارها .

وانقضى الليل وما نامت إلا غرارا ، وأشرقت الشمس فنهض حسين نشيطا وقامت هدى وهى تحس كأن مطارق تدق رأسها فدلكت رأسها بيدها وتثاءبت فى نعاس ، فقال لها زوجها .

ــ هيا يا هدى . أزف الميعاد .

ــ عندى صداع .

ــ لا بأس . سينعشك هواء البحر .

وأخذا يتأهبان للخروج ، وصلت آذانهما صوت نفير سيارة جمال فهرع حسين إلى النافذة واضطربت هدى وهرب الدم من وجنتيها وراح قلبها يقفز رهبة ، وعاد حسين إليها وقال :

ــ أسرعى .

وهبطا فى الدرج حسين يقفز فى مرح وقد ملئ نشاطا وهدى تنزل فى بطء زائغة البصر يرفرف قلبها رهبة بين ضلوعها .واستقبلهماجمال وقد ارتسمت ابتسامة ترحيب على فمه الواسع وتألقت عيناه ببريق الغبطة والسرور .

وانطلقت بهم السيارة حتى بلغوا شاطئا هادئا فغادروها وساروا وهم ينظرون إلى مياه البحر التى تغسل رمال الشاطئ ثم تنحسر عنها لتعود لتغسلها ، ووقفوا يملئون صدورهم بالهواء ، ثم راح جمال ينشر مظلته الزاهية الألوان وتقدم حسين يعاونه وبقيت هدى تنظر وما سكنت الطمأنينة صدرها .

وقعدا على الرمال تحت المظلة واستنشق حسين الهواء فى قوة وقال :

ــ ما أجمل أن يحيا الإنسان حرا لا تكبله القيود ولا تثقل صدره الهموم .

وابتسم جمال وقال :

ــــ إنك اليوم طليق فار من القسم .

فقال حسين وهو يزفر الهواء فى شدة :

ــــ لا يعرف قيمة الراحة إلا من حرم الراحة ، إننا نهفو إلى ساعة من هذه الساعات إذا ثقل علينا العمل المضنى الشاق .

وصمت قليلا وشرد ببصره ، ثم قال :

ــــ تراودنى فكرة مجنونة .

فقال له جمال :

ــــ ما هى ؟ .

ــــ أفكر فى أن أقوم وأعدو فى الفضاء حتى أسقط على الرمال من الإعياء .

ــــ هيا حقق ما تهفو إليه نفسك .

وتلاقت عينا حسين بعينى هدى فألفاها تنظر إليه فى عتاب ، فهبطت حماسته .. كانت تخشى أن يقوم ويعدو كالأطفال ويتركهما وحيدين وهى ترتجف فرقا من فكرة الانفراد بجمال .

راح حسين يتلفت فى مرح ، والتقت عينا جمال بعينى هدى وكانا يتقدان شررا فاستيقظت مخاوفها وغضت من بصرها وأخذ قلبها ينزف إحساسات الرهبة حتى ملأت جوانحها .

وساد الصمت ولم يكن يسمع إلا النسيم ولطمات الموج للشاطئ ورأى حسين أن يدير الحديث فالتفت إلى جمال وقال :

ــــ لماذا لم تتزوج ؟ .

فقال جمال وقد تلاقت عيناه بعينى هدى وارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة :

ــــ قسمة .

وارتجفت هدى وتدفقت دماؤها حارة فى عروقها وودت لو أن زوجها يسكت ، ولكن حسينا قال :

— حاولت وأخفقت ؟

فقال جمال وهو ينقل بصره بين حسين وزوجه :

— عرفت فتاة رشيقة ممشوقة سوداء الشعر واسعة العينين ، ودامت صداقتنا مدة ثم افترقنا .

راح قلب هدى يقفز فى صدرها فى جنون حتى خيل إليها أنه سيفر من فيها وبان فى عينيها فزع ولو أن زوجها التفت إليها لفطن إلى ما اعتراها ، ولكنه أقبل على صديقه وقال له :

— ولماذا لم تتزوجها ؟

— لم أكن أحسب أنها تستطيع أن تكون زوجة .

— لماذا ؟

— كانت كل القرائن توحى بأنها لا تصلح إلا أن تكون رفيقة .

— لعلك ظلمتها .

— إنى ظلمت نفسى ، اكتشفت بعد فوات الأوان أننى أهواها .

خفق قلب حسين وصمت ، وساد السكون وأطرق كل منهما يفكر فى أمره ، وكانت هدى تنتفض وتلتقط أنفاسا مضطربة ، وراح جمال يرنو إليها وفى عينيه لوعة .. ولاح لحسين خيال علية ، إنه يرى طيفها يخطر فى ذهنه فتتدفق دماؤه الحارة فى عروقه ويشتد وجيب قلبه ، ويشغل عما حوله بالدنيا القائمة فى رأسه التى تشتهيها ويهفو إليها فؤاده .



إني ظلمت نفسي ، اكتشفت بعد فوات الأوان أنني أهواها

(النقاب الأزرق)

٤١

وتقضت الشهور وحسين يعطف على هدى ويغمرها بحنانه ويحدثها عن المستقبل حديث الأمل .. كان يرضى عن نفسه كلما حدب عليها ، وما كان يكدر صفو الليالى إلا خيال عليه الذى كان يلح على ذهنه فيتنابه قلق ويدثره اضطراب ، وكان يزيد فى قلقه أنه يسترسل فى متابعة ما يجرى فى رأسه من أفكار .

كان يفزع إذا طافت صورة عليه برأسه فيأخذ قلبه يدق فى رهبة ، ويحاول جاهدا أن يطرد صورتها وهو يتفزع يحس فى قرارة نفسه إحساس المقبل على ارتكاب جريمة لأول مرة فى الظلام ، واعتاد على مر الأيام أن يعيش معها فى فكره لحظات ينعم بلذيذ الإحساسات ، حتى إذا ذهبت أحلام اليقظة هب ضميره يزجره فيأخذ قلبه فى الخفقان وصدره فى الانقباض .

ويحس وجود هدى الراقدة إلى جواره فيتودد إليها تودد من يشعر بأنه ارتكب فى حقها ذنبا عظيما ، ويغمرها بعطفه ويغرقها بحنانه ولا يدعها إلا بعد أن يقلع قلقه وينتشر فى صدره راحة واطمئنان .. وتمر الليالى والأيام هادئة رتيبة ، حتى إذا عاد طيف عليه الزائر ليحتل رأسه لحظات ثم يولى الأدبار فى دلال ، عاد زجر الضمير وعاد التودد إلى هدى وإغراقها بالعطف والحنان .

وراح جمال يزورها فى البيت يمضى عندهما أمسية الشتاء يلتهم هدى بعينيه النهمتين . وكانت تغض من بصرها كلما تلاقت عيناها بعينيه منقبضة الصدر فما كانت ترتاح إلى زياراته المتكررة التى تقلب طمأنينتها قلقا وتزلزل نفسها

وتبذر فى جوفها بذور الرهبة والاضطراب .

وفى ليلة من الليالى عاد حسين من عمله فألفى هدى تتلوى فى الفراش ، فهرع إليها وقال لها فى لهفة :

— ما بك ؟

فقالت والدموع تجرى على خديها :

— أحس كأن مطرقة تدق فى ظهرى .

وتلفت فى حيرة ، لم يكن يدرى ماذا يفعل وحده فى الليل الهاجع وامرأته تتلوى فى الفراش كثعبان ، وخطر له أن ينطلق لاستدعاء مولدة ولكن لم يطاوعه قلبه أن يتركها وحيدة فبقى إلى جوارها وقد اشتد وجيب قلبه وراح ينظر شارد البصر .

وأنت أنة شعر بها كخنجر يمزق نياط قلبه ، فهب من جوارها وذهب يهرول إلى جيرانه يطرق عليهم بابهم. صك الطرق أذنيه رهيبا فوقف يرتجف، ومر الوقت بطيئا وفتح الباب عن رجل فى ثياب النوم يفرك عينيه وفى وجهه هلع ، فلما رأى حسينا أمامه نظر إليه فى تساؤل المدهوش فقال حسين فى صوت متهدج :

— آسف لإزعاجكم فى هذه الساعة ، زوجتى تضع وليس عندى أحد .

وغاب الرجل عن عينيه دون أن ينبس بكلمة ، ومرت لحظات خالها حسين دهرا ، وأخيرا أقبلت جارته وقد وضعت على كتفيها معطفا منزليا وهرعت إلى زوجته فأحس شيئا من الراحة ، فلن يكون وحده مع زوجته التى تعض الفراش وتصرخ صرخات تزلزل كيانه .

وبقى يغدو ويروح فى الردهة مضطربا لا يجرؤ على أن يقتحم عليها حجرتها ، فما كان يطيق أن يراها وهى تئن من الألم وترنو إليه بعيون زائغة بللتها الدموع ، ولمح جارته قادمة نحوه فاضطرب فرقا ونظر إليها قلقا ، وسمعها تقول له :

— لا يمكن أن ننتظر طلوع النهار ، لا بد من استدعاء الطبيب .

غادر المكان دون أن يتفوه بكلمة وهبط الدرج وهو مشغول باضطرابه ، وانطلق فى جوف الليل يغذ السير ، وخيل إليه أنه لا يقطع أرضا فراح يعدو ويلتقط أنفاسه حتى إذا بلغ دار المولدة أخذ يطرقه وصدره فى علو وانخفاض .

ولمح سيارة قادمة فأشار لها وطلب من سائقها أن ينتظره ، واستدعى المولدة وما دخلت فى السيارة حتى طلب من السائق أن ينطلق إلى داره . كانت الشوارع خالية فراحت السيارة تنهب الأرض وهو يحث سائقها على الإسراع ، كان يتمنى أن يغمض عينيه ليرى نفسه إلى جوار زوجه التى يتجاوب أنينها فى أصداء نفسه .

ووقفت السيارة وهبط منها والقلق يتردد بين جنبيه ، وراح يصعد فى الدرج وهو يحس روحه تكاد تفر من فيه فقد كان فريسة للمشاعر الثائرة المتباينة التى أخذت تمور فى صدره ، ودخل شقته ووقف ينظر إلى المولدة وهى تنساب إلى حيث رقدت هدى وقلبه يطفو ويغوص ، وبقى مدة يمد بصره من بعيد ، ثم ذهب إلى مقعد وارتمى فيه مرهف الحواس مبهور الأنفاس .

وخرجت جارته من الغرفة فرف قلبه ونهض وهو يتطلع إليها فى قلق ، وقرأت حيرته فى عينيه فابتسمت له مشجعة ، فلم يهدأ قلقه وسألها فى صوت خافت مرتجف :

— كيف هى الآن ؟

فقالت له فى رقة :

— بخير .

وذهبت إلى المطبخ ووضعت وعاء به ماء على النار ، ثم عادت إلى غرفة هدى وأغلقت خلفها الباب .

وارتفع صراخ هدى فأحس وخزا يحز قلبه فنهض من مقعده وراح يقطع الردهة جيئة وذهوبا وقد ارتسم فى وجهه الألم ، وجعل يضرب كفه بقبضته

ويمرر يده على شعره فى حيرة ويقضم أظافره بأسنانه ثم يرتمى فى مقعده ، وما يستقر فيه لحظات حتى يقوم ويجعل يغدو ويروح وقد عقدت فى صدره عقدة ضيقته وكتمت أنفاسه .

وراح الزمن يمر وئيدا بغيضا ، إنه يحس مرور الثوانى واللحظات ويسمع دبيب النمل ويتحلب قلقه فى مرارة ، وكاد ينفد صبره ويقرع الباب يسأل عن زوجه التى خفت أنينها ولكنه عاد وارتمى فى مقعده وقد دفن وجهه فى راحتيه .

وارتفع صراخ الوليد وهو يبكى ومس الصوت الملائكى أذنيه . فانتفض سرورا وقد أقلع قلقه وأحس عواطف جديدة من الحنان تسكب فى جوفه ، ودنا من الباب مرهف السمع وقلبه يخفق فى هيام .

وفتح الباب وخرجت جارته تهرول وتقول فى انشراح :

ـــ مبارك .. مبارك .

وغابت فى المطبخ ثم عادت تحمل طستا به ماء ساخن ، ودخلت الغرفة وأغلقت خلفها الباب .

سكنت الطمأنينة صدره وانقشع قلقه وانبسطت أساريره ، وفكر فى أنه أصبح أبا فرفت على شفتيه ابتسامة عذبة ، وهفا قلبه إلى رؤية صغيره الذى كان عويله يفجر فى نفسه ينابيع الشفقة والحنان .

وفتح باب الغرفة ولاحت جارته فأسرع ليدخل على هدى ، ولاحظت المرأة لهفته فقالت له وقد افتر ثغرها عن ابتسامة شحنت حنانا :

ـــ تريث قليلا حتى تنتهى من لفه .

راح يمرر يده على وجهه فى هدوء كأنما كان يمسح ما تخلف عليه من القلق والفزع ، وأقبلت المولدة متهللة الوجه وقالت وهى تشير إلى حيث ترقد هدى :

ـــ تفضل .

وتقدم خافق القلب حتى إذا التقت العيون لمعت عيناه وأخذت مشاعر الوجد تنتشر فى جوفه ، فمال عليها وقبلها قبلة أودعها الإحساسات المتدفقة فى صدره ، والتفتت إلى طفلها الراقد إلى جوارها ثم نظرت إليه فى حب وقالت له فى سرور :

— انظر إلى محمود .

فرنا إلى الوليد وهو فرحان .

٤٢

انحنى على الطفل وأخذ يداعبه وهو منشرح الصدر غارق فى النشوة يحس إشراقا فى نفسه وخدرا لذيذا يسرى فى روحه ، وراح يديم النظر إلى وجه الصغير وقلبه ينبض فى حنان ، وقال لزوجه وهو يعبث بإصبعه فى خد ابنه وهو جذلان :

ـــ أما لاحظت شيئا ؟

فقالت وهى ترنو إلى ابنها فى هيام :

ـــ مثل ماذا ؟

ـــ عينيه .

فقالت وقد أشرق وجهها بابتسامة :

ـــ آه ، إنهما مثل عينيك .

فقال فى فرح :

ـــ هذه العيون عيوننا .

فقالت وهى تتطلع إليه فى حب :

ـــ العيون الزرق .

ومال عليها وأخفى وجهه فى شعرها الفاحم وغمغم :

ـــ ورث عنك هذا الشعر الأسود ، سيكون رائعا : عينان زرقاوان وشعر كالمخمل الحالك السواد .

تألقت عيناها ببريق جذاب وقالت له مداعبة :

— أتحبه يا حسين ؟

فقال فى انفعال وهو يشير إلى ابنه النائم كملاك :

— ما كنت أحسب أننى سأحب شيئا فى الوجود حبى لهذا الشىء .

واستيقظت أبوته فراحت مشاعر الحنان تتدفق فى جوفه ، فقال وهو شارد البصر وقد ارتسمت على وجهه الانفعالات التى ترسم على وجهه الغارق فى حلم بهيج :

— ما ألذ أن يصبح الإنسان أبا .

فقالت هدى فى انشراح :

— إنه ذوب روحينا .

قال حسين وهو ينظر إليه متفتح الفؤاد :

— كبر محمود .

فقالت هدى وقد افتر ثغرها عن أسنانها البيضاء :

— نعم كبر ، أصبح عمره سبعة أيام .

— سبعة أيام ؟ سنحتفل بذلك .

— وماذا نفعل ؟

فقال لها وهو يمرر يده على شعرها :

— ماذا كانت أمك تفعل لو كانت الليلة هنا ؟

فضحكت هدى وقالت :

— كانت تدق له الهاون وتضع شمعة منيرة طوال الليل عند رأسه .

— ولماذا تدق له الهاون ؟

— ليعتاد الجلبة ، فإذا سمع ضوضاء لا يفزع .

— وما الحكمة فى وضع الشمعة عند رأسه ؟

— لتنير له الطريق إلى السعادة .

فقال وهو منطلق إلى المطبخ :

— سأدق له الهاون ، وأنير له الشمعة .

وعاد وهو يحمل الهاون ويدقه فى رفق فينبعث منه رنين خافت ، ودنا من ابنه فألفاه يتثاءب فانطلق يدق الهاون فى مرح وهدى تتطلع إليه متهللة الوجه ، وفاضت سعادتها فقالت له :

— ألا توصيه ؟

— وبماذا أوصيه ؟

— قل له : اسمع كلام أمك ، اسمع كلام أبيك .

وأغرقت فى الضحك ، فقال حسين وهو يبتسم :

— سأقول له وإن كنت على يقين أنه لن يفعل .

وجعل حسين يدق الهاون ويوصى ابنه وصدره يعلو ويهبط كرجل ينشد فى ذكر ، وارتفعت جلبته المرحة ودوت فى الغرفة وهدى ترمقه بعينيها الواسعتين وقلبها يرقص فى جوفها طربا .

وأصاخت إليه ثم أشارت له أن يكف ، فقال لها وهو مستمر فى دق الهون :

— ماذا جرى ؟

— أسمع طرقا على الباب .

فوضع الهاون وذهب ليرى من الطارق فى هذه اللحظة التى أدبر فيها النهار ، وما فتح الباب حتى علا ترحيبه :

— أهلا وسهلا .. أهلا .

ومدت هدى رأسها وهى فى فراشها فلمحت جمالا وهو يلج من الباب وتحت إبطه صندوق كبير ، فأحست عدم راحة وجعلت تسوى غطاءها حتى لا يبدو منها شىء . ودخل عليها وقد انفرج فمه الواسع وقال لها وهو يقعد على كرسى قريب منها :

— حمدا لله على السلامة .

فغمغمت بكلمات لم يتبينها ، ودفع إليها بالصندوق فوضعته على ساقيها من فوق الغطاء . ودق قلبها فى صدرها وزاغت عيناها و لم تمد يدها لتفتحه ، ونفد صبر حسين فقام وراح يفك الربط الحريرية ، ورفع غطاء الصندوق فوقع بصره على مجموعة من الثياب الصغيرة فأخذ يرفعها قطعة قطعة وهو مسرور ، والتفت إلى جمال وقال له :

ــ شكرا لك على هديتك الرائعة ، ترد لك فى الأفراح .

فقال جمال وعيناه تجوبان فى وجه هدى :

ــ إنها هدية متواضعة .

وقام حسين ليقدم لصديقه شيئا ، وغادر الغرفة وتركهما وحيدين فمال جمال نحوها وقال وقد ضيق عينيه :

ــ هذه الهدية تعيد إلى ذهنى ذكرى .

ورمقها بنظرة فاحصة فخيل إليه أنها تضطرب ، فقال فى صوت خافت :

ــ كنت فى يوم من أيام سعادتى أسير فى شارع فؤاد الأول أنا وصديقة ، ووقفنا أمام معرض للأزياء ننظر ، وخطر لى خاطر فالتفت إلى صديقتى وقلت لها : « ستعلن ترقيتى بعد يومين ، فماذا تحبين أن أهدى إليك فى هذه المناسبة ؟ » فرمقتنى بعينيها السوداوين الواسعتين فى تساؤل كأنما لم تصدق قولى ، فأكدت لها أننى أنوى أن أهدى إليها شيئا فى هذه المناسبة ، فأشارت إلى ثوب من الثياب المعروضة .

وترقيت و لم أف بوعدى بل ذهبت و لم نتقابل ، وبعد سنوات التقينا وكشفت بعد فوات الأوان أننى خسرت كثيرا ، ومن ذلك اليوم عزمت على أن أهدى إلى أصدقائى ثيابا كلما جاءت مناسبة لعلنى أكفر عن خطأ ارتكبته قوض سعادتى .

واضطربت هدى وانتشرت الرهبة فى صدرها ، و لم تقو على أن تتلقى نظراته الحارة فأسبلت جفنيها ، ورماها بنظرة والهة وقال :

— ليتنى لم أذهب ، ليتنى لم أقطع بغرورى حبل الوداد .

فقالت هدى فى صوت خافت مضطرب :

— لعل ذهابك كان من حسن حظها .

فقال فى مرارة .

— ولكنه كان من سوء طالعى .

— لماذا تنبش الماضى ؟ دع الماضى فى أكفانه .

— كيف لا أذكره وقد طعنت فيه قلبى بيدى .

ومس أذنيه صوت حركة فالتفت خلفه فرأى حسينا مقبلا يحمل صينية عليها فلجان يتصاعد الدخان منه ، فقال له :

— لماذا هذا التعب ؟

— إنه فلجان من المغات .

وتناول جمال الفلجان ، وقبل أن يرفعه إلى شفتيه نظر إلى حسين وقال :

— كنت أذكر لهدى طرفا من غرامى الفاشل .

وارتجفت هدى واتسعت عيناها رعبا ، ولو وقعت عينا حسين عليها لفطن إلى الرهبة التى لاحت فى وجهها ، ولكنه قال لجمال وهو يبتسم :

— لعلك قصصت عليها قصة مثيرة زخرفها خيالك .

فقال جمال وقد لوى شفته السفلى :

— إنها قصة قلب احترق بلا نار .

فقال حسين وهو يرمق صديقه فى دهش :

— كيف احترق بلا نار ؟

— ترك دون أن يغذى بالحنان حتى تعفن .

فقال حسين همسا :

— لو احترق قلبك ما قفز فى رعونة كلما شم رائحة فتاة .

فقال جمال وقد رفع الفلجان إلى فمه :

— إنه يقفز طلبا للنجاة .

وتبادل الصديقان النظرات وابتسما ، على حين بقيت هدى مطرقة تقاسى وخز الإحساسات التى انطلقت تزمجر فى جوفها كمارد جبار ، كانت تحس كأن يدا قوية تعصر قلبها ، وتكتم أنفاسها .

وأستأذن جمال وانصرف وبدأ القلق ـ الذى ران على هدى ينقشع ، وقام حسين وأخرج شمعة كبيرة ، فقالت هدى وهى تنظر إليه فى عجب :

— من أين جئت بها ؟

— اشتريتها ، أتحسبين أننى لم أذكر أن اليوم هو السابع لمولد محمود ؟

وأحضر قلة ووضع الشمعة فى فمها ، وذهب وأطفأ جميع الأنوار ثم عاد وقدح عود ثقاب وأضاء الشمعة ، فانبعث ضوءها يبدد ظلام الغرفة وينير لابنه طريق السعادة .

٤٣

الناس يغدون ويروحون على الكورنيش فقد جاء الصيف وهرع المصطافون إلى البحر يغرقون فيه المتاعب والهموم ، وسار حسين وجمال يتحدثان وينعمان بالهواء الذى يهب رخاء ينعش النفوس .

ولمح جمال فتاة رشيقة لا يكاد ثوبها الأبيض الرقيق يخفى مفاتنها فراح ينظر إليها ويتبعها بعينيه حتى اختفت فى الجموع المتلاطمة المتدفقة على الكورنيش ، فالتفت إلى حسين واستأنف حديثه ، وما سارا خطوات حتى لمح شابة ناهدة الصدر حلوة جذابة فأخذ يتبعها النظر . وقد التمعت عيناه ببريق وارتسمت على فمه الواسع ابتسامة ، وجعل حسين يرمقه ثم قال له :

ـــ ما بال صاحب القلب المتعفن يهفو إلى الجمال ؟

فقال جمال وهو يحدق فى فتاة :

ـــ أمتع عينى .

ـــ وقلبك ؟

ـــ مكفن فى جوفى .

ـــ بل يرقص فى رعونة الشباب .

فقال جمال وقد شرد ببصره :

ـــ يخيل إلىّ أن قلبى استنفد حيويته .

ـــ أوهام .

ـــ لم تعد له القدرة على الخفقان ، إنه ينبض لحظات إذا وقعت عيناى على جمال وسرعان ما يعود إلى الاستكانة والهدوء .

— هذا حالك فى الطريق ، فما حالك إذا انفردت بنفسك فى الليل ؟

فقال جمال وقد رمى ببصره إلى البحر :

— ما أسبل جفنى حتى تتتابع فى ذهنى حياتى التى عشتها فى القاهرة ويأخذ قلبى يرف بين جنبى ، فما عاد يخفق إلا للذكريات .

— وتحتل فكرك فتاة بعينها ؟

— فتاة قابلتها مصادفة فى الطريق ، فلما تلاقت أبصارنا قرأت فى عينيها نداء ورأيت على شفتيها ابتسامة ترحيب ، فسرت إلى جوارها أحادثها همسا . وما قطعنا أمتارا حتى كنا نتجاذب أطراف الحديث كأنما كان كل منا يعرف الآخر من سنين . وترادفت مقابلاتنا وتكررت سهراتنا ، وفى يوم من الأيام أحسست رغبة فى أن أفر منها ، أن أهجرها بعد أن ملأتنى بالنشوة ، كنت كالمكتظ الذى يفر من مائدة عامرة تشتهيها النفوس . ومرت ثلاث سنين وفى ذات يوم رأيتها أمامى تسير فدق قلبى فى قوة وهفت إليها روحى ، وما خلوت بنفسى حتى كانت صورتها تحتل أقطار رأسى وراح طيفها يزورنى فى الليل والنهار ، وبرح بى الوجد فعزمت على أن أعود إليها أبثها حبى وألتمس منها الوصال لأطفئ اللهب المندلع بين الأحشاء .

قابلتها فأعرضت عنى ، حاولت أن أبثها لواعج نفسى فلجت فى الصد ، فراح قلبى ينزف أسى حتى خمد وكفنه اليأس المرير .

— لعلها خشيت أن تلعب بها كما لعبت بها من سنين ، لو أنك طلبت يدها لجاءت إليك تنفخ بأنفاسها الحارة جمرات قلبك فتتأجج نار الصبابة فى الضلوع .

فقال جمال وقد أطرق برأسه :

— تزوجت بعد أن هجرتها .

— أكنت تريدها أن تنتظر حبيبا فر بعد أن عب الكأس !

— ليتنى اكتشفت أنى أحبها قبل أن تتزوج .

فقال حسين فى صوت عميق :

ـــ إننا لا نشتهى الشىء إلا بعد أن يتسرب من أيدينا .

واضطرب وأحس قلقا يمشى فى جوفه ، وخشى أن يستسلم لذلك القلق الذى راح يزحف فى نفسه فالتفت إلى جمال وقال :

ـــ أكنت تتزوجها لو لم تكن متزوجة ؟

ـــ ما فى ذلك شك .

ـــ على الرغم من أنك عرفتها فى الطريق ، وعلى الرغم من أنك كنت تمضى الليالى معها ؟

ـــ على الرغم من كل شىء .

ـــ حتى ولو كان لها ماض .

ـــ وماذا يهمنى من ماضيها ؟ إننى أطلب الحاضر . كل ما أبغيه أن تكون لى وأن أحبها وتحبنى .

فقال حسين فى فزع :

ـــ هذا مجرد كلام تقوله فى سهولة لأنك على يقين من أنك لن تتزوجها ، أما إذا كنت تعلم أنك ستتزوجها فما كنت تتفوه بلفظ من هذا ، ما أبشع أن يكون للزوجة ماض .

فقال جمال فى هدوء :

ـــ هذه أنانية ، كلنا له ماض فلماذا لا ندع للزوجة ماضيها ؟

فقال حسين وهو يشير له بيده أن يسكت :

ـــ كفى أرجوك ، إن هذا الحديث يهيج نفسى .

فنظر إليه جمال وقد ضيق حدقتيه وقال :

ـــ ألم تحب قبل أن تتزوج ؟

وانتفض حسين وخفق قلبه فى جنون ، وتدفقت دماؤه فى عروقه وراحت تجرى فى شرايينه كنهر يتدفق من نار ، وقال فى ارتباك :

— أبدا .

فغمغم جمال وقد طأطأ بصره :

— مستحيل .

وسارا صامتين . كان كل منهما مشغولا بما يتيت فى ذهنه من ذكريات ، جمال يفكر فى ليالى القاهرة وحسين يفكر فى علية والزمالك والخميلة وجزيرة الشاى والقناطر الخيرية ، واحتلت رأسه عيناها الزرقاوان وشعرها الذهبى وابتسامتها الرقيقة فخفق قلبه فى قلق وهفت روحه إلى تلك الأيام ، وانطلق يجتر الذكريات وفى صدره اشتهاء .

وقفز إلى مسرح خياله صورة ابنه فأشعت ضياء مشرقا بدد الظلام الذى ران على كهف صدره وولدت إحساسات حنان بهرت ما عداها من إحساسات ، فرفع رأسه وقد انبثق من عينيه الحنان ورفت على شفتيه ابتسامة شحنت رقة وانشراحا .

٤٤

وقف يدق الباب دقات متتابعات ، ثم تذكر أن معه مفتاحا فمد يده فى جيبه وأخرجه ، وقبل أن يضعه فى الثقب انفتح الباب ولاحت هدى وعلى ذراعها محمود ، فمد يديه وحمله ودخل هو منبسط الأسارير ، وراح يدور بابنه فى الردهة وهو يقول فى فرح :

ـــ ظهرت حركة التنقلات ، سنغادر الإسكندرية بعد أيام .

فقالت هدى فى لهفة :

ـــ وإلى أين نذهب ؟

فقال وهو يضم ابنه إليه ويدور به فى مرح :

ـــ إلى القاهرة ، فقد نقلت إلى بندر الجيزة .

فصمتت هدى وأخذت تجول بعينيها فى المكان وقد تجهم وجهها ، فالتفت إليها فعجب لهدوئها فقال فى استغراب :

ـــ مالى أراك ساهمة ، كأن هذا الخبر لا يسرك ؟

فقالت هدى فى صوت متهدج :

ـــ كنت أتمنى أن تعود إلى القاهرة ، وكنت أنتظر اليوم الذى تزف فيه إلىّ بشرى العودة إلى أهلنا ، ولكن ما إن سمعت منك أننا سنغادر هذه الدار حتى انقبض صدرى .

إننى أحببتها ، أصبحت بضعة منى ، إنها عش سعادتى ومسرح ذكرياتى ، عزيز على أن أهجرها .

وسارت مطرقة وهو فى أثرها ، حتى دخلت غرفة النوم فأدارت عينيها فى

المكان وقالت :

— إن قلبي ليهفو إلى كل قطعة هنا ، هذا الكرسي وهذا الصوان وهذه النافذة ، إنى لأحمل لكل منها أمتع الذكريات ، فيا طالما قعدت فى سكون الليل إلى هذه النافذة أرصد مقدمك وقلبي يدق فى وجد وفكرى يجرى وراء الرؤى العذاب ، ويا طالما وقعت عيناى على ما أمامى من مشاهد حتى ألفتها ، يخيل إلى أنى لا أطيق أن أعيش بعيدة عن هذا الجو الذى ترتاح إليه نفسى .

فذهب إليها ولف ذراعه حولها وضمها ومحمودا إليه ، وقال لها فى رقة :

— إننا بطبعنا نحنّ إلى ما نحن فيه ونخشى المجهول وإن كان فيه نصرنا .

فقالت له وقد افتر ثغرها عن ابتسامة :

— إننى لا أخشى شيئا ما دمت إلى جوارى ولكننى أحن إلى أرض سعادتى ، لن أنسى أبدا أن هنا تفتح قلبى مرتين .

فقال حسين فى استغراب :

— مرتين ؟

فقالت وهى ترنو إليه فى دلال :

— أجل ، مرة لك ومرة لمحمود .

فقال حسين وقد شرد ببصره :

— ما أسرع مرور الزمن ! مرت سنتان .

فقالت هدى فى رقة :

— تقضتا كحلم جميل .

وصمتا وراح كل منهما يسعد بالذكريات التى أخذت تطفو على سطح ذهنه ، ومد حسين بصره إلى الباب وقال فى صوت خافت .

— إنى أرى نفسينا ونحن نلج هذا الباب لأول مرة ، كان الظلام يلف كل شيء ، وكان صدرانا ملتصقين وقلبانا يقفزان فى وجد وراحت شفتاى تبحثان عن شفتيك ، وإننى لأرى ليلتنا الأولى فى خيالى واضحة وضوح

النهار ، وإننى لأحس كل عاطفة أحسست بها فى تلك الليلة الرائعة .

ورفع بصره ونظر إلى سقف الغرفة وغمغم :

ـــ ألا ما ألذ الذكريات ! .

فقالت هدى فى وجد وهى تدور بعينها فى المكان :

ـــ يحز فى نفسى أن أغادر الماضى الحبيب .

ـــ سيأتى يوم يصبح فيه المستقبل ماضيا نذكره فى شوق كما نذكر الآن ماضينا .. من يدرى يا هدى ما يخبئه لنا الزمن فى طياته من سعادة وهناء ؟!

وسمع طرقا على الباب فدفع ابنه إليها وهو يقول :

ـــ جاء جمال .. تواعدنا بالأمس على أن نتقابل هنا .

ودخل جمال وذهب إلى غرفة الاستقبال المتواضعة وهو يسأل حسينا بصوت عال :

ـــ كيف حال محمود اليوم ؟

ـــ بخير .

وأقبلت هدى ومحمود على ذراعها ، فلما وقعت عيناها على جمال أومأت له برأسها فرد عليها تحيتها بابتسامة ، ونهض وذهب إليها وأخذ منها ابنها وجعل يداعبه وهى واقفة ترنو إلى صغيرها الذى أشرق وجهه بابتسامة كانت ندية على قلبها .

ولم يطق حسين أن يصبر على الإفضاء بالخبر الذى شغله طول يومه ، فنهض وسار حتى وقف إلى جوار صديقه وقال له :

ـــ أبلغك الخبر ؟

فقال جمال وقد اتسعت عيناه :

ـــ أى خبر ؟

ـــ ظهرت حركة التنقلات .. وقد نقلت إلى الجيزة .

فقال جمال وهو يدفع محمودا إلى أمه :

— مبارك !

وقعدوا ، وأطرق جمال لحظة ثم قال فى أسى :

— إن هذا النقل يسعدكم إلا أنه يسوءنى .

والتفت عيناه بعينى حسين فرأى فيهما عطفا ، فغض من بصره وقال فى صوت خافت فيه رنة حزن :

— إننى سيئ الحظ .

والتفت إلى هدى واضطربت أهدابه وقال فى مرارة :

— إذا هبطت علىّ السعادة فررت منها ، وإذا هبطت على السعادة فرت منى ، عشت هنا وحيدا أقاسى الكآبة والسأم ، حتى إذا مستنى يد الرحمة وعرفتكم تبددت كآبتى وسكنت الطمأنينة صدرى وأصبحتم سعادتى ، وكأنما عز على زمنى أن أهدأ وأسعد فدبر نقلكم إغاظة لى .

وأطرقت هدى ، وتشاغلت بمداعبة ابنها وإن كان الاضطراب يلفها .. وأحس حسين عطفا نحو صديقه فقال مواسيا :

— يعز علينا فراقك ، إنى لأحس فى أعماق أننا سنتقابل قريبا فى القاهرة .

ورنا جمال إلى هدى فألفاها تشيح بوجهها عنه ، وحزر أن هذا الحديث يضايقها فقال لينهى الحديث :

— ومتى تسافرون ؟ .

— يوم الخميس .

— سأمر عليكم لأحملكم إلى المحطة .

وتركهم وانصرف وهدى تتبعه بنظرها وهى تحس لأول مرة راحة لتركها الإسكندرية .

وجاء يوم الخميس وأقبل جمال فى سيارته وحملهم إلى المحطة ، ووقفوا إلى جوار القطار يتحدثون حتى إذا وافى ميعاد الرحيل صافح جمال حسينا فى حرارة ومد يده إلى هدى ، فلما وضعت يدها فى يده ضغط عليها فى وجد

والتمعت عيناه ببريق أخاذ ، ومال على محمود وطبع على خده قبلة .

ووقف حسين وهدى فى النافذة ، وتحرك القطار فأخذ جمال يهز لهما يده فى الهواء مودعا وحسين يرد عليه تحيته بهز يده ، وأشرق وجه هدى بابتسامة هادئة فقد شعرت كأن كابوسا انزاح عن صدرها .

٤٥

انسابت السيارة فى شارع الملكة نازلى وفلول النهار تنسحب مدحورة ومصابيح النور تزاحم بقايا الضياء الذى كان ينقشع عن الأرض قبل أن يتركها لظلمة الليل ، وحسين ينظر من النافذة وهو يحس راحة ، فقد كانت عودته تسره وتهز مشاعر الحنان فى نفسه .

والتفت إلى هدى فألفاها تضم محمودا إليها وقد شرد ذهنها وانعكست على صفحة وجهها آى الغبطة ، فقال فى انفعال :

ـــ أتذكرين يا هدى يوم خروجنا فى مثل هذه الساعة لنسافر إلى الإسكندرية لا ندرى ما ينتظرنا فى غدنا ؟

فقالت هدى وهى تبتسم فى رقة :

ـــ إن مشاهد ذلك اليوم تحتل رأسى وتتتابع فى ذهنى فى رقة تتفتح لها نفسى .

ـــ ذهبنا اثنين وعدنا ثلاثة .

فقالت وهى تمرر خدها على خد ابنها فى هيام :

ـــ عدنا بالحبيب .

وهفا قلبه فحمله ووضعه على ساقه وراح يداعبه وهو نشوان ، ومحمود ينظر إلى اليمين وإلى الشمال ، فقالت هدى :

ـــ إنه يتلفت كالغريب .

فقال حسين وهو يدلك أنفه بأنف ابنه :

ـــ أصبح غريبا مثلنا .



فالتفت إلى هدى فألفاها تضم محمودا إليها ، وقد شرد ذهنها

— لسنا غرباء .. إننا فى حينا .

— يا طالما خطر لى أننا فى الأرض غرباء نهيم على وجوهنا .

فقالت فى ثقة :

— ما كان ينبغى أن يخطر لك مثل هذا الخاطر بعد أن جاءنا محمود ، النور الذى يضىء لنا الطريق .

فرنا إليها وقد أشرق وجهه بابتسامة عذبة ، وظل ينقل عينيه بينها وبين ابنه وهو غارق فى النشوة لا ينبس بكلمة .

ووقف السيارة وهبطا منها ، ورفع حسين بصره وهو خافق القلب ونظر إلى زوجه ففطن إلى قلقها ، فقال لها :

— ماذا بك ؟!

فقالت فى صوت متهدج :

— مضطربة قليلا .

— ولماذا هذا الاضطراب ؟ لن يأكلوك .

فابتسمت وقالت :

— أنا على يقين من ذلك .

— ما رأيك فى أبى ؟ .

— رائع .

— وستعجبك أمى .

فقالت وقد لمعت عيناها :

— يا طول سعادتى لو كانت أمك مثل أبيك .

فقال متظاهرا بالجد :

— بالطبع ليست أمى مثل أبى .

فحدقته بعينيها الواسعتين فقال :

— أمى قصيرة بدينة ، وليس لها شارب .

فانفرجت شفتاها عن أسنانها البيضاء وتبخر قلقها وراحت تتقدم فى ثقة وهى تصلح ثياب ابنها وتمرر يدها على شعره فى رقة .

ودق الباب وقلبه يدق فى فرح ، وما مرت لحظات حتى انفرج عن أمه ، وقعت عيناها عليه فهتفت فى حب :

— حسين :

وضمته إلى صدرها العامر بالحنان ، ورأت زوجه فتركته وذهبت إليها وضمتها فى شوق وقبلتها فى حرارة ، والتفتت إلى محمود وقالت وهى تحمله :

— أهلا .. أهلا .

وراحت تمطره بقبلات حنان وتديم النظر إليه فى وجد وتغمغم فى نشوة :

— هذا يوم المنى ، هذا يوم السعد .

وساروا إلى غرفة الاستقبال ، ولم تستطع الأم أن تنتظر حتى تدخلهما وتذهب لتزف إلى زوجها بشرى حضور ابنها ، فهتفت بصوت عال كله فرح :

— حسين هنا . حسين جاء .

وأقبل محمود أفندى فى ثيابه المنزلية يهرول ، فلما رأته هدى رفت على شفتيها ابتسامة ترحيب ونهضت تستقبله فصافحها متهلل الوجه ، ولمح محمودا يعبث فى وجه جدته فهفت إليه نفسه وشعر بعواطف رقيقه تتفجر فى صدره وبقلبة يتفتح كزهرة بللها الندى فأخذه من زوجه وقبله وراح يرقصه وكل خالجه من خوالجه تبتسم فى انشراح .

وقامت الأم وانسلت من الغرفة خفية ، وغابت بعض الوقت ثم عادت تحمل صناديق صغيرة مختلفة الحجم ، ودفعت بالصناديق إلى هدى وهى تقول :

— كنت أشترى لمحمود لعبة فى كل مناسبة وأحفظها عندى حتى يجىء ، وها هو قد جاء .

وراح حسين وزوجه يفتحان الصناديق ويشاهدان اللعب ويتبادلان النظر فى غبطة وسرور ، وذهبت الأم إلى حفيدها وعلقت فى صدره حلية من الذهب وهى تقول :

ـــ اشتريتها له يوم مولده ، وفكرت يومها أن أبعث بها إليكم ولكنى اشتهيت أن أعلقها له بنفسى .

صمتت قليلا وهى ترنو إليه ، ثم قالت :

ـــ جاء كما كنت أتصوره فى خيالى .

فقال محمود أفندى وهو ينظر إلى هدى :

ـــ إنه صورة من حسين : العينان الزرقاوان والأنف الدقيق والوجه المستدير .

وقالت الجدة فى تأكيد :

ـــ لو كنت قابلته فى الطريق قبل أن أراه لدلنى قلبى على أنه ابن حسين .

والتفت حسين إلى زوجه وقال فى صوت خافت رقيق :

ـــ انتهى الأمر ، ليس لك فيه شىء .

وشغل الجدان بمداعبة الطفل . فمالت هدى على زوجها وقالت همسا :

ـــ انتظر حتى نذهب إلى بيتنا ثم يصبح كله لى .

وابتسما وجعلا يتبادلان النظرات فى وجد ، وراح محمود أفندى يرقص حفيده مفتر الثغر ويقول :

ـــ أعاد إلىّ شبابى ، يخيل إلى أننى أداعب حسينا ، عدت إلى الوراء سنين .

فقالت زوجه وهى تبتسم :

ـــ ليست سنين كثيرة .

فقال حسين وهو يرمق أباه بطرف عينيه ويبتسم فى خبث :

ـــ ليست كثيرة ، خمس وعشرين سنة فحسب . .

فقال محمود أفندى وهو يعبث بذقنه فى خد حفيده :

— ما أشبه اليوم بالأمس ! .

وراحت الذكريات الحبيبة تطفو على سطح ذهنه ، فاعتدل فى مقعده ليقص عليهم كما هى عادته نتفا من ذكرياته ، ويشيع بينهم الغبطة والسرور .

٤٦

الليل يسدل ستوره والهدوء يدثر الزمالك ، وعلية تغدو وتروح فى الغرفة ثم ترتمى فى مقعد من المقاعد الكثيرة المتناثرة وما تستقر فيه لحظة حتى تهب قلقة مضطربة ، وتأخذ فى الذهاب والإياب ضيقة الصدر تحس قهرا .

ومررت يدها على وجهها ، وانطلقت إلى النافذة ومدت بصرها إلى النيل الخاشع وتشاغلت بمراقبة أضواء المصابيح الخافتة المنعكسة على صقال الماء ، ولكنها عجزت عن أن تحصر فكرها فيما تقع عليه عيناها ، كانت صور معينة تلح عليها فى إصرار وعناد فتضايقها وترهقها .

وارتمت فى مقعد قريب من النافذة واستسلمت لأفكارها ، فرأت نفسها مع إجلال يوم ذهبتا لرؤية تلك التى فضلها حسين عليها ، واحتلت صورة هدى بقامتها الممشوقة وعينيها الواسعتين وشعرها الحالك السواد أقطار رأسها فأحست قلبها ينزف مقتا ، وثارت فى صدرها عوامل الحقد وفاضت حتى كادت تكتم أنفاسها فتململت فى ضيق ، وأخذت تحاول جاهدة أن تتخلص من ذلك الكابوس الجاثم على رأسها ولكن هيهات ! فالصور البغيضة تتوافد على ذهنها توافد الموج الثائر المزمجر فلا يسعها إلا أن تستكين لها استكانة الشاطئ الذى يتلقى اللطمات فى ذل ، ينتظر فى لهفة أن ينحسر الموج عنه .

رأت هدى قادمة تحمل صينية عليها أكواب الشراب ، ورأت نفسها وهى تتناول كوبا وتتجرعه فشعرت بغصة وبوخز يخز روحها وبدموع تبلل مقلتيها ، وبشعرة من نار تسربت فى حلقها وانتشرت فى جوفها فحرقت أحشاءها ، ولم تستطع أن تصبر على النار المندلعة بين ضلوعها فهبت ثائرة

وجعلت تدور فى الغرفة وهى تعصر راسها براحتيها .

وخطر لها أن ذلك الظلام المسيطر على المكان يعاون خفافيش ذكرياتها أن ترتع فى ليل نفسها ، فانطلقت إلى الرز الكهربى وضغطته فى انفعال ، فتألقت الثريا وغرقت الغرفة فى الضوء الذى بهر عينيها وقصر عن أن يهتك السواد الذى كان يغذى أفكارها وتتفجر منه مشاعرها ، فقد ظلت فريسة للرؤى الكريهة التى تنكأ جراح نفسها وتذل كبرياءها .

واحتلت ذهنها صورة الزورق وهو ينساب فى النيل وحسين إلى جوارها وإجلال قبالتهما تنظر إليهما ، ورأت نفسها وهى تقدم تفاحة إليه ثم تميل وتقضمها وهى فى يده ، ورأته وهو يبعد يده فى فزع فأحست تضاؤلا وتكورت فى ناحية من المقعد وارتفعت حرارتها وتفصد منها العرق .

ووضحت فى خيالها صورته وقد ازور عنها فشعرت كأن يدا قوية راحت تلطمها فى قسوة ، فأنت أنة خافتة مكلومة خيل إليها أن روحها ذابت فيها ، فقامت تذرع الغرفة جيئة وذهوبا تلتقط أنفاسها من ثقب إبرة . أحست أنها لم تعد علية التى ينبض قلبها بالحب والحنان ، إنها امرأة أخرى تعفنت نفسها وراح الصديد يجرى فى عروقها وتلبسها شيطان يهفو إلى الضراوة فشعرت برغبة شديدة فى أن تحطم كل شيء ، أن تقسو على الناس كما قسا عليها الناس .

وعادت صورة هدى وهى مقبلة بالصينية وعليها الأكواب تحتل رأسها فأخذ صدرها يرتفع وينخفض فى غضب ، ورأت نفسها بعين خيالها وهى تتناول الكوب فى ثورة وتلقى بما فيه فى وجه المرأة التى سلبتها حبا ثم تحطمه فى عنف وتنصرف غاضبة ، فلم ينفس ما جرى فى خيالها عن الإحساسات الأليمة التى كانت تتصدع لها كبدها فراحت تقبض يديها فى انفعال وتصرف أنيابها فى حقد وغيظ .

وبلغ سمعها صوت أقدام تقترب ، فأصلحت ثيابها وتناولت كتابا وفتحته وتظاهرت بالقراءة ولكن كل خالجة فيها كانت تنبئ بالثورة العاتية التى

تقاسيها ، ودنا وقع الأقدام و لم ترفع عينيها عن الكتاب ، وبلغ أذنيها صوت إجلال وهى تقول :

ـــ مساء الخير .

فوضعت الكتاب ونظرت فألفت ابنة خالتها متطلقة الوجه مفترة الثغر فى عينيها كلام ، فحاولت أن تبدو هادئة ولكن وجهها كان يعكس انفعالاتها النفسية ، وفطنت إجلال إلى ما تعانيه فاقتربت منها وقالت لها فى رقة :

ـــ ماذا بك ؟

فقالت علية وهى تسبل عينيها وتطرق برأسها :

ـــ لا شيء .

فقالت إجلال وهى تهز رأسها :

ـــ قرأت كل شيء فى عينيك ..

فقالت علية فى صوت خافت لترفه عن نفسها :

ـــ ماذا قرأت ؟

ـــ أمضيت ليلة مسهدة لم تذوق فيها النوم ، كنت فيها فريسة لذكريات عذبتك وأضنتك .

وانقبض صدر علية وسكتت و لم تتكلم ، فقالت لها إجلال :

ـــ أليس كذلك ؟ .

فهزت علية رأسها موافقة وغمغمت فى صوت حزين :

ـــ وما أدراك ؟

ـــ عاد حسين فنكأت عودته جرح قلبك وجددت أشجانك .

قفز قلب علية فى جنون ورمت ببصرها بعيدا حتى لا ترى إجلال ما فى مقلتيها من شجن ، ومرت لحظات ثم قالت فى صوت متهدج :

ـــ ساءنى أن عمى استقبلها فى داره ، كان يقسم أنها لن تطأ له بيتا أبدا .

ـــ عمك معذور .

فقالت علية فى انفعال :

— كيف ؟!

— لا يستطيع أن يغضب ابنه إلى الأبد .

وأطرقت علية حزينة ، فوضعت إجلال يدها على كتفها وقالت لها فى إغراء :

— تعالى أقص عليك قصصا عجيبة .

فنظرت إليها علية فى إنكار وقالت :

— عن ماذا ؟

فقالت إجلال وهى تبتسم :

— عن تلك التى تزوجها ابن عمك .

وقامت علية وسارتا نحو النافذة ، وراحت إجلال تروى قصصها وعلية تصغى إليها وقد اتسعت عيناها من الدهش لا تكاد تصدق أذنيها .

٤٧

حسين منهمك فى عمله ، فقد غص القسم بعملائه المتجددين الذين لا ينقطع لهم سيل ، ودخل عسكرى ودفع إليه برسالة فوضعها أمامه حتى ينتهى من الرجل الذى كان يشرح شكواه فى إسهاب وتفصيل .

واستدار الرجل وخرج ، فمد حسين يده وفض الرسالة وراح يقرأ :

عزيزى حسين ..

ترددت كثيرا قبل أن أخط رسالتى هذه أأقصرها على التهنئة بعودتك وأتريث حتى أبعث إليك برسالة ثانية أهزك بها لتستيقظ من سباتك وتفتح عينيك لترى ما أنت غارق فيه ، أم أمهد لرسائلى القادمة حتى لا تدوى فجأة فى أذنيك فتهب من نومك مذعورا . ولما كنت لا أحب إزعاجك فقد آثرت أن أهيئك لتلقى ما سأبعث به إليك من حقائق مريرة ، لن أجبهك بها مرة واحدة بل سأجرعك إياها قطرة قطرة ، فإننى أشفق عليك .

ماذا تفعل اليوم والشمس غاربة والنسيم يهب لطيفا ينعش القلوب ويجدد الحياة ؟ ستمكث فى البيت ويا طالما مكثت فيه ! فماذا عليك لو أخذت زوجك وانطلقتما إلى الجزيرة وطفتما بحدائقها كعاشقين ، ثم ركبتما زورقا يتهادى بكما فى حنان . إنه سيبعث الذكريات الحبيبة فى نفس زوجك وما أكثر ذكرياتها عن النيل والجزيرة ! ويجعلها تنفعل . وإن ذلك الانفعال لهو الوخز الذى سيوقظك من نومك العميق ، وهو الضياء الذى سيبدد الظلام الذى تعيش فيه .

وإلى رسالتى القادمة أرجو أن تنقشع الغشاوة التى رانت على عينيك

ستين .

* * *

وطوى الرسالة وهو يحس قلقا وراح يتلفت زائغ البصر ، وانقبض صدره واستولى عليه ضيق وراح يفكر فيمن بعث إليه هذه الرسالة التى أطلقت عقارب الغيرة فى جوفه فأخذت تنهشه وتضنيه ، فلم يهتد إلى أحد فأطرق ولاح فى وجهه الأسى العميق .

وهب الشك يعذبه فرأى بعين خياله هدى فى زورق فى النيل وإلى جوارها عشيق ، فارتجف وأحس خنجرا يطعن فؤاده ونارا تشوى كبده ، فراح يتلوى من الألم ويزفر فى كرب ، ولم يستطع أن يصبر على مشاعر الغضب والضيق والشك والألم التى ضاق بها صدره فقام وغادر مكتبه .

وراح يضرب فى طريق ساكن وهو هائج ، وضايقه استسلامه لعواطفه فأخذ يفكر فى أمره فألفى نفسه قد ثار لأن مجهولا كتب إليه يتهم زوجه ، فما أدراه أن ما جاء فى هذه الرسالة صحيح ؟ لعل شانئا ساءه أن يسعد فكتب له ما كتب ليكدر صفوه وينغص عيشه ويقوض عشه ، وإنه باستسلامه لأوهامه يمكنه مما يريد .

وقاوم الإحساسات التى كانت تمور فى جوفه وسلط عليها ضوء عقله حتى كادت تنقشع وتهدأ نفسه ، وفكر فى كاتب الرسالة التى بذرت فى نفسه بذور الشك فوجده خبيثا سدد إليه سهما مسموما . لو كان يعرف عن زوجه شيئا لكتب به إليه بدلا من أن يدعه فريسة للحدس والتخمين وما تركه يخبط كالغريق . إنه كتب ما كتب فى لباقة لا لأنه يشفق عليه بل إمعانا فى عذابه ، فما أقسى أن يتركه حائرا لا يدرى أين يميل .

خطر له أن يمزق هذه الرسالة الحائرة التى جاءت تسلبه هناءته ، فأخرجها من جيبه وهم بتمزيقها ولكنه عاد ورأى أن يحتفظ بها ، فأخرج حافظة نقوده ووضعها فيها وقفل راجعا إلى القسم وقد عزم ألا يفكر فى هذه الرسالة التى

أخذته على غرة منه فجعلته يغضب ويثور .

ووافى ميعاد أوبته فركب الأتوبيس ، وما انطلق به حتى ألفى نفسه يفكر فى الرسالة وتتحرك عقارب الغيرة فيه ويأخذ الشك يخزه ويضنيه ، فنزف قلبه مقتا وقلقا وصرف أنيابه فى غيظ وضيق .

وتهب عليه نسائم من الرحمة فيأخذ فى إقناع نفسه أنه يستسلم لأوهام وإن العقل يدعوه إلى عدم تصديق شيء ما لم يقم عليه برهان ، فكم من وشاية خربت بيوتا ، وما يكاد يطمئن إلى هذا المنطق ويهدأ حتى تثور فيه زوابع الشك فتقتلع من نفسه ما يغرسه العقل من طمأنينة وهدوء .

ووصل إلى البيت وقد وطن النفس على ألا يلقى إلى هذه الوشاية بالا ، وقعد يتناول غداءه ، وهدى قاعدة أمامه ، وفكر أكثر من مرة فى أن يداعبها ولكنه عجز عن أن يخرج ما فكر فيه إلى حيز التنفيذ . ورفع الطعام وبقيا صامتين وهدى تنظر إليه فى إنكار ، وأراد أن يقول شيئا ليخرج من ذلك الصمت الثقيل فقال :

— ما رأيك فى أن نخرج لنتمشى قليلا .

— هيا ، ثم نمر على بيتنا نحضر محمودا .

وخرجا وإذا بقوة تدفعه إلى الذهاب إلى الجزيرة ، فانطلق وفى جوفه قلق ، وركبا سيارة انسابت فى شوارع القاهرة وهو سارح الخيال ، وأحس هواء منعشا يداعب وجهه فأفاق إلى نفسه ، والتفت فرأى السيارة تدرج على جسر قصر النيل فأمر السائق أن يقف ، وهبطا وسارا متمهلين هدى تملأ صدرها بالهواء وهو يتفرس فى وجهها وقلبه يرتجف .

عرجا على اليسار وانسابا فى الشارع الهادئ المطل على النيل ، وما قطعا فيه خطوات حتى وقعت عيناهما على شاب وفتاة مال رأساهما والتقى جسماهما ، وسارا خطوات فألفيا فتى وفتاة قد قعدا على السور المنخفض وكل منهما ينظر فى عينى رفيقه فى هيام ، فصوب حسين إلى زوجه نظرة فاحصة وقال فى

صوت مضطرب :

ـــ هذا طريق العشاق .

فانفرج فم هدى عن ابتسامة هادئة أوحت إليه أشياء ، فاشتد وجيب قلبه ودثره قلق ، واستمرا فى السير حتى بلغا مكانا رست عنده زوارق صغيرة فالتفت إليها وقال لها :

ـــ تعالى نركب زورقا .

تريثت قليلا فقال فى مرارة :

ـــ أو لعلها ليست لنا ، إنها زوارق العشاق .

وأحست فى صوته رنة غريبة لم ترتح لها ، فنظرت إليه وقد اتسعت عيناها ، ثم سارت خلفه حتى إذا بلغا الزورق انتقلا إليه وقعدا فى ناحية والرجل فى الناحية الأخرى قد ولاهما ظهره ، وجعل يجذب المجدافين فى قوة فينساب الزورق يشق الماء ، فالتفت حسين إلى هدى وقال لها وقد ضيق عينيه :

ـــ ما أمتع النزهة فى النيل !

وتلفت حوله وقال فى صوت يفضح ما يعتمل فى جوفه من مشاعر :

ـــ ألا يبعث هذا الزورق الذكريات فى نفسك ؟

ورمقها بطرف عينيه فخيل إليه أنها اضطربت وغاض لونها ، فانقبض وثارت شكوكه واستيقظت غيرته وراحت تنهش قلبه ، وسمعها تقول :

ـــ أية ذكريات ؟

فصور له وهمه أنها قالتها فى فزع فزاد أساه ! وخطر له أن يقـول : « ذكريات الهوى ، » ولكنه أمسك لسانه ، لم يشأ أن يتورط فى شىء قد يندم عليه فقال لها وهو ينظر أمامه :

ـــ ذكريات الصبا ، إننى أذكر لما كنت طالبا فى المدارس الثانوية جئت وصديق لى إلى هنا ، وأخذنا زورقا وجعلنا نجدف حتى كلت أيدينا

فقالت وعيناها لا تستقران على وجهه :

ـــ لا أذكر أننى ركبت زورقا قبل الآن .

وغاص قلبه فى جوفه وثارت مشاعره واستولى عليه حزن ، خيل إليه أن صوتها تهدج . إنها تكذب فيما تقول وهو على ثقة من ذلك ، فما كان الأمر ليختلط عليه وقد اعتاد أن يسمع أكاذيب الناس .

وأطرقا ، وشغل كل منهما بأفكاره وإحساساته وقد اتحدت فى القلق والاضطراب ، ودار الزورق وراح يدنو من الشاطئ وقد انطوى كل منهما على نفسه ، حتى إذا ارتطم به فى رفق قاما كمن استيقظ من حلم بغيض .

٤٨

ومر يومان وهو فى حيرة لا يدرى أحقا اضطربت زوجته لما سألها عن ذكرياتها أم كان فريسة لأوهام استبدت به فجعلته يرى ما يوحيه إليه الخيال ، وراح يفكر فى حاله فألفى نفسه يحمل المتاعب بيديه ويضعها فوق رأسه ، إنه يصغى إلى همسات الشك ثم يحيلها وهمه إلى رؤى مفزعة تزلزل كيانه وتزعزع ثقته فى زوجه وتضرم نار البغض فى جوفه . لو أنه وأد هذه الوساوس وما أطلقها ترعى فى وجدانه لما أصبح مطية ذلولا لشكه يقوده حيث يقوده .

عزم على أن يستمع لصوت عقله ، إنه يهتف به أن يرحم نفسه من عواطفه التى تثيرها أوهام لا يؤيدها برهان ، ماذا عليه لو تريث قليلا حتى تتبلج لعينيه الحقيقة فيسير وهو يعرف إلى أين يهدف لا يخبط فى الظلمات كثمل يترنح ؟ وبدأت سحائب الاضطراب تنقشع عن نفسه وأبخرة الغضب تنطلق من صدره ، وراحت الطمأنينة تداعبه فى رقة استراح لها ، فذهب إلى عمله وقد رد إلى طبعه وملك زمام أمره .

وراح يصرف عمله وهو هادئ ، وما أن رأى الجندى يدخل عليه وفى يده رسالة يدفعها إليه حتى اضطرب واتسعت عيناه فى فزع ، واشتد وجيب قلبه ، ومد يده وتسلم الرسالة وهو ينتفض ، وتريث قليلا يجمع شتات نفسه التى ذهبت شعاعا ، كانت كل خالجة فيه ترتجف ، وفض الرسالة وأخذ يقرأ وهو زائغ البصر وصدره فى علو وانخفاض :

عزيزى حسين ..

ستقام الليلة حفلة رائعة فى « حلمية بالاس » ، فإذا كانت هذه الحفلة لا تعنيك فإنها تهم زوجك ، فلطالما أمضت ليالى ساهرة تسعد بالرفيق فى ذلك الجو الشاعرى الفاتن الذى يحرك المشاعر .

خذها الليلة إلى هناك لتعيد إلى رأسها ألذ الذكريات ، وإن وجودك إلى جوارها بثيابك الرسمية سينشط ذهنها ، فما كانت تذهب إلى هناك إلا فى رفقة ذوى النجوم اللامعة على الأكتاف .

وما أسعد زوجك الليلة ! ستملأ رئتيها بالهواء الذى تحبه وتحيا ثانية فى الجو الذى تشتهيه ، ستحس إحساس السمك الذى عاد إلى الماء بعد أن خرج منه ، والطير الذى اهتدى إلى عشه بعد طول طواف .

شىء واحد قد يعكر مزاجها ، أنها اعتادت أن تنطلق إلى الحلمية فى سيارات فاخرة ولكنها ستذهب هذه المرة فى الأتوبيس أو فى « تاكسى » على أكثر حال ، ولكن لا بأس فما ينتظرها من مباهج كفيل بأن يمحو ما عكر المزاج .

وإلى رسالتى القادمة أتمنى لك سهرة ممتعة تحرك فيك أرق المشاعر وأبهج التصورات .

وكور الرسالة بين أصابعه وأخذ يعصرها فى غضب وقد تقلصت عضلات وجهه ولاح فيه غاية الألم ، إنه يشعر بسخرية الرسالة كأنها إبر تخز روحه وسياط تمزق جلده ولطمات تنهال على خديه يثور لها دمه فيتدفق كحمم البركان فى عروقه ، ومرر يده على شعره ثم أخذ يجذبه فى عنف وهو يزفر زفرات حارة من صدر محموم .

وأطرق وقد طاش لبه وملأت المرارة نفسه وأفلت منه زمام عواطفه فصار لها فريسة سهلة ، استسلم للدغات غيرته ولسعات النار التى راحت تكويه ، وأصاخ سمعه إلى الطنين المنبعث فى أعماقه كأنين الكلب الجريح .

وضاق بالمشاعر القاسية التى انفجرت فيه ، فخطر له أن ينطلق إلى داره

يدفع إلى هدى بهذه الرسالة التى زلزلت نفسه وعذبت روحه يسألها عما جاء بها من اتهام بغيض ، وهم بأن يقوم ويعدو كالمجنون ولكن هامسا من أغوار نفسه هب يزجُره وينهاه ويدعوه إلى التريث وإن كان فى ذلك عذابه وضناه ، فبقى فى مكانه ضيق الصدر يصرف أنيابه فى غيظ شديد .

وفكر فى كاتب هذه الرسالة فتحرك مقته وطغت ثورته وود لو يعرفه ليحطم له وجهه انتقاما لما ناله على يديه من عذاب وقلق وضيق ، ورأى نفسه بعين خياله يسدد الضربات إلى شخص مجهول ويقبض بيد من حديد على رقبته ليكتم أنفاسه ويستل روحه ويمزق قلبه المريض ، فجعل يشهق ويزفر فى صوت مسموع وقد انبثق العرق من وجهه وضاقت عيناه وانعكست على صفحة وجهه آى البغض الدفين .

وانقضى النهار وفى جوفه أتون نار ، وما أتى المساء إلا كان هو وهدى يذرعان الطريق الهادئ المقفر الموصل إلى « حلمية بالاس » وانطلقا صامتين هدى تلتصق به وهو مشغول عنها بظلمة نفسه التى كانت أشد حلكة من الظلام الدامس الذى يلف الكون ، فقد كانت ليلة لم يظهر لها نجوم .

ومرت سيارة ثم تبعتها سيارة ، فالتفت إلى زوجه وقال لها بصوت حاول أن يبدو هادئا ولكنه خانه وتهدج :

ـــ لو كانت لنا سيارة ما قطعنا على الأقدام هذا الطريق الطويل . .

لم تنبس بكلمة وخيل إليه أن عينيها التمعتا فى الظلام ، واستمرا فى سيرهما حتى إذا لاحت لعيونهما الأضواء الحمر قالت هدى فى صوت خافت :

ـــ أما كان الأفضل أن نمضى هذه الليلة فى بيتنا ؟ ما الذى دعاك إلى التفكير فى هذه السهرة ؟

أحس كأن تيارا كهربيا سرى فى جسمه فارتجف ، ما كان ينتظر أن تسأله هذا السؤال ، خيل إليه أنها فطنت إلى أن هناك شيئا فقال فى صوت مضطرب :

— قال لى صديق إنك ستجدين هنا متعة فائقة .

وكانا قد بلغا النور فالتفت كل منهما إلى الآخر وفى عينيه قلق ، وضيق من خطوه ونظر فى حيرة ، لم يسبق له أن جاء إلى هذا المكان ، وألفى هدى تتقدم فراح يتبعها ، كانت تعرف إلى أين تسير . وأيقن أن هذه ليست أول مرة تطأ فيها قدماها الحلمية فأخذ قلبه ينقبض وينبسط فى قوة ، وسرت شعرة من النار من حلقه حتى بلغت صدره .

وقعدا إلى نضد وهو يتفرس فى وجه زوجه يحاول أن يقرأ فيه انفعالاتها ، ووقعت عيناه على صدرها فتمنى لو يستطيع أن يفتحه ليرى ما يكنه من أسرار ويستريح مما هو فيه من شك وحيرة ، وأقبل رجل فى ثياب فاخرة ووقف أمامها وانحنى ورفت على شفتيه ابتسامة وهو ينظر إلى هدى ، فدوى قلب حسين فى جوفه دويا ، فقد رمقها الرجل بنظرة ترحيب ، إنه يعرفها ! رآها قبل ذلك من غير شك فقد رنا إليها رنوة من رأى شخصا يعرفه بعد طول غياب ، وثار قلقه وكاد ينغمس فى تصوراته لولا أن سمع هدى تسأله :

— ماذا تطلب ؟

فقال للرجل الأنيق الواقف أمام زوجه :

— « كاساتا » .

وأدار عينيه فى المكان فألفى شابين يلتفتان نحوهما ويتهامسان فخيل إليه أنهما يتحدثان عنه ، عن الزوج الذى سحبته زوجه إلى أماكن لهوها وهو غارق فى بحور الاطمئنان ، فأحس حنقا يملؤه وود لو يغادر المكان .

وأطفئت الأنوار وانبعثت الأنغام الموسيقية عذبة ولكنها كانت فى أذنيه أشبه بالعويل ، خيل إليه أنها تنعى إليه زواجه الذى قام على خداع .

٤٩

أقلعت طمأنينتها واستولى عليها اضطراب وبان فى وجهها سهوم ! صار زوجها يلوح لها بالماضي ويخزها من بعيد ، وإن ذلك الوخز يحز فى روحها ويزلزل الأرض تحت قدميها ويضخم مخاوفها فيجعلها تنتفض إذا وجه إليها نظرة أو كلمها كلمة وهو يشيح عنها ، باتت قلقة أرقة تخشى ما ينتظرها فى غدها ، كانت كالجالس على بركان لا يدرى متى يثور .

إنها على يقين من أن زوجها بلغه شيء عنها ولكنها لا تدرى ماذا بلغه ، ليته يفاتحها فى هذا الموضوع لتدافع عن نفسها وتكشف له عن حبها وتنزع من صدره بذور الشك قبل أن تمد جذورها فيه .

وفكرت فى أن تقول لزوجها إنها لاحظت ذلك الوجوم الذى ران عليه وإنها حزرت سبب ما طرأ عليه من تبديل . إن عينيه تنطقان بالشك وحديثه يتسم بالتجريح فماذا عليه لو صارحها بما يضنيه ؟ لو كشف لها نفسه لتكشف له نفسها وتستريح . كانت عازمة على أن تفضى له بكل شيء ولكنها تذكرت طبعه فأحجمت وقد لفها أسى مرير .

وراحت تفكر فيما بلغه فاهتدت إلى أن ما رفع إليه اتهامات غامضة لا يدعمها دليل . فلو أنه كان على يقين مما بلغه لما بدا فى هذه الحيرة ! وأشفقت على نفسها من مفتريات الشانئين فسرى فى جوفها حزن ثقيل .

وسمعت طرقا على الباب فقامت فى تثاقل وسارت وهى تمرر يدها على وجهها ، وفتحت الباب فرأت أمامها علية تبتسم فى انشراح وإلى جوارها إجلال وعلى شفتيها ابتسامتها الهازئة ، فامتعضت ولم تحاول أن تخفى

امتعاضها ، ورأت خلفهما فتاة سمراء ما إن تبينتها حتى اضطربت وأحست رأسها يدور ، وفطنت إجلال إلى الهزة التى اعترتها فنظرت إلى علية وقد انفجرت شفتاها والتمعت عيناها ببريق كان أفصح من حديث .

وسرن إلى غرفة الاستقبال ، علية هادئة وإجلال نشيطة والفتاة السمراء تتلفت بعيون زائغة ، وتلاقت عيناها بعينى هدى فغضت من بصرها ولاح عليها الارتباك .

والتفتت إجلال إلى الفتاة السمراء وقالت :

— عديلة هانم .

ثم التفتت إلى هدى وقالت فى رنة ساخرة :

— هدى هانم .

وامتقع لون هدى ، فأحست علية راحة وقالت وهى تبتسم :

— أظن أنكما تقابلتما من قبل ؟

ولم تستطع هدى أن تخفى قهرها فقامت دون أن تستأذن وغادرت الغرفة ، والتفتت عديلة إلى إجلال وقالت فى غضب :

— قلت لى إننا سنذهب لزيارة صديقة .

فقالت إجلال وقد اتسعت عيناها ولوت شفتها فى استغراب :

— أو ليست هدى صديقة ؟!

— لو قلت لى إننا سنذهب إلى هدى ما جئت .

— ما كنت أقول لك ذلك ، كنت أريد أن تراك معنا .

فقالت لها عديلة وهى ترمقها فى زراية :

— نلت بغيتك فافرحى .

ورنت ضحكة إجلال طليقة ، رددتها جنبات الدار وصكت أذنى هدى فكان لها وقع النار التى تلسع فؤادها فتململت فى غضب ، ثم عادت وهى تحمل صينية عليها أقداح القهوة باسرة الوجه يضيق صدرها بإحساسات

الحنق الشديد .

ورفعت إجلال القدح إلى شفتيها ورشفت منه رشفة ، ثم قالت وهى تنظر إلى علية :

— رأيت هذا الأسبوع فى السينما رواية لطيفة ، شاب كان يعرف فتاة ، كانا يعملان معا فى محل واحد وكانا فى الأمسية يخرجان معاً ، وفى يوم قابل فتاة ثانية أحبها وتزوجها وعاش معها ، وذات ليلة قابل صديقته الأولى فاستيقظ حبه واكتشفت أنه لم يكن يهوى غيرها ، فترك زوجته وعاد إليها .

وأطرقت علية وبان فى وجهها وجد واستيقظت فى جوفها إحساسات الحب ، وأحست هدى غيظا وتدفقت دماؤها حارة فى شرايينها ، وساءها أن تسخر إجلال منها فراحت تجمع شتات نفسها وقالت متصنعة الهدوء :

— هذه الدنيا عجيبة . لى صديقة تزوجت شابا كانت تطمع فيه أخرى ، وراحت صديقتى تعيش هانئة تحسب أن غريمتها سلمت بهزيمتها . ومرت الأيام وإذا بصديقتى تكتشف أن زوجها قد تبدل ، انتابه قلق وحيره ، فراحت تبحث حتى اهتدت إلى علة قلقه : إن غريمتها لم تستكن للهزيمة ! تحرك حقدها وهبت غيرتها تدفعها إلى تقويض سعادة منافستها لعلها تشيد على أنقاضها سعادتها ، فراحت تنفث سمومها محاولة تلطيخ سمعة الزوجة ، فما كان من صديقتى إلا أن كاشفت زوجها بماضيها ، لم يكن فيه ما يشين ! كانت كل جريمتها أنها خطبت لرجل قبله ثم فسخت هذه الخطبة ، فأقلع قلق الزوج وانقشعت سحائب الكدر ، ورفرف على الزوجين الحب الصافى ، وبقيت غريمتها للغيرة ذلك الغول البغيض الذى أخذ ينهش أحشاءها ويمزق قلبها .

وتجهم وجه علية وضاق صدرها وشعرت بقلبها يدمى مقتا ، وخشيت أن تفضح عيناها خبيئة نفسها فأسبلت جفنيها أما إجلال فقد ابتسمت ابتسامة هازئة وقالت فى سخرية :

— إن منافسة صديقتك ساذجة ، لعبت لعبتها و لم تكن فى يدها الأوراق الرابحة .

فقالت هدى فى انفعال :

— لم يكن معها إلا البغض والحقد والغيرة .

— هذه أدوات لا تكفى لإيقاظ زوج غارق فى الخديعة ، لا بد من أدوات أخرى .

فقالت هدى فى لهفة :

— مثل ماذا ؟

فقالت إجلال وهى ترميها بنظرة فاحصة عميقة :

— كان عليها أن تقوض دعوى الزوجة بأن الرجل الذى كان يعشقها كان خطيبها يوما ، وأن يكون فى يدها برهان مادى تدفع به إلى الزوج الغارق فى سباته .

فقالت هدى وهى تنظر نظرات شاردة :

— ما أصعب الحصول على برهان مادى .

وفطنت إجلال إلى اضطرابها فاعتدلت فى راحة ، وقالت وابتسامتها الهازئة على شفتيها :

— ما أيسر ذلك على من يبحث .

فقالت هدى فى انفعال :

— والله إنها حرب دنيئة .

فقالت إجلال فى هدوء قاتل :

— الحرب حرب ، والويل للمغلوب .

وارتفع بكاء طفل فهرعت هدى إلى ابنها وراحت عديلة ترمقها وهى تهرول وفى عينيها شجن ، وطغى ضيق علية حتى إنها لم تعد تطيق أن تبقى ، كانت تشعر باختناق فالتفتت إلى إجلال وقالت لها :

— هيا ننصرف .

وهبت واقفة يبدو الانفعال فى حركاتها ، فقالت لها إجلال فى هدوء :

— تريثى حتى تعود .

وقعدت علية وجعلت تعبث فى أصابعها فى انفعال لتتشاغل عن النار التى راحت ترعى فى جوفها ، وأقبلت هدى تضم إليها محمودا وقد اكتسى وجهها رقة ، فما أن وقعت عليها عين علية حتى أحست عقارب الغيرة تتحرك فى جوفها فتململت فى غضب ، ودنت من إجلال فلما وجدتها ترنو إلى ابنها فى تشوف قالت إمعانا فى الكيد :

— إنه صورة من حسين .

ونظرت إجلال ولاحت الهزيمة على وجهها ، ولكنها قالت وهى تلوى شفتيها :

— لا يشبهه كثيرا .

فقالت هدى وهى تتجه إلى علية :

— أظن أن نظرة علية هانم أصدق .

وهبت علية كمن لدغتها أفعى ، وغادرت الغرفة غاضبة ، وإجلال فى أثرها ، أما عديلة فقد ذهبت إلى هدى وصافحتها وضغطت على يدها وغمغمت :

— آسفة ، لم أكن أدرى .

وانسلت من الغرفة وهى مطرقة يلوح فى وجهها الأسى والندم .

٥٠

الليل ساج والهدوء شامل والكون غارق فى النوم العميق ، وهدى جالسة إلى جوار سرير ابنها غائبة عما حولها بالدنيا المضطربة القائمة فى خيالها . كانت تفكر فى حديث إجلال وتتمثلها وهى تبتسم فى استخفاف ويمشى الخوف فى أوصالها ويدق قلبها رهبة ، إنها لتتحدث فى ثقة من يملك الأوراق الرابحة ، ترى ماذا قالت لهما عديلة ؟

وتراءت لها عديلة وقد اتسعت عيناها من الدهش لما تلاقت عيونهما ، ورأتها وهى تسبل جفنيها كلما نظرت إليها ، وعاد إلى ذهنها ذلك المشهد الذى حيرها : منظرها وهى مقبلة نحوها وقد ارتسم على وجهها الأسف ، ومصافحتها إياها وضغطها على يدها وهى تغمغم : « آسفة ، لم أكن أدرى » . وفكرت فى كل ذلك فحزرت أن صديقة صباها جاءت وهى لا تدرى أنها مقبلة للقياها .

وتدفقت دماء حارة فى عروقها وارتفع نبضها فقد راحت تفكر فى أن تدافع عن كيانها ، إنها لن تستسلم أبدا لمؤامرة علية وإجلال ، لن تسمح لهما أن تهدما سعادتها ، إنها تحب زوجها بكل جارحة من جوارحها ، ستتحمل كل شىء فى صبر ولن تسمح أن يفلت حبيبها من يدها .

وفكرت فيما تفعله لتقوض ما يريدان ولكنها لم تهتد إلى شىء ، لم تكن تدرى ماذا قالت لهما عديلة ، آه لو عرفت ما يعلمان من ماضيها إذن لأمكنها أن تهيئ زوجها لتلقى ما يدسانه إليه دون أن يثور ، وأحست أنها فى ضباب تفكر دون أن تطمئن إلى رأى ، فتململت فى حنق وراحت تعصر رأسها

بيدها لعله يرحمها ويجود لها بفكرة .

إن علية تعرف شيئا عن أيام الحلمية وقد دست إلى حسين ما تعرف وأوحت إليه بالذهاب إلى هناك ، ولكن ما هو هذا الشيء الذى تعرفه على التحديد ؟ لو كانت تعلمه لدافعت عن نفسها دون أن تفضى إلى حسين بأشياء لا يعلمها فتكون كمن فضح نفسه وهو يحاول أن يدفع عنها شيئا يسيرا .

وإنها لتعرف أخبار الجزيرة وقد حرضت زوجها على أن يأخذها إلى مسرح ذكرياتها ، ورن فى أذنيها صوت حسين وهو يقول : « ألا يبعث هذا الزورق الذكريات فى نفسك ؟ » ، وتذكرت أنها قالت له : « لا أذكر أنى ركبت زورقا قبل الآن » فارتجفت وانتابها ضيق ، لأن ذلك الإنكار سيجعل اعترافها عسيرا . إنه لن يصدقها إذا سردت عليه الحقيقة .

عزمت على أن تعترف لزوجها بماضيها وأن تواجه عاصفة غضبه وهى ثابتة معتصمة بحبها له حتى تمر الزويعة بسلام ، ولكن حرصها راح يطالبها بأن تتريث حتى تقابل عديلة وتعلم منها ما تعرفه علية من ذلك الماضى الذى أصبح يتخايل لها كغول بغيض فاغر فاه الأدرد ليزدردها .

ومس أذنيها صوت مفتاح يدور فى الباب فخفق قلبها فى جوفها وانتشر فى صدرها قلق ، ودخل حسين فلم تستطع أن ترفع إليه بصرها وظلت مطرقة ترجو من أعماقها أن يدنو منها أو يوجه إليها كلمة ، ولكنه أخذ يخلع ثيابه وهو صامت حتى إذا فرغ من استبدال ملابسه ذهب إلى الفراش ونام وقد أولاها ظهره ، فقامت حزينة وأطفأت النور ونامت فى صمت إلى جواره .

لم تغمض لها عين . أرهفت حواسها وراحت الأفكار القاتمة تجثم عليها فتضنيها وبلغ سمعها زفرات زوجها المحمومة فانتابها أسى وأحست كأن خنجرا ينغمس فى فؤادها ، وهمت بأن تحدثه لتخفف عنه كربه ولكنها شعرت بالخوف يطويها ، فلاذت بالصمت وإن شبت فى جوفها ثورة عاتية قاسية .

وصحا محمود وبكى ، إنه اعتاد أن يصحو فى مثل هذه الساعة ليشرب ، فخفق قلب هدى وتظاهرت بالنوم ، وارتفع بكاء الطفل فتقلب حسين فى الفراش لعل زوجه تستيقظ ولكنها ظلت غارقة فى نومها ، وعاود محمود البكاء فلم يحتمل حسين عويله فنهض ليسقيه .

ونامت هدى على ظهرها وبسطت ذراعها فى السرير وأخذت تنظر من بين أهدابها ، فألفت زوجها يعود فانتظرت أن يدعوها لتسحب ذراعها وتفسح له مكانا ، ولكنه لم يفعل بل نحى ذراعها ونام على حرف السرير .

وانقضى الليل و لم تذق كثير غمض ، وطلع النهار وأخذت الشمس فى الارتفاع ، فقام حسين من فراشه وذهب إلى ثيابه يرتديها ، وهدى ترقبه من بين أهدابها لا تبدى حراكا متظاهرة بالنوم لتقى نفسها لقاء جافا كذلك اللقاء البغيض الذى تم فى جوف الليل .

ذهب حسين فنهضت هدى تتأهب للخروج لتقابل عديلة وتضع حدا لهذا النفور الكريه ، إنها لم تعد تحتمل هذه الحياة التى جفاها الاطمئنان والهدوء ، وارتدت ثيابها وانطلقت تساورها أفكار وتداعبها أحلام ، كانت تترجح بين الخوف والأمل لا يستقر لها قرار ، وبلغت دار صديقتها القديمة فراحت ترقى الدرج وقد انداح فى جوفها الاضطراب .

وفتح الباب وظهرت عديلة فى ثوب بذله منزلى ، فلما رأت هدى أمامها قالت لها وهى تمد لها يدها :

— لو لم تأتى لذهبت إليك .

وسارتا وهدى تتلفت فى قلق حتى دخلتا غرفة متواضعة ، فقالت عديلة :

— آسفة ، لم أكن أدرى .

فنظرت هدى إليها فى اهتمام وقالت لها فى صوت مرتعش :

— ماذا حدث ؟

فقالت عديلة وقد خفضت بصرها :

ـــ زارتني إجلال مع صديقة لي منذ شهر ، وما انتهت زيارتها حتى دعتني في إلحاح إلى أن أزورها و لم تتركني حتى حددت لها موعدا ، وفي الموعد المضروب ذهبت إليها فغمرتني بظرفها ، وترادفت مقابلاتنا وتشعب حديثنا ، وفي لباقة جذبتني للتحديث عنك ، أصبح كل حديثنا يدور حول الأيام التي أمضيناها معا أنا وأنت ، ودعتني إلى زيارة خالتها في الزمالك فذهبت معها ، ومن ذلك الوقت أصبحنا نتلاقى هنا .

كنا نتحدث عنك ، وبعد فوات الأوان عرفت كل شيء ، عرفت أن علية ابنة عم حسين وأنها كانت تطمع في أن تتزوجه ، فلما هجرها امتلأ قلبها حقدا وتمنت أن تقضي عليك ، لو كانت وحدها لركنت إلى اليأس ولكن إجلال كانت تؤجج نار حقدها ، إنها ماكرة أمكر من ثعلب .

فقالت هدى في ثورة :

ـــ يريدان أن يهدما سعادتي ولكنني لن أدعهما تقوصان عشي ، سأدافع عن حبي ، لن أستسلم لهما أبدا .

وصمتت وصدرها يعلو وينخفض وعديلة ترنو إليها في إشفاق دون أن تنبس بكلمة ، وهدأت قليلا فقالت في صوت خافت شحن رقة :

ـــ عزيز علي أن يتألم حسين ، إنه الرجل الوحيد الذي خفق له فؤادي ، إنه أحب إلي من روحي ، أحبه يا عديلة من كل قلبي ، يحز في نفسي أن أسبب له الألم والعذاب .

وصمتت قليلا ثم رفعت وجهها وقالت في انفعال :

ـــ محمود ما ذنبه ؟ ماذا تجني إجلال من تشريده ؟ لا لن أستسلم لهما أبدا ، سأعترف الليلة لزوجي ، سأقول له كل شيء ، سأقول له إنني فعلت ما فعلت قبل أن أعرفه قبل أن يخفق بحبه فؤادي ، إنه سيفهم ، إنه سيقدر ، إنه سيعفو ، وأنا على ثقة من ذلك ، أليس كذلك يا عديلة ؟

ولزمت عديلة الصمت ، فقالت هدى وقد اتسعت عيناها :

— ماذا قلت لهما ؟

فقالت عديلة وهى تشيح بوجهها عنها فى أسى :

— كل شىء .

فقالت هدى فى خوف :

— كل شىء ؟

فقالت عديلة فى مرارة :

— لا أحب أن أخدعك ، لم يبق عندى ما أخفيه .

فقامت هدى وانصرفت تجر رجليها كحيوان جريح يقطر دما .

٥١

كان يرفع رأسه وينظر أمامه بين الفينة والفينة ، إنه لا يستطيع أن يقبل على عمله ، كان ينتظر فى كل لحظة أن يدخل عليه الجندى ويدفع إليه برسالة ، وكان الاضطراب يستولى عليه وبان فى وجهه ضيق ، إنه يحس فى أعماقه مرارة ويرقب فى قلق أن تصل إليه رسالة واضحة تخرجه من ذلك الضباب الذى يعيش فيه .

الغموض الذى يكتنفه يحيره ، إنه يقاسى من اتهامات وجهت إلى زوجه ، وجهت من مجهول ، وإن وهمه ليؤكد أن لهذه الاتهامات من الحقيقة نصيبا ، ولكن ما مقدار ذلك النصيب ؟ ليته يعثر على دليل قوى يريحه مما يقاسى من عذاب . أصبحت حياته عبئا ثقيلا لا يرى فيها إلا أبغض التصورات ، إنه ليتمنى أن يصحو على الواقع وإن كان أليما فألمه لن يصل إلى مبلغ ما هو فيه من كرب وبلاء .

وتلفت فى الغرفة بعيون زائغة ، ثم استأنف عمله وهو شارد اللب مبلبل الفكر ، ومس أذنيه وقع أقدام فانتبه وقد اتسعت عيناه فلمح الجندى يتقدم إليه وفى يده رسالته ، فخفق قلبه وجرت دماؤه دفاقة فى عروقه وأحس حرارة تنبثق فى جوفه ، وقدم إليه الجندى الرسالة فتناولها وهو يضطرب وفضها فى سرعة ، وراح يقرأ فى لهفة وقلبه دائب الخفقان :

عزيزى حسين :

من سخرية القدر أن أكتب إليك ــ أنا الذى تتمنى أن يكون آخر من يعرف ــ رسالتى هذه لأفتح عينيك على مهزلة زواجك التى سجلت فى لوح

الزمن بمداد النفاق ، القلم يضطرب فى يدى والأسى يملأ جوانحى ولا أشعر نحوك فى هذه الساعة إلا بالإشفاق ، فقد كنت ضحية مؤامرة ماكرة دبرت فى خبث ودهاء .

ليتك سمعت مأساة زواجك من فم صديقة من خدعتك ، وهى التى نسجت معها الشباك حتى سقطت فيها راضيا ناعم البال ، فأرحتنى مما أقاسى من عذاب ، وأحطت بأطرافها فقد كانت تسرد حوادثها فى طلاقة وإسهاب ، وما أحسب أننى أستطيع أن أنقل إليك فى سطور ما حدثتنا به فى جلسات ، فقد كانت قصة زواجك مدار الحديث ليالى وأياما .

ذهبت فى ليلة من ليالى يوم الخميس لزيارة خالتك كما كانت عادتك أيام كنت طالبا ، فوجدت عندها فتاة ما إن رأتك حتى أسدلت على وجهها نقابا شفافا وأطرقت فى حياء ، ولم تمكث بعد ذلك طويلا بل استأذنت وانصرفت فى دلال وأنت تتبعها بعينيك ، وما عدت إلى دارك حتى جعلت تفكر فى هذه الفتاة الخجول التى تضرجت وجنتاها بلون الدم .

وترادفت المقابلات فى بيت خالتك وتبادلتما النظرات ثم الكلمات ، وقبل أن أسرد بقية القصة التى تظن أنك أكثر الناس معرفة بها — وأنت واهم فى هذا الظن — أرى أن نعود معا إلى الوراء نقلب الصفحات التى طواها الزمان .

الدنيا ليل والطريق ساكن ، وسيارة فاخرة تنساب متسللة فى الظلام وقد استرخى فى مقعدها الأمامى فتى وفتاة ، الفتى يميل على الفتاة يلف ذراعه حولها ويضمها فى وجد ويقبلها فى اشتهاء . وانطلقت السيارة حتى غرقت فى النور المنبعث من « حلمية بالاس » ، ففتح بابها وهبط منها ضابط من الجيش على كتفه ثلاثة نجوم ، وتبعته فتاة ممشوقة القامة واسعة العينين فى خديها غمازتان سوداء الشعر ووضعت ذراعها فى ذراعه ودلفا إلى الداخل ، فلما لمحهما الخدم أسرعوا إليهما ورحبوا بهما فقد كانا من رواد كل ليلة ، وكان الجميع يعلمون أنهما عشيقان .

هذه خطوط آخر قصة من قصص الهوى الطليق الذى غرقت فيه الفتاة ، فلنقلب صفحات الزمن لنعود إلى ما قبل ذلك فى طريق من طرقات الجزيرة الهادئة . يسير ضابط بوليس على كتفه نجمان وإلى جواره فتاة ممشوقة القامة واسعة العينين فى خديها غمازتان ، إنها نفس الفتاة . إنه ينظر إليها وفى عينيه رغبة وعلى شفتيه ابتسامة اشتهاء ، انطلقا يتهامسان حتى إذا بلغا المكان الذى ترسو الزوارق عنده هبطا مرحين واستقلا زورقا ، وانساب الزورق يتهادى على سطح الماء حتى إذا بعدا عن الأنظار اقترب الجسمان والتصق الصدران والتحمت الشفاه ، فلما عادا من نزهتهما السعيدة سارا صامتين وقد انطفأ البريق الذى كان يتألق فى العيون .

ولو قلبنا صفحات الزمن لنقرأ ما سطر فيه قبل ذلك لألفينا أقاصيص غرامية مثيرة كل أبطالها ضباط ، وبطلتها واحدة هي نفس الفتاة الممشوقة القد الواسعة العينين التي يزين وجهها غمازتان ، كانت أمنيتها أن تتزوج ضابطا فكانت إذا قابلت منهم أحدا ارتمت عليه فيسير معها حتى إذا ارتوى من النبع المتاح وعب منه حتى امتلأ ذهب دون أن يعود .

ساءها ما كان يعقب كل حب من هجران ، وقابلت صديقتها فشكت إليها ما لاقت من نكران ، وأطرقتا تفكران فهدتهما التجارب إلى أن الرجال ينفرون من الصيد السهل المنال ، ما من شيء يؤجج نار الصبابة فيهم كالخفر والدلال . فعزمت الفتاة التى كانت غمزة من عين ضابط تكفى لسدك حصونها ـــ إن كان لها حصون ـــ أن تتسربل بالحياء .

انطلقتا تتقبان عن فريسة ، وكان من سوء حظك أن تحتاك وأنت ذاهب إلى خالتك فتبعتاك . لاحظتا أنك لا تزال طالبا فتبادلتا النظرات وابتسمتا ، فما أيسر سلب لب طالب لم ير بعد الحياة .

وابتدأت الخيوط تنسج حولك فى مهارة ، تعرفت بخالتك وعرفت عنك أشياء ، عرفت أن الحياء يستهويك فابتسمت فى جوفها ، كانت قد عزمت

على أن تمثل ذلك الدور فإذا بالقدر يسوق إليها من يعجب به .

ترددت على خالتك وأبدت لها الأدب والانطواء ، ووافت الليلة التى عزمت أن تنتظرك فيها حتى تأتى ، وتزينت وبالغت فى زينتها وصديقتها ترنو إليها وقد انفجرت فى جوفها ضحكات ساخرات . وأخذنا تراجعان الدور الجديد الذى ستلعبه البطلة التى تخصصت قبل ذلك فى أدوار الاستهتار ، وتأهبت الفتاة للخروج وقبل أن تنصرف للقياك قالت لها صديقتها هازئة :

ـــ إذا دخل عليك فأسدلى على وجهك النقاب .

فخرجت وهى تبتسم ، وراودتها الفكرة مرات حتى استحوذت عليها ، فلما لمحتك مقبلا أطرقت فى خفر وقد أسدلت على وجهها النقاب ، إنه لقاء مسرحى مفعم بالسحر والجمال ، لقاء يهز المشاعر ويفتح براعم القلب .

واستولى عليك ذلك المشهد فأخذت تفكر فيه ، وما وافى يوم الخميس حتى هرعت إلى دار خالتك لتحظى برؤية ذات النقاب . ومرت الأيام ، وفى ذات ليلة ذهبت إلى بيت خالتك ترقب وفود من شغلتك ، وتـقضت الساعات ولم يظهر لها خيال ، فانصرفت وأنت تفكر فيما دعاها إلى الغياب ، وخمنت الأسباب ولكن السبب الحقيقى لم يخطر لك على بال !

كانت قادمة لرؤيتك ، وقفزت إلى رأس صديقتها فكرة فنصحتها أن تتخلف تلك الليلة لتؤجج فى جوفك نار الغرام !

وتقابلتما فى الظلام بعيدا عن عيون الناس ، فى ذلك الجو الذى تستيقظ فيه مشاعر الوداد ، فخفق قلبك نشوة ودثرك اضطراب ، وتدفقت الدماء حارة فى شرايينك فحسبت أنك أصبت بالغرام ، وما دار بخلدك أن ما كنت تحسه إن هو إلا إحساس شاب يافع قابل فتاة .

وفى ذات ليلة تواعدتما على اللقاء فى صبيحة اليوم التالى وفى حديقة الحيوان ، وأكدت أنها ستقابلك هناك ، كانت عازمة على أن توافيك فى الميعاد ولكن صديقتها نصحتها ألا تفعل لإيهامك أنها ليست طليقة تذهب أينما تشاء !

يا للسخرية ! أصبح عسيرا على من تعود إلى بيتها مع الفجر أن تذهب إلى حديقة الحيوان فى وضح النهار !

كان زواجا خداعا فى خداع ، أسس على بحر من النفاق فكان مآله أن ينهار ، فانج بروحك من هذا الهوان واغسل يديك من العار .

وطوى الرسالة وامتقع لونه وانبهرت أنفاسه ودارت الدنيا به ، وأحس نفسه تقيحت وجرى الصديد فى عروقه وملأ المقت جوفه فشعر بكره لكل شيء حتى نفسه ، وثارت فيه مشاعر الغضب فجعل يصرف أنيابه وهو يئن أنينا مكتوما من النار التى راحت تلسع روحه وتنكل به .

واحتلت ذهنه صورة هدى وقد أسدلت على وجهها نقابا من الرياء ، فانفجر الحنق فيه وبصق فى الهواء وراح يصفع خيالها فى ذهنه ويلطمه ويركله وقد تلبد وجهه بسحائب قاتمة من الغضب ، ولم يطق أن يصبر على مشاعره الثائرة التى راحت تمور فى أقطار نفسه مزمجرة مدمرة فقام كوحش هائج وانطلق كالعاصفة ذاهبا إلى داره : ليصفى مع من خدعته الحساب .

وركب « الأتوبيس » وهو يتململ فى عصبية ويتلفت فى جنون ، فقد كان فى صدره أتون نار ، وانسابت السيارة فخيل إليه أنها واقفة لا تسير ، وخطر له أكثر من مرة أن يهبط منها ويعدو فى الطريق ولكنه كان يتريث فى ضيق ويعاود الإغراق فى أفكاره التى كانت تعبث به كقصاصة ورق تعابثها الرياح .

وبلغ داره وقلبه ينزف مقتا ، وراح يصعد فى الدرج قفزا كأنما كان يطارده شيطان ، وطرق الباب فى عنف طرقات متتابعات ، وفتح الباب ونظرت هدى إليه فانخلع قلبها ، كان الشرر يتطاير من عينيه وقد انعكس على وجهه أثر ما يقاسيه من انفعالات .

ودخل وصدره فى علو وانخفاض ، لم يستطع أن ينطق بحرف ولكنه ألقى

نفسه يخرج الرسالة ويلقي بها فى وجهها ، وخيل إليه أن الشياطين تتراقص أمام عينيه وراح هامس يهمس فى أعماقه يحرضه على البطش بها ولكنه دار على عقبيه وخرج يكاد صدره ينفجر من الغيظ .

٥٢

قرأت هذى الرسالة فانهارت على أقرب مقعد خائرة القوى تحس يدا قوية تكتم أنفاسها ، وأخذت تتلفت فى ذهول محطمة النفس ومشاعر الحزن ترعى بين ضلوعها ، وكادت تستسلم ليأسها وإذ بصورة علية وهى تبتسم تلوح لخيالها فانقبضت وجرت دماؤها حارة فى عروقها ، ودبت الحياة فى قلبها فاشتد وجيبه وراح يتدفق بالحنق والثورة .

عزمت على ألا تدع علية تهدم حياتها ، ستدافع عن حبها ، ستثور .. ستبكى .. ستتوسل ، ولن تدع حبيبها يفلت كالماء من بين أصابعها ، إنه الرجل الوحيد الذى يحبه قلبها وأصبحت تشتهيه كل جارحة من جوارحها ، إذا كان عيبها أنها عرفت قبله غيره فما كان ذلك ذنبها ، ساق إليها القدر رجالا لم يعرف الوفاء طريقه إلى أفئدتهم ، وكأنما شاء أن يعوضها عن غدرهم خيرا فساقه إليها فتعلق به قلبها ، ليته كان أول من عرفته إذن لاستراحت مما هى فيه من ضنى وكرب .

وراحت تغدو وتروح فى الغرفة كنمرة مزمجرة غارقة فى أفكارها ، إنها ليست أول فتاة عرفت رجالا قبل زوجها ، فما أكثر النساء المتزوجات السعيدات اللاتى أصبحت صدورهن قبورا تضم ذكرياتهن الخالية ، فما بال الزمن يختارها وحدها لينبش ماضيها وإن كانت فى أعماقها تمقت ما يحتويه ، إنها علية .. .. عز عليها أن تراها هانئة فدفعها حقدها إلى أن تسلط العدسات المكبرة على ماضيها ليبدو مهولا مفزعا .

وخطر لها أن تعترف لزوجها بماضيها كما هو ، لا كما جاء فى الرسالة التى

تقطر سما ، ولكنها فزعت من ذلك الخاطر فزوجها لن يغفر لها ذلك الماضى وإن كان خارجا عن إرادتها ، إنه يريدها نقية نقاء الملائكة ، فإذا ما صور له وهمه أن شائبة تشوبها حطمها وإن كان فى تحطيمها شقاؤه . فقر رأيها على أن تنكر ذلك الماضى وأن تقتلع من صدر زوجها جذور الشك التى بدأت تتغلغل فى أعماقه ، هذه هى سبيلها الوحيدة لتحتفظ به وليس لها سبيل سواها .

وأطرقت تنسق أفكارها وتنمق دفاعها ، ومر الوقت والخواطر تتزاحم فى رأسها والمشاعر المتباينة تغدو وتروح بين حناياها ، وكأنما جوفها انقلب مسرحا لإحساسات الخوف والقلق والاضطرب ، ووافى الليل وهى فى تفكيرها ، ومس أذنيها صوت مفتاح يدور فى الباب فارتجفت واتسعت عيناها وراح قلبها يرفرف كجناح حمامة وشعرت بقواها تخور ، لكنها راحت تقاوم ضعفها وتلملم أطراف شجاعتها ، ولمحته قادما مربد الوجه يلوح عليه الهم الثقيل ، فقامت وهى ترتعد ودنت منه وقالت فى صوت خافت مرتعش :

— ما كان يدور بخلدى يوما أن تصدق مثل هذا الهراء .

فرماها بنظر شزر وقال وهو ينتفض :

— ما كان يدور بخلدى يوما أن يصدر منك هذا العار .

فقالت فى انفعال :

— هذا افتراء .

فقال وهو يشيح بوجهه عنها :

— كفى رياء .

فقالت فى حنق :

— سرى فيك السم الذى دسته ابنة عمك الشائنة .

فنظر إليها فى دهش كأنما تفتحت عيناه على شىء لم يكن يراه .

وقال خافق الفؤاد :

— ما لابنة عمى وهذا البلاء ؟



أخذت تتلفت فى ذهول عظمة النفس ، ومشاعر الحزن ترعى بين ضلوعها .

ـــ رأتني هائمة فعذبتها غيرتها ، ودفعتها إلى الإساءة إلى من سلبت منها من كانت تهواه .

فقال في سخرية مريرة :

ـــ ما أبرعه من دفاع !

وأحست خنجرا يطعن فؤادها فكادت تترنح ، ولكنها ملكت زمام أمرها وقالت وقد ضيقت عينيها الواسعتين في غضب :

ـــ إن كل ما جاء في هذه الرسالة اختلاق .

فرمقها بعينين يتطاير منهما الشرر وقال متحديا :ـــ والنقاب ؟ .. وتخلفك عن الحضور ليلة انتظرتك في حديقة الحيوان ؟ كل هذا اختلاق ! كفى نفاقا ، مزقت قلبي وجعلت زواجي مادة يُتندر بها في المجتمعات .

فقالت في غضب في صوت عال :

ـــ يحز في نفسي أن تردد ما جاء في الرسالة الدنيئة ، ويل لعلية ، حسبت أنها بخبثها وبإلباس الأوهام ثوب الحقيقة قادرة على أن توغر علىّ صدرك ، هيهات ، إنني أقدر منها على أن أكشف لعبتها وأن أقوض تدبيرها وأنقض غزلها .

دفعتها غيرتها أن تنقب ورائى ، فراحت تبحث عمن يعرفني حتى اهتدت إلى صديقة لي عرفت منها بعض أشياء ..

ولم يدعها تتم حديثها بل قال في ثورة :

ـــ عرفت منها غرام الجزيرة وغرام الحلمية ، وخبثك الذى ملأ البقاع .

فقالت والدماء تتدفق إلى رأسها كالنار :

ـــ هذا كذب وبهتان ، هذا افتراء ، عرفت منها أنني أسدلت على وجهي نقابا لما وقعت عليك عيناى ، و ..

وغمغم في حنق :

ـــ نقاب من الرياء .

واسترسلت فى حديثها مبهورة الأنفاس كأنما لم تسمع ما قال :

— وعرفت أننى تخلفت عن الذهاب إلى بيت خالتك تلك الليلة ، وإلى حديقة الحيوان ، فأخذت هذه الوقائع وراحت تنسج عليها أكاذيب ومفتريات ، أكاذيب لم تحدث إلا فى خيالها الساخط .

فقال وقد أولاها ظهره :

— كنت أصدقك لو لم يحدثنى قلبى .. انزاحت الغشاوة عن عينى فى تلك الليلة التى ذهبنا فيها إلى هناك ، كانت النظرات التى صوبت إليك أفصح من الكلام ، كانت كلها تعترف بأنك لست غريبة عنها ، كان فى عيون الخدم ترحيب بك ، وكثر الهمس حولنا حتى خيل إلى أن اسمك يتردد على كل الشفاه .

فخفق قلبها فى صدرها وزاغت عيناها وقالت فى يأس :

— إنك غارق فى الأوهام .

فقال وهو يتحرك ليغادر الغرفة وقد خفض بصره :

— بل غارق فى العار .

وحاولت أن تتكلم فلم يسعفها لسانها وأسعفتها دموعها فارتمت على الفراش تبكى وتنتحب ، وانسل من الحجرة محطم النفس ممزق القلب قد اندلعت فى أحشائه النار . وقعد على مقعد وهو ضيق الصدر مكروب يرصد طلوع النهار .

٥٣

الظلام يسربل نفسه واليوم ينعق فى كهف صدره وخناجر حادة تحز روحه وعقارب الغضب تنهش فؤاده فيدمى مقتا ، ومشاعر ثائرة تمور بين ضلوعه تضيق صدره ، وبدا لعينيه كل شىء بغيضا ، وشعر بكره لكل ما حوله حتى الكرسى الذى كان يجلس عليه لم يسلم من انفعاله ، كان يضغط على مسنده بذراعه حتى كاد يتحطم .

وأخذ يزفر زفرات مكروبة من صدر محموم ، والرؤى البغيضة تجثم على ذهنه فتزيد فى أساه ، وأحس الرغبة فى أن يبصق على الدنيا ولكنه عاد واحتقر هذه الرغبة فما كانت الدنيا تساوى بصقة ، وأطرق مهموما والأشجان تراق فى جوفه والنار بين جوانحه تتلظى .

وصك أذنيه وقع أقدام ثقيلة فظل غارقا فى همومه لم يرفع رأسه ، وارتطم كعب الحذاء بكعب الحذاء فنظر من بين أهدابه فلمح الجندى يمد له يده برسالة ، فاستولى عليه غضب شديد وخطر له أن يقوم يحطم رأس نذير السوء ولكنه مد يده وجذب الرسالة فى ثورة وأخذ يفضها فى انفعال وأخرج ما بها فإذا بصورة ما إن وقعت عليها عيناه حتى فغر فاه وشعر بقلبه ينقبض حزنا ، كانت صورة هدى وإلى جوارها صديقه جمال يرنو إليها فى هيام ، وجعل ينظر إليها وهو يكاد يموت كمدا فما شك يوما أن صديقه الذى كان يمضى معه الأمسية عشيق صباها .

وقرأ ما كتب على الصورة : « ضابط من الجيش ! » فأحس طعم الصاب فى فيه ، فما كان فى حاجة إلى هذه السخرية المريرة ليزيد أساه ، وتوافدت

الذكريات إلى رأسه وهو مفعم بالحنق والثورة ، وما كانت مغلفة بالضباب كما كانت تخطر فى ذهنه بل كانت واضحة وضوح النهار .

إنه يرى جمالا وهو قاعد فى مكانه أمام محل الحلوى يبتسم له فى رياء ويدعوه ليشاركه فى جلسته ، وما كان صادقا فى وده بل كان خداعا كل هدفه أن يتعرف به ليقوده إلى زوجه التى كانت عشيقته فى يوم من الأيام !

ورأى نفسه وهو غارق فى غفلته على شاطئ البحر وهدى وجمال يتبادلان النظرات ، وكأنما لم يكفهما لغة اللحاظ فراحا يتناجيان ، أخذ جمال يقص عليه قصة غرامة من زوجه وهو يصغى إليه فى اهتمام . آه لو كان يدرى لقام وكتم أنفاسه.

وأمسى صدره يكاد ينفجر فتنهد فى قوة ليلفظ الحمم التى تشوى جوفه ، انثالت على رأسه الأفكار فرأى نفسه بعين خياله وهو فى سيارة جمال وزوجه إلى جواره ، وأحس سكينا تمزق قلبه ومرارة تشيع فى أقطار نفسه فقد سخر الزمن وأركبه نفس السيارة الفاخرة التى كانت تنطلق بزوجه كل ليلة إلى « حلمية بالاس » .

وخطر له خاطر ألهب رأسه ، ترى كم مرة احتوتها هذه السيارة وهما غارقان فى النشوة ؟ وتململ فى ثورة وراح يضرب رأسه بكفه فى حنق كأنما يريد أن يقتل هذه الفكرة البشعة التى حركت غيرته فأخذت تعصف به ، وتعذبه عذابا ما أقساه .

واستكان لأفكاره التى راحت تلهبه بسياطها دون شفقة ، وقفز إلى رأسه خاطر سدد إلى قلبه طعنة نجلاء ، إنه كان يغيب عن داره فى القسم الليالى الطوال فما أدراه أن هدى وجمالا كانا ينتهزان تلك الليالى ليعبا معا من النبع الحرام ؟ وتقيحت نفسه وشعر بالصديد يجرى فى عروقه وبالحقد الآسن يملأ جوانحه ، فجعل يمرر يده على وجهه فى انفعال وصدره يعلو وينخفض فى قوة ككير حداد .

وتمثلت هدى فى خياله واقفة ترنو إليه فى فزع وهو يصرخ بها أن تغادر داره التى ملأتها نفاقا ، فصعد الدم كأنما ينفجر مع ينبوع حار يشوى وجهه وأخذ قلبه ينقبض وينبسط فى عنف، وأحس ضراوة تجتاحه فهب كليث جريح وراح يدور فى الغرفة باسر الوجه يئن من قساوة المشاعر التى كانت تنهش جوفه.

ووافى ميعاد أوبته إلى البيت فانطلق كالعاصفة المزمجرة ، وركب « الأتوبيس » وهو يتلوى من الألم كثعبان ، وأخذ يفكر فيما يفعله لما تقع عيناه على من خدعته وجعلته مادة للتندر فى المجتمعات فخطر له أن يلطمها فى قسوة ، وأن يمزق شعرها ، أن يسيل دماءها لعل الدموع التى تسكبها تطفئ النار المتأججة بين ضلوعه ، ولكنه عاد وهجر ذلك الخاطر فكل ما بينه وبينها قد انتهى . كان يعيش فى بركة راكدة نتنة وقد خرج منها ، فما الذى يجنيه إذا تلفت خلفه وبصق فى اشمئزاز .

وقف أمام البيت لحظة ينظر إليه فى ازدراء ، ثم تقدم وقلبه يدوى دويا ورأسه يدور والدنيا تتراقص أمام عينيه ، وصعد الدرج كوحش يطارد فريسة ، وطرق الباب فى عنف فلما انفتح ورأى هدى دفعها فى صدرها ثم لطمها بالصورة وألقى بها فى وجهها ، واندفع كالزوبعة داخلا دون أن ينبس بكلمة .

انقبضت هدى وسرى الخوف فى أوصالها ، ونظرت إلى الصورة الملقاة على الأرض بعيون زائغة ، ثم مالت تلتقطها وقد مشت رعدة فى أوصالها ، ورفعتها وأدامت إليها النظر فلما رأت صورتها وجمالا وهما ينظران وفى عيونهما حب ، انهارت على أقرب مقعد مبهورة الأنفاس .

وفتح الصوان فرأى ملابسها ، فأخذ يلمها فى ثورة ويلقى بها على الأرض فى حنق ، وجعل ينقب حتى عثر على « ألبوم » الصور فراح يقلبه فى انفعال ، فلما وجد صورة جمال التى أهداها فى الواقع إلى هدى يوم تظاهر بإهدائها إليه جذبها فى غضب ومزقها وهو يشهق ويزفر فى صوت مسموع ، وألقى بها

قصاصات على ملابس هدى التى فرشت أرض الغرفة .

وارتفع بكاء محمود فتسمر فى مكانه ، وتدفقت من قلبه مشاعر الحنان فراحت تزاحم أمواج البغضاء ، وسار إلى سرير ابنه وهو مأخوذ ، وأدام النظر إليه فكادت تبرق فى حلكة نفسه بارقة ضياء ، وكأنما عز عليه أن يتسرب إلى روحه شعاع فخطر لذهنه خاطر أفزعه ، ما أدراه أن محمودا ابنه وليس ابن جمال ؟ إنه لا يستطيع أن يجزم ببنوته ، فلم يحمله فى بطنه بل حملته امرأة خداعة لا يعرف لها قرار . وارتفع من أعماقه صراخ كان أعلى من صراخ الطفل الذى لج فى البكاء .

ورانت غشاوة على عينيه فاسودت الدنيا أمامه ، وهم بأن يغادر الغرفة وهو يكاد يموت من الغم ، وبقى محمود فى عويله فأحس حسين فى الغضب بدموع الطفل تهز وترا من أوتار الحنان ، فمد يده ووضع الحلمة الصناعية فى فم ابنه وخرج من الغرفة وقد لاح فى وجهه آيات الثورة والكرب .

ولمحته هدى وهو فى طريقه إلى الباب فانطلقت تعترض طريقه ، وقبل أن تفتح فمها بكلمة نحاها بيده وهو يرميها بنظرة احتقار ، فراحت تهتف فى توسل :

— حسين ! .. حسين ! .

وسار وهى تنظر إليه من بين دموعها ثم انهارت على الأرض فى يأس ، كانت على يقين من أنه ذهب ولن يعود .

٥٤

انساب « الأتوبيس » فى الزمالك وحسين ينظر من نافذته إلى الطريق ، وقعت عيناه على منزل عمه الغارق فى السكون فخفق قلبه ، وظل يديم النظر إليه حتى اختفى عن عينيه وهو يحس إحساس من يرنو إلى شىء عزيز ، ثم اعتدل فى مقعده وراح يفكر فى نفسه وهو يعجب من أمره ، كان يحسب أن قلبه قد همد بعد أن مزقته تلك الرسالة التى فتحت عينيه على الحقيقة المريرة . ولكن ما انقضت أسابيع على انفصاله عن زوجه حتى التأمت جراحه وأخذ قلبه ينبض لرؤية دار عمه ! .

واحتلت علية تفكيره فراحت تتراءى لعين خياله بوجهها الدقيق الناصع البياض وشعرها الذهبى وعينيها الزرقاوين فتسرى فيه إحساسات الحب وينبض قلبه بالحياة ، وأخذت الذكريات تفد مشرقة إلى ذهنه فيستقبلها فى ترحاب .

وعاد إلى داره وهو يعيش فى نفسه ، وما وافى الليل وساد الغرفة ظلام حتى أضىء مسرح رأسه وراحت تتوافد عليه مواكب الذكريات ، ورأى نفسه وعلية وهما طفلان وهى تجذبه من يده إلى الخميلة ثم تقبله فى فرح ، فأحس طعم القبلة شهية على شفتيه وانتشت لها روحه وخفق لها قلبه خفقات ، وخطرت له مشاهد حديقة الحيوان ، رأى علية وهى تصوب إليه عينيها الزرقاوين الصافيتين وقد شع منهما حب ، ورأى نفسيهما وهما يسيران فى مسالك الحديقة جنبا إلى جنب فهفت روحه إلى تلك الأيام .

ولج فى التصورات فرأى نفسه وهو ممدد فى سريره فى مستشفى الكلية بعد

أن سقط عن ظهر حصانه وعلية إلى جواره تواسيه ، فشعر بالحنان ينسكب بين حناياه ، واسترسل فى تصوراته فألفى نفسه يمد ذراعه يلفها حـول خصرها ويجذبها إليه فى وجد ويقبلها فى حرارة وهيام .

وامتزجت الذكريات بالتصورات فأخذت الرؤى العذاب تخطر فى ذهنه وهو مفعم بالنشوة ، وما كشف النهار عن وجهه حتى كان حسين قد استقر رأيه على أن يذهب إلى الزمالك ليرى من أحبها من أعماقه منذ صباه .

ووقف أمام المرآة يصلح هندامه ويديم التطلع إلى صورته ، ثم خرج وفى صدره قلق وقلبه دائب الخفقان ، كان يحس كأنما كان ذاهبا ليوافى حبيبته لأول لقاء . وانطلق وفى صدره حرارة حتى إذا بلغ دار عمه تمهل فى سيره وثارت مشاعره وأخذ فؤاده يقفز فى رعونة ، وجعل يتلفت فى حيرة واضطراب .

وانتظر حتى يفرخ روعه ولكن كان خوفه فى ازدياد ، فولج من الباب وقلبه يدوى دويا وعيناه تدوران لا تستقران على شىء ، وتقدم حتى إذا وصل إلى الدرج الرخامى أخذ يرقاه فى بطء وتثاقل وقد دثرته رهبة . وراحت الأفكار تتزاحم فى رأسه ثم أحس إحساسات التضاؤل التى كانت نفسه كلما جاء لزيارة ابنة عمه ، وزاد فى تضاؤله أن خطر له أنها هى التى أرسلت إليه تلك الرسالة التى فتحت عينيه على كل ما كان يعيش فيه من نفاق فانقبض صدره وأحس قهرا ، وشعر بقوة قاهرة ترغمه على أن يدور على عقبيه وأن ينصرف من حيث جاء فنكص مهزوما وخرج من الباب منكس الرأس وقد انداح فى جوفه الحزن ، وراح يضرب فى الطريق وهو حيران يحس فى أعماقه إحساس من يعيش غريبا فى الحياة .

رقم الإيداع ٢٨٠٣
الترقيم الدولى ٩ — ٢٣٨ — ٣١٦ — .٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن : ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه